

الفصل الاول

الامويون والعباسيون

تمتاز دولة بني امية عن دولة الراشدين بان السلطة تحولت فيها من الخلافة الدينية الى الملك السياسي . وتمتاز عن الدولة العباسية بأنها عربية بحتة شديدة التعصب للعرب كثيرة الاحتقار لسواهم . ولذلك فان اهل الذمة وغيرهم من سكان البلاد الاصليين قاسوا من حلماء بني امية ومن عمالهم الامور الصعاب حتى الذين اسلموا منهم فان العرب كانوا يعاملونهم معاملة العبيد وكانوا يسمونهم « الموالي » و يعدون انفسهم ذوي احسان عليهم لانهم انقذوهم من الكفر واذا صلوا خلفهم في المسجد حسبوا ذلك تواضعاً لله . وكان بعض العرب اذا مرّت به جنازة مسلمة قال « من هذا » فاذا قالوا « قرشي » قال « واقوماه » واذا قالوا « عربي » قال « وابلدتاه » واذا قالوا « مولى » قال « هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء » . وكانوا يحرمون الموالي من الكنى ولا يدعونهم الاَّ بالاسماء والالقاب ولا يمشون في الصف معهم وكانوا يسمونهم العلوج . وفي كتاب الموالي للجاحظ ان الحجاج لما قبض على الموالي الذين حاربوا مع ابن الاشعث اراد ان يفرّقهم حتى لا يجتمعوا فنقش على على يد كل واحد اسم البلدة التي وجهه اليها . وقد تولى ذلك النقش رجل من بني عجل فقال الشاعر

وانت من نقش العجلي راحته وفرّ شيخك حتى عاد بالحكم [1]

فكان سكان المملكة الاسلامية غير العرب يقاسون مرّ العذاب من عمال بني امية و يودّون التخلص من دولتهم وكانوا اول المجيبين لمن يدعو الى خلافها او يطلب اسقاطها

ولولا دهاء بعض خلفائها وامرائها لم تطل مدة حكمها ولكنها قامت بدهاء معاوية وانصاره كزياد بن ابيه وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة . والناس بايعوا معاوية رهبة من سيفه او رغبة في عطائه وهم يعتقدون ان اهل بيت النبي اولى بذلك الامر ثم توالى في هذه الدولة احوال كثيرة ساعدت على استبقاء الخلافة في بني امية نيفاً وتسعين سنة

وكان اهل بيت النبي في اثناء ذلك يطلبون الخلافة لانفسهم ولا يفلحون وهم فئتان

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢

كبيرتان فئة ترجع بانسابها الى الامام علي ابن عم النبي وهم العلويون وفئة ترجع الى العباس ابن عبد المطلب عم النبي وهم العباسيون · والعلويون فئتان فئة تطالب بالخلافة لابناء علي من زوجته فاطمة بنت النبي وهم الحسن والحسين ومن تسلسل منهما وفئة تطلبها لابنه محمد ابن الحنفية · وكان دعاة محمد هذا يقال لهم الكيسانية واما العباسيون فتسمى شيعتهم الراوندية

والعباسيون لم يطالبوا بالخلافة الا في اواخر دولة بني امية · واما العلويون فما انفكوا من زمن معاوية وهم يطالبون بها فيرسلون الدعاة الى انحاء المملكة الاسلامية يدعون الناس اليهم وكثيراً ما اجتمع حول بعضهم الوف من الانصار والاشياع ولكنهم لم يفلحوا · حتى اذا انقضى القرن الاول واخذ شأن بني امية في الضعف واخذت دولتهم في الاختلال كان شأن الكيسانية قد افلح وهم يدعون لابي هاشم ابن محمد بن الحنفية المذكور وقد كثر دعاتهم في العراق وخراسان وكان ابو هاشم قد اوصاهم انه سيحوّل الدعوة الى آل العباس · فلما علمت شيعة ابي هاشم بموته قدموا الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس المذكور وبايعوه فبعث الدعاة الى الآفاق في السنة المئة للهجرة سرّاً · وكان اكثر الذين اجابوا الدعوة من الموالي غير العرب وخصوصاً في خراسان لبعدها عن مركز الخلافة الاموية بدمشق · وفي سنة ١٢٤ هـ توفي محمد بن علي صاحب الدعوة فبايع الناس لابنه ابراهيم وكانوا يسمونه الامام · وما زال امر العباسيين يقوى وامر الامويين يضعف حتى انقضت الدولة الاموية وقامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ · وكان قائد شيعة العباسيين شاباً فارسياً اسمه ابو مسلم الخراساني هو بطل هذه الرواية

الفصل الثاني

دهقان مرو

كانت بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر قبل الفتح الاسلامي مؤلفة من المدن والقرى وكان رجال الحكومة يقيمون في المدن ويجعلون فيها كل قوتهم · واما القرى فقد كانت في حوزة جماعة من اشراف الفرس يعرفون بالدهاقين على نحو ما كانت عليه حال قرى اوربا في عصر الاقطاع اذ كانت البلاد في ايدي الامراء الاشراف من الكونتية واللوردية وكل امير منهم يحكم مقاطعة تعرف باسمه يحرسها جنده وتحرثها رجاله وهو فيهم مكان الحاكم

المطلق . وكان الدهقان ورجاله يحكمون اهل القرى سكان البلاد الاصليين ويستخدمونهم استخدام الرّق وكان السكان خليطاً من الشعوب الآرية يمتازون بضخامة البدن و بروز الصدر

كذلك كان الدهاقين في خراسان وغيرها لما فتح العرب تلك البلاد . فهم انما فتحوا المدن واقاموا فيها الحامية . اما القرى فاقروا فيها الدهاقين على نحو ما كانوا عليه في دولة الفرس واستعانوا بهم في كثير من الاحوال وخصوصاً في اقتضاء الخراج بما كان لاولئك الدهاقين من النفوذ العظيم على اهل البلاد الاصليين وكثيراً ما كانوا يستجسون بهم احوال الحكام وغيرهم . وكان الدهاقين من الجهة الاخرى ينتفعون بتقربهم من الفئة الحاكمة ويجتزئون مما كانوا يجمعونه من الخراج فتضاعفت ثروتهم وزاد نفوذهم . على انهم كانوا يتفاوتون ثروةً ونفوذاً من صاحب القرية الصغيرة او المزرعة الى صاحب الرساتيق العديدة والبلاد الواسعة وكثيراً ما كانوا يتولون الحكومة كالامراء لكن بني امية كانوا يسيئون الى اولئك الدهاقين احياناً في جملة اساءتهم الى غير العرب . وكانت ديانة الدهاقين المجوسية ديانة الفرس القدماء وانقضت ايام بني امية ولم يسلم منهم الا القليلون

وكان اعظم دهاقين خراسان في اوائل القرن الثاني للهجرة دهقان كانت ضياعه اكثرها بجوار مدينة مرو عاصمة خراسان في ذلك العهد ولذلك غلب عليه الانتساب الى تلك المدينة فكان يسمّى « دهقان مرو » . وكان لهذا الدهقان ابنة اسمها جلنار غلبت شهرتها على شهرته بالجمال والتعقل وقد ذاع ذكرها في الناس حتى اصبحت مضرب امثالهم وخصوصاً بالانفة والامساك عن الزواج مع كثرة الخطاب من كبار الدهاقين والامراء . وكان اذا طلبها طالب عرض ابوها عليها امره ورغبها فيه فاذا ابت جاراها

وكان الدهقان المذكور يقيم في مزرعة له على بضعة اميال جنوبي مرو في قصر فخيم تأنق في بنائه وانشأ حوله الحدائق غرس فيها الاشجار المثمرة واصناف الرّياحين والازهار وسرح فيها الطيور الداجنة وفي جملتها الطاووس والديك الهندي واصناف الدجاج ابتني لها اقفاصاً في بعض جوانب الحديقة واقام حول القصر والحديقة سوراً عالياً منيعاً كأسوار القلاع . وخارج السور منازل رجال الحاشية والاعوان و بينها اعشاش يقيم فيها الحراثون والخدمة

ولم يكن يقيم في القصر الاّ الدهقان ونساؤه وخدمه وبنته ولم يكن له ولد سواها . والقصر المذكور مبني على نمط خاص يحسبه المقبل عليه هيكلاً من هياكل النار التي كان الفرس يصلون فيها قبل الاسلام . والظاهر ان هذا القصر كان هيكلاً لعبادة النار

فلما اسلم اصحابه حوّلوه الى قصر للسكن وانشأوا حوله الحديقة والسور · ولذلك فالمقبل على القصر يرى في صدره اساطين من الرخام ضخمة عليها نقوش فهلوية هي عبارة عن صور بعض الابطال وبعض نصوص الادعية او الصلوات على اصطلاحهم · وتحيط هذه الاساطين برحبة ارضها من الرخام مرتفعة عن ارض الحديقة وتشرف عليها · وفي سقفها نقوش ملوّنة تمثل بعض الخرافات القديمة عند المجوس وفيها مواقع حربية او حوادث دينية وكانوا يسمون تلك الرحبة قاعة الاساطين او القاعة الكبرى · ووراء تلك القاعة غرف كبيرة مفروشة احسن فرش من الديباج والابريسم على النمط الفارسي

الفصل الثالث

جلنار

في ليلة من ليالي رجب المقمرة من سنة ١٢٩ ه كان الدهقان جالساً في تلك القاعة بين تلك الاعمدة وقد فرشوا المكان بالسجاد وفوقه الوسائد المزركشة بالذهب وفي وسط القاعة شبه منضدة من خشب الصندل المرصع بالاصداف الملوّنة وعلى المنضدة تمثال صغير من الذهب يشبه فارساً فارسياً عليه الدرع وعلى رأسه الخوذة والى جنبه السيف وعينا الفارس وعينا الجواد من الحجارة الكريمة · وقد علقوا في سقف القاعة عدة مصابيح بينها مصباح كبير في وسطها فأناروا المصابيح في تلك الليلة كالعادة ولكن القمر اغناهم عن نورها

وكان الدهقان جالساً في صدر القاعة على وسادة من الحرير وعليه قباء من الديباج الاحمر وعلى رأسه قلنسوة من الجلد الملون وحول القلنسوة عمامة صغيرة من نسيج الكشمير يغلب فيها اللون الابيض · وكان القباء مبطناً بالفرو لانهم كانوا في فصل الربيع · وكانت تلك الليلة باردة فالتف الدهقان بقبائه وبالغ في الالتفاف حتى غطى الفرو عنقه ومعظم لحيته · وكان كبير الوجه جاحظ العينين ضخم الانف اشقر الشعر وقد خالطه الشيب قليلاً فيحسبه الناظر اليه في الخمسين من عمره وهو فوق الستين · وبعد ان جلس هناك وحده ساعة نهض بغتة ودخل يطلب غرفة ابنته فبغت الخدم لقيامه وتفرقوا من بين يديه ثم وقفوا احتراماً له · وكانت جلنار قد ذهبت الى غرفتها بعد العشاء وبعثت الى ماشطتها الخصوصية فجاءتها واعانتها في خلع ثيابها ونزع حليها ثم جلست الى جانب فراشها لتحادثها ريثما تنام ·

ولم يكن قد آن وقت الرقاد ولكن جلنار احتالت في الذهاب الى الفراش لتخلو بماشطتها وتسارها بما في نفسها

وكانت جلنار من الجمال على جانب عظيم مستديرة الوجه ممتلئة الجسم طويلة القامة معتدلتها بيضاء البشرة مع حمرة تتلألأ تحت ذلك البياض سوداء الشعر مسترسلته نجلاء العينين كحلاء هما مع جاذب وحلاوة يندران في البيض لان الجاذب يغلب في السمر • وكان لها في مقدم الذقن نخصة واذا ابتسمت ظهر لها الى جانبي الفم نخصتان هما الغمازتان

فلما فرغت الماشطة من تبديل ثيابها البستها قميصاً من الحرير الناعم وردي اللون وحلت شعرها وسرحته بمشط من العاج فاسترسل الى كتفيها ثم ضفرته ضفيرة واحدة لئلا يعيقها في النوم • وكانت الماشطة من اهل الذكاء والتعقل وأصلها سرية ابتاعها الدهقان في جملة جوار بيض من بعض تجار الرقيق الذين يتحرون بالمماليك من بلاد الترك والخزر لكنها تمكنت بذكائها وأسلوبها من اكتساب ثقة الدهقانة جلنار حتى جعلتها ماشطتها • والماشطة من أهم أصحاب النفوذ في بيوت الدهاقين لان نساءهم يفضين باسرارهن الى الماشطة ويعتمدن عليها في المهام العظام • فاذا كانت من أهل الذكاء والدهاء ملكت زمام القصر واستخدمت الدهقان والدهقانة

وكانت ماشطة جلنار واسمها ريحانة قد ملكت ثقة سيدتها وتمكنت من محبتها وخصوصاً بعد وفاة والدتها فاصبحت ريحانة مركز آمالها وخزانة اسرارها • فلما فرغت من تبديل الثياب استلقت جلنار على فراش من ريش النعام غشاؤه اطلس سماوي اللون فغرقت فيه واتكأت بذراعها اليسرى على وسادة مزركشة واسندت خدها على كفها وتغطت باللحاف الى أسفل الكتف وأرسلت يدها اليمنى فوقه وقد نزعت من معصمها أكثر الحلي الا الاساور وانحسر الكم عن زندها فظهرت بضاضته مع بياضه ناهيك ببضاضة تلك الكف • فتوسدت على تلك الصورة ووجهها نحو ريحانة وكانت ريحانة قد لفت رأسها وحول عنقها بخمار من نسيج الكشمير ولبست دراعة مستطيلة تحتها سراويل منتفخة على نمط لباس الفرس في تلك الايام وليس عليها شيء من الحلي

جلست ريحانة الى جانب جلنار وهي مستغربة ما آنسته من سكوتها وانقباضها في أثناء تبديل الثياب وكانت عادتها ان تغتنم مثل تلك الساعة للممازحة والمضاحكة • فلما رأت ريحانة سكوتها جارتها في السكوت تأدباً وصبرت نفسها حتى تفتح هي الحديث مع علمها ببعض ما يجول في خاطر سيدتها من الهواجس • فلما اتكأت جلنار اشارت الى ريحانة

ان تغلق باب الغرفة ففعلت وعادت الى مكانها ومدت يدها الى شعر جلنار وجعلت تلاعبه بين أناملها ثم مرّت يدها علي رأسها وهي تنظر الى وجهها وتبتسم كأنها تستفهم منها عن سبب ذلك السكوت • فقالت جلنار بلسانها الفارسي وكانت تعرف العربية مثل معظم أهل فارس في ذلك العصر لانها لسان الفئة الحاكمة لكنهم كانوا يتفاهمون فيما بينهم بالفارسية لغة آبائهم — فقالت جلنار « ما قولك بأبي •• »

قالت ريحانة « انه يريد خيرك •• »

قالت « صدقت ولكني أراه شديد الرغبة في زواجي •• »

قالت « اتلومينه على ذلك •• ؟ واي اب لا يريد ان يزوج بناته •• ؟ وانت من نعم المولى في رغد وسعادة وابوك أكبر دهاقين خراسان وليس له سواك وكلما جاءك طالب رفضته افيلام ابوك اذا غضب •• »

فتنهدت جلنار وكأنها ارادت السكوت ولم يطاوعها قلبها فقالت وهي تتشاغل باصلاح قميصها عند العنق « وهل تظنين اني أكره الزواج ••• لكني أرى والدي لا يلتفت في زواجي الى غير مصلحته وانت تعامين ذلك •• »

فتجاهلت ريحانة وقالت « لا اراه كما تقولين يا مولاتي لانه انما أراد زواجك بأكبر امراء العرب في خراسان ولا يخفى عليك ان هذا الامير لا يطلب فتاة الا نالها لانه الحاكم النافذ الكلمة ومن تقرّب منه اكتسب مثل هذا النفوذ •• »

فقطعت الفتاة كلامها قائلة « وهذا ما اقوله •• ان ابي يريد تزويجي بابن الكرماني امير هذا الجند ليكتسب النفوذ عنده وليكثر دخله من جباية الخراج •• ثم ان الكرماني هذا لم يتم له الامر فهو ليس الامير الحاكم وانما هو يطلب الحكم لنفسه وما ادرانا انه يناله •• »

قالت « اما من قبيل نيله الامارة فانا ضامنة ذلك لما علمته من قوة جنده فهو الآن محاصرٌ مرو عاصمة خراسان وقد ضيق على اميرها نصر بن سيار حتى فرّ نصر من بين يديه ولا يبعد ان يعود نصر الى التسليم فيصير الكرماني صاحب الامر والنهي في خراسان فتكونين حينئذ اميرة خراسان •• »

قالت « اراك تخلطين وتخبطين •• أأتزوج ابن الكرماني على امل ان اباه سيغلب أمير خراسان ويقوم مقامه ؟ وما ادرانا ان الخليفة في الشام لا يرسل جنداً فيحارب الكرماني هذا ويقهره • فكيف تكون حالنا ؟ • »

فابتسمت ريحانة وقالت « أما من قبيل الخليفة في الشام فكوني على يقين انه لا يحرك ساكناً لاشتغاله بما حوله عما هو بعيد عنه • فقد علمت من خادمك الضحاك انه لما تولى الخليفة الحالي مروان بن محمد قامت الناس عليه حتى اهله ورجاله وقد قضى زمناً وهو يحارب ويغالب في بلاد الشام ولم يستطع اخضاع تلك البلاد الابشق الانفس • فهو لا يطمع باسترجاع خراسان اذا تغلب عليها رجل مثل الكرماني »

قالت « لقد اذكرتني بذلك الخادم المضحك فانه خفيف الروح وأراه على كونه عربياً يعرف اللغة الفارسية جيداً ومع ما يظهر من بلهه وضحكه المتواصل وخفة روحه فانه بعيدالنظر ذو دهاء يمكن الاعتماد عليه • ومن الغريب انه عربي وقد دخل في خدمتنا على هذه الصورة •• أين هو الآن •• ادعيه لعلنا نستفيد شيئاً من حديثه •• »

الفصل الرابع

طارق

فهمت ريحانة بالنهوض فسمعت خفق نعال امام باب الغرفه فعرفت للحال ان الدهقان مارٌّ من هناك فلبثت ريثما يمر فاذا هو قد وقف بالباب ثم فتحه ودخل وهو ملتفٌّ بالقباء كما تقدم فاسرعت ريحانة وهرولت نحو الباب وخرجت احتراماً لسيدها • وأما جلنار فانها جلست في الفراش وقد ظهرت البغتة في وجهها ولكنها كانت رابطة الجأش فتجلدت ورحبت بوالدها • فاقبل حتى وقف بجانب فراشها ثم انحنى وأمسك ذقنها بين انامله كانه يلاعبها استعطافاً لها او استرضاءً لخاطرها • أما هي فلم تجهل غرضه فظلت صامتة حتى خاطبها قائلاً « أراك تاتمسين الرقاد باكراً يا جلنار •• »

قالت « رأيتني تعبة فاحببت الاستراحة في الفراش وانا لا أشعر بالنعاس •• »

قال « هلمَّ بنا اذاً الى القاعة الكبرى فان الجلوس فيها يشرح الصدر لما تطل عليه من الازهار والرياحين ونحن في ابان الربيع فضلاً عن نور القمر الساطع •• »

فلم يسع جلنار الا مجاراة والدها فنهضت وتزملت بملاءة كبيرة من نسيج الكشمير يغلب فيها اللون العنابي غطت أثوابها ومشت معه حتى وصلا الى القاعة فجلسا على وسادتين

متحاذيتين وجلنار تتوقع من أبيها حديثاً لايرضيها • فلما استقر بهما الجلوس قال الدهقان « رأيتك يا جلنار في هذا المساء على غير ما تعودته من طاعتك فما الذي حملك على ذلك ؟ »

فقالت وهي مطرقة « اني أطوع لك من بنانك يا مولاي •• »

قال « فمابالك لما ذكرت لك ما بعث به الينا امير العرب من خطبتك لابنه سكتِّ وتجاهلت ؟ ألا تعلمين ان مصاهرة هذا الامير من اكبر اسباب سعادتك »

قالت « وأي أمير تعني يا أبتاه »

قال « اعني الكرماني قائد قبائل اليمنية الذي يحاصر مدينة مرو الآن او هو فتحها على ما بلغني وقد فرّ نصر منها »

قالت « اني لا أفعل الا ما تأمرني به لكنني لا اثق بفوز هذا الامير •• وقد رأيتك لما بعث نصر بن سيار أمير تلك المدينة يطلبني منك لابنه لم تجبه مع انه صاحب حكومة خراسان •• »

قال « وهذا يدلك على احتفاظي بك وسعيي في راحتك لان نصراً هذا لا يلبث ان يُغلب على ما في يده ويخرج من هذه البلاد مدحوراً لضعف حاميته وانحطاط دولة بني أمية على الاطلاق وقد اصبح اهل خراسان كافة ناقمين عليها بعد ما ظهر لهم من ايثارها العرب على الفرس ومطالبتهم بالضرائب الفادحة بغير الحق حتى طلب عمالها الجزية من المسلمين على غير القواعد المرعية في الاسلام •• »

قالت « لا اجهل استبداد هذه الدولة ولكنها لا تزال في اعتباري اقوى من رجال لا دولة لهم ولا حكومة كابن الكرماني • فانه اشبه برجل ثائر على حكومته وشأنه في ذلك مثل شان جماعة الخوارج الذين يجتمعون على الدولة ثم يتفرقون ويقتلون وآخرهم شيبان الذي رأيناه بالامس محاصراً لمرو • وزد على ذلك ان الكرماني ليس معه من الاحزاب الا القبائل اليمنية من العرب واما سائر القبائل المضرية فهم مع نصر بن سيار وربما عدلوا قوة اليمنية او زادوا عليها • وهل نسيت حزب الشيعة القائم الآن في طلب الخلافة لآل البيت وقد انحصرت البيعة الآن في بني العباس وامامهم ابراهيم بن محمد • ألم نكن نحن في جملة الفرس الذين عاهدوا دعاة العباسية على نصرتهم واكثر احزابهم من اهل خراسان »

قال « صدقتِ نحن عاهدنا الشيعة وساعدناهم ولكن يظهر لي انهم يقولون ولا يفعلون • لقد مضى عليهم عدة اعوام منذ دعونا الى نصرتهم سرًّا فمددناهم بالاموال مرارًا ولكنهم

لايزالون الى الآن يتكتمون واما الكرماني هذا فانه جمع الجند ولا يلبث ان يستولي على مرو واذا هو فتحها اصبح امير خراسان ثم يفتح سواها و يصير دولة قوية تقوم مقام دولة بني امية ٠٠٠ واكبر شاهد على ذلك انه تغلب بالامس على الحرث بن سريج وقتله وشتت جنده ثم غلب على مرو وفرّ نصر منها وهو لا يزال فارًّا فالكرماني صاحب الامر والنهي الآن ٠٠٠ فاطيعيني وانتِ الرابحة واذا كان الامير صهرنا فيكون لنا النفوذ الاعظم وتكونين انت اميرة خراسان كلها ٠ ومع ذلك فاني قد وعدته بك من قبل وبعث اليّ بالمهر مع الرسول »

فسكتت جلنار واطرقت فاتخذ ابوها سكوتها جوابًا واراد ان يثبت ذلك فصفق فجاءه بعض الغلمان فقال « آتوني بالضحاك العربي ٠٠٠ »

الفصل الخامس

الضحاك

ولم يمض قليل حتى جاء الرجل وكان طويل القامة رقيق البدن محدودب الظهر قليلاً بسبب طوله وكان لا ينفك ضاحكاً لغير سبب بما يشبه البله وكان يعتمّ بعمامة كبيرة جدًّا مع صغر وجهه وغور عينيه وصغرها وخفة شعر لحيته وشاربيه فيصير منظره مضحكاً ولا يكلمه احد الاّ اضحكه وكان قد دخل في حوزة الدهقان على سبيل البيع فاشتراه من بعض تجار الرقيق وقد احتفظ به لانه عربي ويندر ان يباع العرب بيع الرقيق في تلك الايام ٠ وقد اعجبه ما كان فيه من خفة الروح فكان كثيرًا مايدعوه ويسأله بعض الاسئلة عن العرب فيجيبه عنها جواب خبير ويخلط الجد بالهزل فلما آنس الدهقان في ابنته الانقباض في تلك الليلة اراد ان يفرج عنها فاستقدمه ٠ فلما دخل القى التحية ثم غمز عمامته فانحرفت الى جانب رأسه فاصبحت بكبرها وانحرافها ذات منظر غريب والضحاك مع ذلك يضحك ويقهقه بلا سبب ظاهر

فلما رأته جلنار ضحكت لانها كانت تستأنس به كثيرًا وكانت تتوقع ان تستخدمه في بعض مصالحها لما تحققته من جدّه في معرض المزاح ٠ فقال الدهقان « اي متى يثبت سلطان بني امية في خراسان ٠٠ ؟ »

فاجاب على الفور « متى شاب الغراب يا مولاي »

فالتفت الدهقان الى ابنته وابتسم كأنه يقول لها « الم اقل لكِ ذلك ؟ » ثم التفت الى الضحاك وقال « فكيف تقول ذلك والامويون لا يزالون اهل سلطان وخليفتهم في الشام عنده الجند والاعوان الا تطنه ينجد هذه المدينة و ينقذها من اصحاب الكرماني ؟ . »

فقهقه الضحاك قهقهة عظيمة وقال « مسكين نصر بن سيار . لقد بحّ صوته وهو يستنجد بني امية و ينذرهم بسوء المغبة ان لم ينجدوه وما من مجيب . وقد بلغني انه استعان في اقناع الخليفة بالشعر فنظم له قصيدة قال له فيها

اری بین الرماد ومیض نار ... واحشى ان يكون له ضرام
فان النار بالعودين تذكى ... وان الحرب مبدأها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية ام نيـام

اتدري ماذا اجابه الخليفة على ذلك »

قال الدهقان « ماذا اجابه ؟ »

قال « كتب اليه ان الشاهد يرى ما لا يراه الغائب (وضحك ضحكة طويلة) ولم يسعفه بشيء »

فنظر الدهقان الى ابنته واكتفى بتلك النظرة تأييداً لقوله . وكانت هي بالحقيقة لم تقنع ولم يكن تمنعها من وجه سياسي او طمع بسلطان ولكنها كانت ذات قلب يحبُّ و يبغض فاذا سلمت قيادها الى والدها لا تستطيع ان تسلم قلبها لابن الكرماني لاشتغاله بحب رجل رأت انه يستحق محبتها وكانت قد شاهدته في مجلس والدها مرة فاعقبت تلك النظرة الف حسرة ولكنها لم تكن تجسر على مخاطبة ابيها لانها لم تكن تعلم اذا كان عند الرجل مثل ما عندها فسكتت . فاشار والدها الى الضحاك فخرج مهرولاً فلما خلا الدهقان بابنته قال لها « سأردُّ رسول الكرماني في الغد بجواب الرضا واتكلي على الله » فلم تجب فلم يهمّه سكوتها لاعتقاده انه سكوت الحياء

وكانت هي في اثناء سكوتها قد شغل ذهنها سماع طنطنة اجراس عن بعد لهدو الطبيعة في تلك الليلة المقمرة ثم سمعت نباح الكلاب وهي لا تنبح الاّ على طارق . فتشاغلت عن سؤال ابيها بالاصغاء الى طنطنة الاجراس فانتبه ابوها لذلك فقال لها « يظهر ان قافلة سائرة ليلاً بضوء القمر » ثم جعلت اصوات الاجراس تقرب ونباح الكلاب يشتد والدهقان وابنته صامتان وكل منهما في شاغل . وقد فرح الدهقان بقبول ابنته لاعتقاده بما سيكون من امر الكرماني وسلطانه وما سينال من النفوذ والكسب على يده ولعلمه انه اذا لم يقبل طلبه طوعاً سيضطر لقبوله كرهاً

الفصل السادس

ابو مسلم الخراساني

ولم يمض يسير حتى سمعوا جعير الجمال وصهيل الخيل وضوضاء الناس ثم جاء بعض الغلمان مهرولين وهم يقولون ان قافلة كبيرة وقفت بجانب القرية تطلب النزول بدار الاضياف »

فقال « وهل هم كثيرون . ؟ ومن اين قادمون ؟ »

قالوا « انهم يزيدون على مئة نفس ومعهم الجمال والخيل »

فقال « لا اظنهم يعنون الاقامة جميعاً عندنا ومع ذلك فادعوهم للنزول »

فعاد الغلمان و بعد قليل جاء احدهم وهو يقول « ان بعض رجال القافلة يطلبون مقابلة الدهقان »

قال « فليدخلوا »

فوقفت جلنار تريد الرجوع الى غرفتها فامسكها ابوها وقال « اقعدي لا بأس عليك لنرى من هم القادمون . . »

وبعد قليل اقبل رجلان قد ترمل كل منهما بقباء اسود وتلثم بلثام اسود ووراءهما رجلان يحملان حزمة طويلة يسندانها من طرفيها على اكتافهما . فلما وصلا الى بين يدي القصر انزلاها الى الارض ووقفا هناك . اما الاثنان الاولان فدخلا دخول الامراء وحييا الدهقان بالفارسية . فلما سمع تحيتهما اجفل لانه سمع صوت رجل يعرفه فتقدم ذلك الرجل الى الدهقان ولم يلتفت الى ابنته وسلم . فلما دنا من المصباح صاح الدهقان « عبد الرحمن ! »

فلما سمعت جلنار اسمه اختلج قلبها في صدرها ونظرت الى وجهه وهو ملثم فلم تعرفه ولكنها توسمت خيراً من قصر قامته مع طول صدره وقصر ساقيه فظلت جالسة وهي تنتظر ان يحسر اللثام . فلما سمع الدهقان يرحب به نزع اللثام فبان من تحته وجه اسمر جميل نقي البشرة احور العينين عريض الجبهة حسن اللحية وافرها طويل الشعر[1] فلما رأته جلنار علمت للحال انه عبد الرحمن بن مسلم (وقد سمي بعد ذلك ابا مسلم الخراساني فنسميه بهذا الاسم منذ الآن) ولم تتمالك عند رؤيته عن الامتقاع لما اصابها من البغتة من رؤيته على غير انتظار مع ما في نفسها من حبه

(١) ابن خلكان ج ١

اما الدهقان فحالما عرفه رحب به ودعاه للقعود فقعد ثمَّ دعا ابو مسلم رفيقهُ للقعود ايضاً وهو يقول له بصوت خافت وجاش رابط « اقعد يا خالد »

فنظر الدهقان الى الرجل كأنَّه لا يعرفه فقال ابو مسلم « هذا صديقنا خالد بن برمك »

فبغت الدهقان وقال « ابن صاحب النوبهار ؟ .. »

فاجاب خالد قائلاً « قد انقضت ايام النوبهار وتخلصنا من عبادة النار اذ هدانا الله بالاسلام »

قال الدهقان « صدقت ... اهلاً بكما ومرحباً » ثم صفق فجاء بعض الغلمان فامرهم باعداد الطعام للاضياف وتقديم ما تحتاج اليه القافلة من الزاد والعلف

فاعترضه ابو مسلم بهدو وسكينة قائلاً « لا تتعب نفسك ولا تشغل رجالك فاننا لا نحتاج الى شيء من ذلك ونحن لشكرك لحسن وفادتك »

فقال « ومن اين انتم قادمون ؟ »

قال « من الحج .. » وفي ملامح وجهه ما يدل على انه يعني غير ما يقول . ففهم الدهقان انه يريد الكتمان كعادته من قبل . فقد كان ابو مسلم يفد على الدهاقين في طلب المدد من المال ونحوه انتصاراً للشيعة . وكان يفعل ذلك سرًّا خوفاً من عمال بني أمية فسكت الدهقان فادرك ابو مسلم ظنه فقال « لا تظننا نريد التكتم فقد انقضى زمن الاسرار وآن لنا ان نظهر دعوتنا ... فهل انتم على عهدكم معنا ؟ »

فتذكر الدهقان انه صاهر الكرماني فهو بالحقيقة خالف العهد وقد كان في جملة من عاهد على نصرة بني العباس ولكنه لم يكن يتوقع ثباتهم لتكرار فشل الشيعة في نصرة اهل البيت ومع ذلك فقد ظن في كلام ابي مسلم مبالغة فاراد تحققه على ان يكتم عنه أمر الكرماني ثم يكون بعدئذ مع الغالب فقال « وما ذا تعني بذهاب زمن الاسرار »

قال « اعني اننا كنا نأتيكم سرًّا باسم ابراهيم الامام ونستنصركم على بني أمية ريثما يأون الوقت للظهور واخراج دعوتنا من القول الى الفعل بالسيف . فنبشركم ان الامام قد امرنا باظهار الدعوة »

فقال « هل جندتم الرجال ؟ »

قال « لم نجند احداً لاننا لم نبدأ باظهار الدعوة بعد وانت اول من عرف بعزمنا على ذلك ونرجو اذا اظهرناها ان يجيبنا كثيرون لان شيعتنا كثيرة في خراسان ومعظم الدهاقين معنا »

قال « هذا صحيح ومن هم الذين معك في القافلة »

قال » النقباء وهم سبعون نقيباً اختارهم الامام من شيعته ووجههم لدعوة الناس الى اتباعه وحمل السلاح في نصرته وسنفرقهم في خراسان قريباً »

قال « وكيف استطعتم المرور بهذا العدد الكبير في البلاد بدون ان يستغشكم العرب وهم يسيئون الظن بكل فارسي »

الفصل السابع

وصية الامام

فلما سمع ابو مسلم سؤاله احب ان يفيض في وصف حالهم تثبيتاً للدهقان في نصرته لعلمه انه اذا نصره هو اقتدى به دهاقين كثيرون فقال « أنت تعلم يا أعظم الدهاقين ان العرب يفاخروننا بالنبوة لان النبي منهم وقد احتقرونا واذلونا وعاملونا معاملة الرق ولو استطاعوا ان لا يبقوا منا احداً لفعلوا • مع ان الفئة السائدة منهم الآن وهم بنو أمية ليسو من اقارب النبي بل هم اعداء اهله وقد اضطهدوهم وقتلوهم وخصوصاً آل علي بن أبي طالب ابن عمه فانهم ساموهم العذاب الشديد • ولا يخفى عليك ان آل بيت النبي لا يرون فرقاً في الاسلام بين العربي والعجمي بل هم يفضلون العجم على العرب • ولذلك كانت شيعتهم من الفرس كما تعلم • ثم سلم آل علي حقوق الخلافة الى آل العباس عم النبي وكبيرهم الآن ابراهيم الامام فتحولت شيعة بني علي في هذه البلاد الى نصرة بني العباس • فالامام الآن مقيم في الحميمة بالبلقاء قرب الشام يبث الدعاة ويخابر الانصار • وقد عهد اليَّ في العام الماضي ان اتولى رئاسة هذا الامر وكتب الى أصحابه ان يطيعوني وجعلني أميراً على خراسان وما افتتحه من البلاد • فاستصغرني بعض النقباء لصغر سني لأني دون العشرين من العمر وهم مشائخ كبار لكنهم اذعنوا اخيراً • وقد اوصاني الامام يوم وداعه في العام الماضي وصية ذات بال هي اساس كل عمل عملته او سأعمله في سبيل هذه الدعوة »

وكان الدهقان يسمع كلام ابي مسلم وهو مندهش من رزانته على صغر سنه وقد احس وهو يسمع كلامه كانه يخاطب شيخاً كبيراً او ملكاً جليلاً لما كان في وجهه من الهيبة والوقار • فلما سمعه يشير الى وصية الامام اصاخ بسمعه ليفهم تلك الوصية جيداً • وكانت

جدار تتظاهر بالانزواء وكلها عيون وآذان لترى وتسمع . ولا تسل عن حالها في تلك الجلسة وهي المرة الثانية التي قابلت فيها ابا مسلم ولم تبق جارحة من جوارحها لم تتصور صورة أبي مسلم فيها

اما هو فقد كان في غفلة عما يتقد في قلب تلك الفتاة وانما كان همه القيام بتلك الدعوة حق القيام . فلما ذكر الوصية مد يده الى جيبه وقال « ها اني اتلوها عليك كما تلقنتها بالعربية حرفياً » واستخرج رقاً ملفوفاً نشره واخذ يقرأ والحاضرون يسمعون :

« يا عبد الرحمن انك رجل منا اهل البيت فاحتفظ بوصيتي وانظر الى هذا الحيّ من اليمن فاكرمهم وحل بين اظهرهم فان الله لا يتمّ هذا الامر الا بهم . وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في امرهم وانظر هذا الحي من مضر فانهم العدو القريب الدار . فاقتل من شككت في امره ومن كان في امره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء . وان استطعت ان لا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل . فايما غلام بلغ خمسة اشبار تتهمه فاقتله » [1]

فلما فرغ من تلاوة الرق لفه وارجعه الى جيبه وهو ينظر الى الدهقان . وكان الدهقان لما سمع تلك الوصية ارتعدت فرائصه من شدتها وقوتها وسرّه نقمة الامام على العرب لما في نفسه منهم ولم يكن رضاه بابن الكرماني صهراً الا من قبيل الخوف ولكنه كان لا يزال ضعيف الثقة بشيعة بني العباس . على انه كتم ذلك وتظاهر بالاعجاب وقال « انها وصية لا يقف عليها حكيم .. ويكفي من بواعث اجتماع الفرس عليها انها تأمر باذلال العرب وقتلهم فلا اظن دهقان او اي رجل فارسي يطلع على هذه الوصية الا كان من المتشيعين لآل العباس . ألا ترى ذلك يا خالد .. »

وكان خالد في نحو الاربعين من عمره وهو ابن برمك (جد البرامكة) صاحب النوبهار وهو بيت نار كان للفرس في مدينة بلخ . وكان برمك مجوسياً والغالب انه مات ولم يسلم فخلفه ابنه خالد هذا وهو من افراد الرجال عقلاً ودهاءً وبطشاً وكان في جملة من اسلم من عظماء الفرس وتشيع لآل العباس انتقاماً من بني أمية والتماساً لما كانوا يتوقعونه من السلطان لانفسهم والاجتزاء من النفوذ اذا قامت الدولة بهم . وكان على كونه كهلاً قد رضي برئاسة ابي مسلم وهو شاب لا يزيد سنه على العشرين الا قليلاً . ومثل خالد كهول واشياخ كثيرون ممن قاموا بدعوة العباسيين وقد رضوا بابي مسلم قائداً لهم احتراماً لامر

(١) الطبري ١٩٢٧

ابراهيم الامام وكان احدهم واسمه سليمان بن كثير قد اعترض فلم يجدِ اعتراضه فاذعنوا • وكان ابو مسلم يحترم خالداً ويقدره حق قدره ويستشيره في مهام أموره ولذلك لما أراد مقابلة الدهقان اختصه بصحبته دون سائر الرفاق

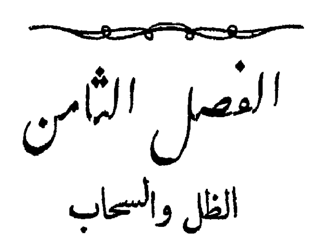
فلما خاطب الدهقان خالداً بشأن الوصية واستطلع رأيه اجابه على الفور « لا ريب عندي ان الفرس يستهلكون في نصرة العباسيين لانهم انما يسعون في مصلحة انفسهم ويجب على كل فارسي ان يقدم نفسه وماله لنصرة بيت النبي لان في نصرته رفع شأن الفرس •• »

فاراد الدهقان ان يطري ابا مسلم تقرباً منه وايهاماً له انه شديد التمسك بدعوته اخفاءً لما سبق من مصاهرته ابن الكرماني • فقال « ولا غرو اذا انتصر الشيعة وفيهم مثلكما ••• من رجال الحزم والبسالة والتعقل »

فقال خالد « ان البسالة والقوة لا يكفيان لاقيام بهذا العمل ياحضرة الدهقان »

فادرك الدهقان انه يلمح الى المال فقال « على كل منا ان يقدم مما عنده وكما اننا لم نقصر في الماضي والدعوة لا تزال سرية فلا نظننا نبحل الآن بشيءٍ ••• »

فعاد ابو مسلم لاتمام حديثه فقال « لجئت الى خراسان وقمنا بالدعوة سرًّا كما تعلم وانا اختلف الى الامام احمل اليه ما يجتمع عندنا من المال واتلقى اوامره • فلما كان هذا العام بعث يستقدمني اليه فسرت ومعي النقباء الدين ذكرتهم فاستغشنا الحكام في اثناء الطريق • فكنا اذا سألونا عن مسيرنا قلنا الى الحج • ولما بلغنا قومس اتاني كتاب الامام باسمي واسم سليمان بن كثير وهو من كبار النقباء ومع الكتاب راية النصر (واشار الى الحزمة المطروحة امام القصر) وقد قال لي في ذلك الكتاب (واستخرج الكتاب من جيبه وقرأ) « قد بعثت اليك براية النصر فارجع من حيث لقيك كتابي واظهر الدعوة فان الله ناصركم »



الفصل الثامن

الظل والسحاب

فلما اشار ابو مسلم الى الحزمة توجهت عينا الدهقان اليها فادرك ابو مسلم انه يريد رؤيتها فنادى الرجلين اللذين كانا يحملانها فاسرعا اليها وحملاها فلم تسعها القاعة لطولها

فادخلوها من احد طرفيها وظل الطرف الآخر خارجاً . وكانت ملفوفة بقماش اسود ففكاه واستخرجا منها لواء اسود وراية سوداء . واللواء معقود على رمح طوله ١٤ ذراعاً والراية على رمح طوله ١٣ ذراعاً فوقف ابو مسلم احتراماً للواء وقال « ان هذا اللواء يسمَّى الظل والراية تسمى السحاب ولونهما اسود واللون الاسود هو الشعار الذي اختاره الامام ابراهيم لشيعته فهم من اليوم يلبسون العمائم السود والاقبية السوداء وراياتهم ايضاً سود كما ترى »

وكان الدهقان حالما رأَى ابا مسلم واقفاً وقف ووقف خالد ايضاً . فهمَّت جلنار بالوقوف مجاراة لهم فلم تساعدها ركبتاها لما غلب عليها من التأثر بعد ماعاينته من ابي مسلم وما سمعته من احواله وانه قائد هذا الجند فاصبح همها الاطلاع على مكنونات قلبه من جهتها فارادت الوقوف لعله ينتبه لها فيرمقها بنظرة تفهم منها شيئاً فيطمئن بالها من جهته فوقفت وهي تتساند الى احدى الاساطين وتصدرت قليلاً حتى انتبه لها خالد فنظر الى وجهها نظرة الاعجاب والاندهاش . اما ابو مسلم فبالغ في التجاهل والاغضاء حتى كأَنه لا يرى شيئاً

ولما فرغ ابو مسلم من كلامه قال الدهقان « وما المراد باختيار السواد شعاراً لبني العباس — أَلعلهم ارادوا الاشارة الى الحداد على قتلى اهل البيت العلويين ومنهم علي والحسين وغيرهما . . . اما ماذا ؟ . »

فقعد ابو مسلم وهو يشير الى الرجلين ان يعيدا الحزمة كما كانت وقعد خالد والدهقان وظلت جلنار واقفة ثم قال ابو مسلم « ان السواد شعار اهل بيت النبي لان راية النبي كانت سوداء وهي راية العقاب »

اما الدهقان فقد وقر في نفسه ما علمه من امر الشيعة وخاف على نفسه من ابي مسلم اذا علم ما في ضميره فيشك فيه والامام اوصاه اذا شك في احد ان يقتله فتظاهر بالتحمس وقال « لقد ايقنت الآن بفوزكم وظهور الفرس ولا بد من استنجاد سائر الدهاقين وترغيبهم في الاسلام لان اكثرهم لا يزالون على المجوسية »

فقال خالد « اذا اسلم الدهاقين وانجدونا باموالهم ورجالهم فانما ينجدون انفسهم لانهم ينشئون دولة فارسية ترفع شأن الفرس . . . »

قال الدهقان « اني ضامن لكم اسلام معظم دهاقين خراسان . والاموال كثيرة . . » ثم صفق فاتاه غلام فأَمره ان يستدعي خازنه

فلما سمعه ابو مسلم يدعو خازنه ادرك انه يريد ان يدفع اليه مالاً على سبيل المساعدة على جاري عادته في مثل هذه الحال · فاشار ابو مسلم الى احد الرجلين صاحبي الحزمة اشارة فهم غرضه منها فخرج مهرولاً ثم عاد ومعه رجلان قد تأبط احدهما خريطة كبيرة كالكيس الكبير لكنها فارغة · ورفيقه رجل قصير القامة مع سمن قليل وعليه قباء واسع وعمامة كبيرة وكان لقصره يكاد يجرّ قباءه جرًّا · ووراءه غلام يحمل دواة وقلماً · فلما وصلوا القاعة وقفوا في بعض جوانبها فنادى ابو مسلم صاحب القباء قائلاً « تقدم يا ابراهيم واستلم من الدهقان ما جادت به نفسه في نصرة اهل البيت »

وكان خازن الدهقان قد جاء واسرّ اليه الدهقان كلاماً فرجع ثم جاء ومعه غلام يحمل اكياساً من جلد قد اثقلت كاهله حتى وضعها بين يدي الدهقان · فلما امر ابو مسلم خازنه ابراهيم باستلام المال تقدم واخذ في عدّ الاكياس وهي مختومة وقد كُتب على كل منها « الف دينار يوسفية » فبلغت عشرين كيساً فاشار الى رفيقه والغلام الآخر فتقدما وتعاونا على نقل الاكياس في الخريطة الكبرى · وتناول هو القلم والدواة واستخرج من تحت قبائه درجاً كتب فيه عدد الاكياس وما تحويه من الدنانير

وكان ابو مسلم في اثناء ذلك مطرقاً كأنه يفكر في امر يهمّه وقد زاده التفكير هيبة وشغله عما حوله · وكانت جلنار قد تعبت من الوقوف فقعدت على وسادة بجانب والدها وهي تختلس النظر الى ابي مسلم وهو لا ينتبه لها وكأن خالداً ادرك ذلك منها وتفطن لما يجيش في خاطرها من امر ابي مسلم ولكنه كان يعلم زهد هذا الشاب البطل في النساء واشتغال خاطره في المشروع الخطير الذي انتدب له فتجاهل

فلما فرغ الخازن من تدوين المال نهض واستأذن بالانصراف ولحظ الدهقان في ابي مسلم الرغبة في ذلك ايضاً فقال له « اذا كنتم تريدون الذهاب الى الرقاد فهذه دار قد امرنا باعدادها لنزولكم » واشار الى بعض جوانب الحديقة

فنهض ابو مسلم فلم يسع الحضور غير النهوض تهيباً واحتراماً وقال « ننصرف الآن الى الرقاد فان السفر قد اتعبنا هذين اليومين » قال ذلك ومشى فمشى الدهقان معه الى آخر القاعة حتى ودعه وصفق فجاء بعض الغلمان فامرهم ان يمشوا بين يدي الامير بالشموع الى المنزل المعدّ له · فمشوا وعاد الدهقان الى ابنته وكانت واقفة بجانب العمود ولم يبق هناك سواها

الفصل التاسع

الدهقان والدهقانة

وتوسَّم الدهقان مما شاهده من انقباضها انها تفكر في امر زواجها بابن الكرماني وانها تحتج على والدها في دفعه بما ظهر من ابي مسلم في تلك الليلة بحيث اصبح امر الكرماني ضعيفاً فابتدرها ابوها قائلاً وقد وضع يسراه على كتفها ومشى نحو غرفتها وهي تمشي معه « لا اظن هؤلاء الدعاة سيفلحون ولا ارى امرهم هذه المرة الاَّ صائراً الى الفشل كالمرات الماضية »

فلم يفتها غرض والدها من هذه المفاجأة بعد ما دار بينها وبينه في ذلك العشاء فقالت وهي تطاوعه في المشي « اذا كنت تعتقد فشلهم فما بالك تعاهدهم على القيام بنصرتهم وتبذل الاموال لهم »

فضحك ووقف وقبض على لحيته بيمينه ولا تزال يسراه على كتفها وقال بصوت منخفض وهو يتلفت « اني افعل ذلك من قبيل الاحتياط فقط . لاننا اذا اظهرنا له الجفاء كنا في خطر على حياتنا واموالنا وخصوصاً بعد ما سمعنا من وصية ابراهيم الامام فانه امره ان يقتل كل من يشك فيه . . ومع ذلك فنحن غير واثقين الثقة التامة بفشل هؤلاء وان كنت ارجح الفوز للكرماني للاسباب التي ذكرتها لك قبلاً . فمظاهرتنا بالمسالمة او المساعدة لا تضرنا بل نحن نتوقع ان تنفعنا . وليس ما نؤديه لهم بالشيء الذي يذكر بالنسبة الى ما نتوقعه من الكسب اذا كنا في جانب المنتصر من هذه الاحزاب » وكان قد عاد الى المسير حتى دنا من غرفة جلنار وليس في الدار احد من الخدم لانهم تفرقوا حالما رأوا الدهقان والدهقانة يتسارَّان

فلما فرغ الدهقان من كلامه قالت جلنار « لقد اصبت يا ابتاه انك تحاسن ابا مسلم بالاموال والمواعيد وتحاسن الكرماني بجلنار » قالت ذلك وغصَّت بريقها ودخلت الغرفة على عجل واستلقت على الفراش . فلحقها ابوها وهو يتجاهل وقال « يظهر انك تعبانة يا جلنار نامي واتكلي على الله وانا اعرف تعقلك وحسن تدبيرك واعتقد انك اذا كنتِ عند الكرماني وكنت انا مع ابي مسلم بتنا في مأمن واصبح الفوز مضموناً لنا في كل حال . نامي يا حبيبتي واستريحي الآن » قال ذلك وخرج وهو يجعل انه لم يفهم مغزى كلامها

اما هي فلما خلت بنفسها عادت الى هواجسها وتصوَّرت ما هي فيه من الارتباك فلا

تدري اتطيع والدها ام تطيع قلبها . على انها لو تحققت ان عند ابي مسلم مثل ما عندها لهان عليها اغضاب والدها وان كان ذلك مما لا يقدم عليه امثالها . ولكنها لم ترَ من ذلك الحبيب الاّ الاغضاء فاخذت تناجي نفسها وتتذكر ما شاهدته منه في اثناء تلك الجلسة فلم ترَ في شيء من حركاته او اقواله ما يفتح لها نافذة من الامل . ولكن الحب كان يعترض عوامل اليأس فيها ويهون عليها ماظهر من بروده فاخذت تنسب ذلك الى اشتغال خاطره بتدبير شؤونه ثم تعود الى رشدها فترى انه لا عذر له وانه لو كان عنده بعض ماعندها لأحست به

قضت في تلك المناجاة مدة وقد طار الرقاد من عينيها واستوحشت من الوحدة فتذكرت ماشطتها وكانت تأنس بها كثيرًا وودت لو انها تاتيها في تلك الليلة لتشكو لها حالها وتستشيرها في امرها . ثم ماعتمت ان سمعت وقع خطوات بطيئة فعلمت انها خطوات الماشطة فنهضت وفتحت لها فدخلت واغلقت الباب وراءها فامرتها جلنار بالجلوس وهي تقول لها « ما الذي جاء بك ياريحانة على غير انتظار »

قالت « علمت انك في ارتباك فجئت لتسليتكِ »

فقالت « وكيف علمت ذلك ومن انبأك به ؟ »

قالت وهي تحاول معانقتها وضمها الى صدرها « اتظنين يامولاتي اني غافلة عن مجاري احوالك وما قد يطرأ عليكِ من الهواجس وخصوصًا بعد قدوم هؤلاء الاضياف »

قالت « وهل شاهدتهم .. وسمعت اقوالهم ؟ »

قالت « شاهدت كل شيء وسمعت كل كلمة خاسة من وراء الستار »

فما تمالكت جلنار ان قالت « هل رأيت ابا مسلم ؟ »

قالت « خفضي صوتك يامولاتي ان لهذه الجدران آذانًا .. نعم شاهدته وشاهدتك ايضًا .. » قالت ذلك بلحن خاص

فخجلت جلنار من تسرعها في ابداء عواطفها ثم تذكرت ثقتها بريحانة فقالت « وكيف رأيتهِ ياريحانة ؟ »

قالت « رأيته لائقًا .. ولكن تمهلي ولا تعجلي ان في العجلة ندامة .. »

قالت « اراكِ قد ادركت مكنونات قلبي ولم يخف عليكِ شيء »

قالت « لم يخف عليّ شيء ولكنني ارى المسألة تحتاج الى الحكمة والتؤدة »

فلم تعد تقدر جلنار على اخفاء عواطفها فقالت « وما العمل ياريحانة دبريني برايك ..

لقد نفد صبري . فاني لا البث ان ازف الى ابن الكرماني وانا لا اريده ولا احبُّه . . »

قالت « اتحبين ابا مسلم ؟ » وضحكت

فاطرقت جلنار ولسان حالها يقول « نعم احبُّهُ »

فقالت ريحانة « وهل هو يحبك ؟ »

فرفعت جلنار نظرها الى ريحانة وفي عينيها دمعتان تترددان بين الاماقي وارادت الكلام فشرقت بريقها وسكتت

فقالت ريحانة « انكِ لا تعلمين وانا لا اعلم . . فما علينا الآنَ التحري والاستفهام »

قالت « من يكشف لنا حقيقة ذلك . »

قالت « الا تعرفين الضحاك ؟ »

قالت « هل تظنينه يستطيع خدمتنا في هذا الامر . . »

قالت « اظنه اقدر الناس على ذلك اذا اراد . ولا يغرنكِ ما يبدو من مجونه فانه داهية حازم يعتمد عليه في الامور العظام . »

قالت « ومن يخاطبه بالامر . . . واخاف ان يفشي سرَّنا فيطلع والدي على امرنا فتكون البلية الثانية شرًّا من الأُولى »

قالت « كوني في راحة وطانينة وانا ادبر الامر معه . . انما نحتاج الى بعض النقود . . »

قالت « هل تعرفين للمال قيمة عندي . . ؟ فاطلبي من خازنتي ما تريدين وتصرفي كما تشائين وانبئيني بنتجة سعيك »

قالت « ينبغي لنا ان نسعى في الامر الليلة اذ لا نضمن بقاء هؤلاء الاضياف عندنا الى الغد او بعده . . »

فنهضت جلنار من فراشها الى صندوق صغير في بعض جوانب الغرفة استخرجت منه صرة من الحرير ودفعتها الى ريحانة وهي تقول « هذه خمسمائة دينار استخدميها بما تشائين ولا تبطئي واذا توفقت الى ما اريد لا انسى تعبك »

فتناولت ريحانة الصرة ونهضت وهي تقول « كوني في راحة » وخرجت وهي تسترق الخطى وتركت جلنار على مثل جمر الغضا

الفصل العاشر

نسب ابي مسلم

لم تكد ريحانة تخرج من الغرفة حتى رأت الضحاك قادماً كأنه كان على موعد منها . فلما رآته بغتت ولكنها تجلدت واشارت اليه ان يتبعها عن بعد وسارت الى غرفتها في طرف القصر مما يلي الحديقة . فدخل في اثرها فاغلقت الباب وراءه وهي تنظر اليه وتضحك وكان وهو داخل قد دق رأسه بعتبة الباب لطوله فوقعت العمامة الى الارض فاذا هو حليق الراس فاستغربت ذلك . وارادت بالاستفهام منه عن السبب لكنه اسرع الى العمامة فوضعها على راسه وتقدم اليها وهو يقول « يظهر انكِ تحبينني ياريحانة . بارك الله فيك .. » وضحك وعض على شفته السفلى وتشاغل باصلاح عمامته ثم ضحك ضحكة البله وجعل يطرق باطراف انامله على اسنانه . فضحكت ريحانة من قوله وحركته ثم عبست في وجهه عبوساً يخالطه الابتسام وقالت « اني احبك لخفة روحك وعلوّ همتك ... وخصوصاً اذا اطعتني في ما ساخاطبك به الآن .. هل عندك للسر مكان ؟ »

فقال وهو يضحك « عندي لكل سر مكان والاسرار عندي منازل وطبقات واذا كنتِ في ريب من ذلك اخبريني فاخرج حالاً »

فضحكت وقالت « الا تكفُّ عن مجونك يا رجل .. اعرني اذنك الآن واصغ لما اعرضه عليك بحياة الدهقانة وحرمتها عندك .. »

فتجلد الضحاك واظهر الجد وتأدب في موقفه وقال « قولي اني طوع امرك »

قالت « أتعرف ضيوفنا الليلة »

قال « ايهم تعنين هل تعنين ابا مسلم الخراساني الذي لايعرف اباه ام خالد بن برمك المجوسي صاحب النوبهار ام خازن ابي مسلم ابراهيم اليهودي »

فضحكت ريحانة من توسعه في تلك المعرفة ولكنها استغربت قوله ان أبا مسلم لا يعرف أباه فارادت الاستفهام عن ذلك فقالت « وماذا تعني بقولك ان ابا مسلم لايعرف أباه ؟ »

قال « اذا كنت لا تصدقينني اسأليه »

قالت « صدقتك ولكنني أسألك عن كيفية ذلك »

قال « لوسألته هوعن نسبه ماعرفه • أما انافاخبرك انوالده فارسي بعضهم يسميه مسلم وبعضهم يسميه عثمان وهويزعم ان نسبه يتصل بنزر جمهر الحكيم الفارسي المشهور — وهذه عادة كبار القوم عندنا فمن كان منهم دنيء الاصل رفعه جاهه الى طبقات الاشراف • فاذاكان عربيا أوصل نسبه الى أبي بكر أو عمر أو الحسين واذاكان فارسياً جعل نفسه من نسل بزر جمهر أو ازدشير أو كسرى أنوشروان • واما الذي نعلمه من أمر أبي مسلم فهو ان أباه المذكور كان من أهل قرية ما خوان التي تبعد عن مرو ثلاثة فراسخ • وكانت هذه القرية له مع عدة قرى وكان في بعض الاحيان يجلب الى الكوفة المواشي ثم أنهُ ضمن خراج رستاق فريدين على عادة الدهاقين في ايام هذه الدولة (بني أمية) فانهم يقاسمون الحكومة أموالها بنفوذهم • فلما حان الوفاة لحقهُ عجز عن تأدية ما عليه • فقبض عليه العامل وأرسل معه من يشخصه الى الديوان في الكوفة • وكان عنده جارية يحبها فاخذها معه وهي حامل واحتال في الطريق وفرّ من الحرس نحو أذربيجان وتوجه معه فاجتاز على رستاق فايق برجل اسمه عيسى بن معقل فتركها عنده وطلب اذربيجان ومات بها • ثم ولدت الجارية صاحبنا أبا مسلم هذا فربي في بيت عيسى المذكور وهو يحسب نفسه من أولاده ولما ترعرع تعلم مع أولاده وكان عيسى هذا واخوه ادريس من ضمَّان الخراج أيضاً كما تقدم فاصابهما مااصاب ذاك من تأخير الخراج فقبض عليهما عامل اصبهان وشكاهما الى أمير العراقين يومئذٍ خالد القسري فبعث من حملهما الى الكوفة وسجنهما فيها وكانا قد انفذا أبا مسلم قبل القبض عليهما في مهمة فلما رجع وعلم بسجنهما جاء الى الكوفة وجعل يتردد اليهما في السجن • واتفق في أثناء ذلك ان جماعة من النقباء دعاة بني العباس جاؤا الكوفة سراً يدعون الناس الى اهل هذا البيت فلقوا أبا مسلم هناك فاعجبهم عقلهُ ومعرفتهُ وكلامه وعرف هو أمرهم فانضم اليهم وخرج معهم الى مكة فاهدوه الى ابراهيم الامام هناك • فاعجب بهِ وتوسم فيه الخير وأقام عند الامام يخدمه • ثم ان الدعاة عادوا مرة ثانية وطلبوا رجلاً يقوم بامر خراسان فدفع اليهما أبا مسلم هذا وهو صغير السن كما ترين وأوصاه بما أوصاه [1] •• فهل هو يعرف أباه ؟ »

فاستغربت ريحانة هذه الحكاية ولكنها عادت الى المهمة التي هي فيها فقالت للرجل « أمنا وصدقنا والآن لا تخرج عما أحادثك فيه • انظر (ومدت يدها واستخرجت

(١) ابن خلكان ج ١

الصرة ودفعها اليه) هذه هدية من مولاتك جلنار (فتناولها وهو يضحك) وانا أريد ان اكلفك بمهمة سياسية »

فوضع الصرة في جيبه وهو يقول « السمع والطاعة »

قالت « انت تعلم ان مولاتنا الدهقانة مخطوبة لابن الكرماني أمير الجند المحاصر لمرو وستزف اليه قريباً بارادة والدها . ولكنني رأيت الليلة ان اجل الكرماني قصير لان هذا الخراساني على ما يظهر سيغلبه . وقد لحظت انا منه انه يميل الى مولاتنا وأظنه يريد ان يتزوجها ولكنه لم يصرح بذلك . فالمطلوب الآن ان تبحث عن صحة هذا بدهاء وحسن أسلوب بدون ان يشعر أحدٌ بك واخبرني .. ولا بد من معرفة ذلك الليلة »

قال « هذا أمر هين عليّ ... واذا فرضنا انهُ لم يحبها بعد فاني أجعلهُ يحبها .. ما رأيك ؟ »

قالت « اذا كان ذلك في أمكانك فان مكافأتك عظيمة جدًّا .. وهذا سرٌّ عميق »

فاطرق الضحاك برهة وقد بدا الجد في وجهه ثم التفت الى ريحانة وقال « أني ذاهب الساعة فادعي لي بالتوفيق »

قالت « امض وفقك الله »

فقال « امهليني ريثما اصلح من شأني امام مرآتك » ووقف امام مرآة من النحاس معلقة على الحائط وحل عمامته وجعل يلفها على أسلوب مضحك وعبث بشعر لحيته وشاربيه حتى تعربس وانتفش . وخلع جبته وقلبها ولبسها بقفاها ونزع نعليه وشكهما في منطقته ومشى حافياً وهو يضحك كالابلة وخرج

أما ابو مسلم فانه سار مع خالد والخدم يسيرون امامهما بالشموع بين الاشجار والرياحين حتى وصلوا الى بيت بجانب السور قد أضيء بالمصابيح . فدخلا وقد سبقهما الخدم فدلوهما على الاسرة المعدة لرقادهما ورجعوا . فلما دخلا اخذ ابو مسلم ينزع ثيابه وسلاحه ويتأهب للرقاد وهو لا يتكلم . وكان خالد في شاغل من امر جلنار وما شاهده من جمالها وما لحظه من نظرها الى أبي مسلم وما كان من جمود ابي مسلم بشأنها وكان يتوقع ان يسمع منه شيئاً عنها فاذا هو لم يفه بكلمة . فظل خالد ساكتاً واخذ في خلع ثيابه وسلاحه ولم يستغرب سكوت ابي مسلم لعلمه انه كثير السكوت لا يتكلم الا قليلاً ويندر ان يضحك

الفصل الحادي عشر

الخازن ابراهيم

اما ابراهيم الخازن فانه رجع بالأكياس الى غرفة من ذلك المنزل بعيدة عن غرفة ابي مسلم وخالد . فلما دخل الغرفة امر الغلمان ان يضعوا الأكياس وينصرفوا . وكان ابراهيم يهودي الاصل وقد اسلم ابوه لا رغبة في الاسلام ولكنهُ رأى في الاسلام سبيلاً الى الكسب . وشبَّ ابراهيم هذا وهو اطمع من ابيه وتزلف وتملق حتى تقرب من النقباء رجال الدعوة . وكان حاسباً ماهراً فجعله ابو مسلم خازناً له وكان يقبض الاموال ويقيدها رغبة في الكسب من ذلك . ولم يكن كسبه من التلاعب في عدّ النقود او سرقة شيء منها لانه لم يكن يستطيع ذلك الاَّ نادرًا ولكنه كان يتكسب باستبدالها . لان النقود كانت في ذلك الحين انواعاً كثيرة ومنها ناقص الوزن وكامله باختلاف ضاربيها . فالنقود التي ضربها الحجاج سنة ٧٥ هـ كانت ناقصة فلما تولى ابن هبيرة ضرب اجود منها ولما تولى خالد القسري شدد في تجويدها وضرب بعده يوسف بن عمر فافرط في التشديد والتجويد . فكانت النقود الهبيرية والخالدية واليوسفية اجود نقود بني امية وسميت نقود الحجاج المكروهة (١) فكان ابراهيم اذا قبض مالاً من الدهاقين او غيرهم من نصراء الشيعة قيدها في دفاتره بعددها ولكنه لا يعيّن صنفها فاذا كان فيها نقود هبيرية او خالدية او يوسفية أبدلها بالنقود المكروهة فيربح من ذلك شيئاً كثيرًا . وكان لا يخلو صندوقه الخصوصي من اكياس من النقود المكروهة لاجل الاستبدال عند الحاجة . فلما خلا بنفسه تلك الليلة اغلق باب غرفتهِ واطفأ المصباح واشتغل في ابدال تلك النقود خلسة وهو يحاذر ان يُسمع رنينها

وكان الضحاك يعرف ابراهيم هذا ويعرف اباهُ من قبلهِ . فلما كلفته ريحانة بتلك المهمة عوّل على استخدام ابراهيم في الامر بواسطة المال لعلمهِ باستهلاكه في سبيلهِ . واما ابراهيم فلم يكن يعرف الضحاك ولا يفهم من امره الاَّ انهُ رجل مهزار خليع او مجنون

فمشى الضحاك في الحديقة والقمر قد تكبد السماء وجعل يخطر الهوينا وهو ينظر الى

---

(١) الاحكام السلطانية

السماء كأنهُ يعدّ نجومها او كأنهُ يقرأ صحيفة مكتوبة فيها حتى دنا من غرفة ابراهيم وهو حافٍ · فوقف ببابها وتظاهر بالبله واذناه مصغيتان فتسمَّع حركة فتنصت فسمع خشخشة ضعيفة · وكان ابو مسلم وخالد قد ناما وانصرف الخدم ولم يبق في الحديقة احد ولم يعد يسمع غير جعجعة الجمال خارج المحلة عن بعد · وظل الضحاك واقفاً بباب ابراهيم حتى ظنه فرغ من عمليته فطرح كيس النقود الذي معه على بلاطة هناك فكان لوقعه طنين وخشخشة ظهرا قويين لهدوء الليل

وكان ابراهيم يشتغل في ابدال النقود ويحاذر ان تسمع حركتهُ او احتكاك النقود فاصبح لشدة محاذرته يخاف ان يكون لتنفسه صوت · وكان يتوهم كل شيء ساكتاً هادئاً فلما سمع وقع كيس الضحاك على البلاط اجفل وبغت وظل هنيهة جامداً يتنصت لعله يسمع صوتاً آخر فلم يسمع · فاقبل الى الباب ففتحه رويداً رويداً خوفاً من صريره واخرج راسه وتلفَّت فرأى الضحاك على بضع خطوات من غرفته واقفاً مقعنسساً ويداه على اوراكه وقد ولَّى وجههُ نحو السماء ينظر الى غيومٍ تتسابق الى القمر · فتفرس ابراهيم في المكان الذي سمع الخشخشة منه فرأى كيساً حريريًّا ملوناً فحدثته نفسه ان يخرج لالتقاطه ولكنه خاف ان ينتبه له الضحاك · ثم تذكر انه ابله لا يفقه شيئاً وانه لو كان ممن ينتبهون لم يسقط منه الكيس على تلك الصورة · فاختلس خطوتين حتى تناول الكيس وهم بالرجوع واذا بذلك الابله يقهقه بصوت عال · فارتعدت فرائص ابراهيم وانتفض انتفاض الطير حتى كاد الكيس يسقط من يده · ولكنه تجلَّد وتظاهر انه خرج من الغرفة لغرض له ونظر الى الضحاك فرآه يمشي نحوهُ وهو يخطر ويطيل خطاهُ كأنه يتخطى اقنية · فابتدره ابراهيم بالكلام يظهر انه خليُّ الذهن من كل شيء وقال « هل انت تذرع الارض ام تعد نجوم السماء »

قال وهو ينظر الى السماء « بل انا افتش عن نقودي فقد كان معي كيس واظنه وقع هنا » واشار الى القمر

فضحك ابراهيم وتأكد بله الرجل وعوَّل على اخفاء الكيس وقال « يحتمل ذلك » وتحوَّل الى غرفته ولم يبلغ الى الباب حتى ادركه الضحاك وقبض على رقبته قبضة شديدة ودخل به الغرفة دفشاً وكان ابراهيم لقصر قامته وجبنه لو اراد الضحاك ان يقبض عليه ويرمي به من فوق السور لفعل · على انه لو كان شجاعاً ما استطاع غير السكوت خوف الفضيحة لانه لو صاح لايقظ النائمين وربما استيقظ ابو مسلم او خالد او غيرهما ممن يخاف

الفضيحة على يده وجاء الى غرفته فانكشف امره لان الاكياس كانت لا تزال مفتحة والنقود مبعثرة . وزد على ذلك ان الذنب يصغّر النفس ويذلها ويجعل السيد عبداً . ولكن ابراهيم لم يكن ليفتح باب غرفته في تلك الساعة لو لم يسمع طنين الدراهم فلما رأى الكيس على الارض توهم انه يلتقطه ويرجع حالاً . فلما رأى نفسه بين يدي الضحاك وقد دخل معه الغرفة ارتبك في امره ولكنه فضّل السكوت ثم اظهر المازحة وقال له « هذا كيسك قد سقط لي من السماء فخذه »

الفصل الثاني عشر

الطريقة

فوقف الضحاك وتناول الكيس باطراف انامله ثم تركه فسقط على الارض فخشخش فاسرع ابراهيم فالتقطه وهو يقول « أليس هذا كيسك ؟ »

قال وهو يضحك « لا اعرفه الاّ في النور بالله ألا اضئت لي شمعة ؟ »

فقال « تعالَ ننظر اليه في ضوء القمر » قال ذلك وامسك بيده واراد اخراجه فاذا هو ثابت في مكانه كالشجرة المغروسة لا يتزحزح فقال له « اذا كنت تظن نقودك قليلة فانا ازيدك منها . . »

فنظر اليه وهو يحني راسه كالساجد وقال « ولكنني لا آخذ الاّ نقوداً يوسفية . . . »

فلما سمع ابراهيم قوله خفق قلبه لان ضميره بكته وتصوّر ان ذلك الابله مطلع على اسراره — والمجرم يخاف خياله ويحسب العناصر الطبيعية تراقب اعماله — ولكنه عاد الى عقله واستبعد اطلاع ذلك الابله على سرّه وقال « هي نقود يوسفية . . نعم »

قال « الم تبدلها بعد ؟ » وضحك

فتحقق ابراهيم ان الضحاك مطلع على شيء من امره وربما كان قادماً اليه بدسيسة ولكنه عمد الى المغالطة واراد اخراجه من الغرفة ليبعده عن مكان الشبهة فلم يستطع فقال له « تفضّل اقعد » وهو يتوهم انه سيخالفه فيخرج فاذا هو قد قعد على الارض وامسك بيد ابراهيم واجلسه فجلس وهو لا يدري ماذا يعمل وقد خاف ذلك الابله فاطاعه ليرى ما يبدو منه والغرفة لم تكن في ظلمة حالكة لان ضوء القمر كان قد نفذ اليها من الباب

وكانت الاكياس والنقود ظاهرة لاقلّ تأمل فالتفت الضحاك نحوها وقال « هل اساعدك في جمع هذه الاكياس وهل امحي عنها لفظ « يوسفية » واكتب لك مكانه « حجاجية » فان ذلك أولى من ظهور الخيانة »

فاقشعر بدن ابراهيم عند ذلك التصريح وقال له « قل لي بالله من انت وما غرضك .. فانك لست ابله كما تتظاهر .. من انت ..؟ »

فقال له « انا الضحاك الا تعرفني وهذه عمامتي وهذه جبتي وهذه نعالي ثم ماذا ؟ »

فقال « لا تخدعني بالمزاح صرّح ولك مني ما تشاء »

قال « انا الضحاك المبكي وارجو ان لا تكون باكياً وانت خازن هذه الحملة .. »

قال « قلت لك صرّح واخبرني عن حقيقة امرك وانا طوع ارادتك »

قال « لا تهمك حقيقة امري فانا ساترٌ ذنبك ولي عندك حاجة اتقضيها لي ؟ »

فسرّ ابراهيم بذلك السؤال واحسّ بانفراج كربه وقال « اطلب ماشئت فاني فاعل ماتريد »

قال « هل لك دالةٌ على ابي مسلم »

فأطرق ابراهيم وقد ظهر فيه الارتباك وقال « ان ابا مسلم ليس ممن تؤخذ الدالة عليه لانه شديدٌ غضوبٌ يندر ان يضحك ولا يتكلم الاّ قليلاً وجلساؤُه يخافون غضبه لانه يقتل لاقل شبهة . واظنك سمعت وصية الامام التي تلاها على مولاك الدهقان الليلة وهو يوصيه فيها ان يقتل كل من يشك فيه . فمن كان هذا شانه فهل من سبيل الى الدالة عليه . اما اذا كان لك غرض منه فاني ابذل مافي وسعي للتوصل اليه .. »

قال « لقد نطقت بالصواب ولو قلت لي غير ذلك لاتهمتك وشككتُ فيك وعند ذلك يحقُّ لي ان انفذ وصية الامام فيك .. » وضحك ثم قال « ومرادي ان اسالك سؤالاً آخر هل عندك للسر مكان .. »

قال « بئر عميقة .. لا تخف »

قال « لا اخاف منك لان روحك في قبضتي وليس اسهل عليّ من ان القي الشك في قلب ابي مسلم ... ويكفي ان اذكر له مسالة النقود اليوسفية .. » ثم نهض بغتة ويده في منطقته فاخرج منها النعلين ولبسهما ووقف فعجب ابراهيم لعمله وخاف ان يعود جنونه فتحدثه نفسه ان يشكيه الى الامير في تلك الساعة . فنهض معه واظهر الاهتمام به وقال « مابالك يا اخي . قل ماهو ذلك السرّ »

قال « نسيته في البيت فانا ذاهب لاستدعائه . . » وضحك

فضحك ابراهيم مجاراة له ولكنه ازداد خوفاً من ذلك التباله ولم يعلم كيف يسترضيه فقال له « بالله كف عن المزاح واخبرني وانت القابض على حياتي فلا تخف وانا انما اريد قضاء حاجة لك »

فمشى الضحاك فتبعه ابراهيم حتى خرجا من الغرفة فلما استقبلا ضوء القمر التفت الضحاك وقال « هل يحمل ابو مسلم اهله معه اذا سافر ؟ »

قال « تعني هل يصطحب امراته في سفره . . . كلاّ انه يتركها في منزلها وحولها الارصاد والعيون لانه شديد الغيرة عليها حتى لايدع لها سبيلاً للخروج من البيت ولا يدع احداً يدخل قصره غيره . وفي قصره كوى يطرح لنسائه منها ما يحتجن اليه . وبلغني انه يوم زفت اليه امراته امر بالبرذون الذي ركبته فذبح واحرق السرج لئلا يركبه احد بعدها »

فقطع الضحاك كلامه قائلاً « تقول « لنسائه » كانهُ تزوج عدة نساء . . ؟ »

قال « كلاّ انه لم يتزوج اثنتين معاً قط وهو يكره الزواج و يعدّه جنوناً ومن اقواله الماثورة « الزواج جنون ويكفي الانسان ان يجن في السنة مرة » [1] فمن كان هذا اعتقاده كيف يهتم بالنساء . ولكنني اردت بنسائه النساء اللواتي في قصره من الجواري والحواضن ونحوهنّ مما تقتضيه مظاهر الامارة »

فلما سمع الضحاك قوله اطرق وكانه ثاب اليه رشده . وادرك ابراهيم ان ذلك السوّال لم يكن عبثاً فاستانس بهدوه فقال له « ان امر هذا الرجل غريب جداً لم اسمع بمثله ولعل هذه الخلال من اسباب نجاحه لانه ينقطع عن كل شيء الى القيام بدعوته فتراه لا يضحك ولا يمزح ولا يلهو بشيء قط . . »

قال الضحاك « وصلنا الى السر . . بلغني انه لما شاهد مولاتي الدهقانة الليلة شغف بها وكانه اراد ان يتزوجها . وبما ان مولاتي المذكورة مخطوبة لامير آخر فاذا كان ابو مسلم يريدها لنفسه فاني قادر على تحويل الخطبة اليه . هذا سرٌّ بيني وبينك . فهمت . ؟ »

قال ابراهيم « لا تخف يا اخي فقد اوسعتني تحذيراً . اما انه راى الدهقانة واحبها فهذا امرٌ بعيد وهو لا يرفع بصره الى النساء قط لانه غيور ويعرف قدر الغيرة . اما اذا كان الامر بخلاف ذلك فارجو ان تصرح لي . . »

فالقى الضحاك يدهُ على كتف ابراهيم وهو يخفض بصرهُ ليراهُ لقصرهِ وقال « اظنك

(١) ابن خلكان ج ١

تعني ان الدهقانة احبته وكانها احبت الاقتران به ٠٠٠ فهب ان هذا هو الواقع فما قولك ؟ »

قال وهو يرفع بصره نحوه « ان ذلك يحتاج الى استرضاء ابي مسلم ٠٠ واسترضاؤه ليس بالامر السهل وخصوصاً في مثل هذا الامر لانه يكره الزواج كما اخبرتك »

قال « اذاً انت لا ترجو قبوله ذلك »

قال « لا ارجوه ولا انا قانط منه ولكن الامر يحتاج الى روية وسعي قال ذلك وامسك بمنطقة الضحاك وقال « ٠٠ اسمع ٠٠ انك تجعل نفسك مهزاراً وانت ادهى مني — قد خطر ببالي سبيل اظنه يؤدي الى المطلوب ٠٠٠ لا يستطيع احد ان يفاتح هذا القائد بامر الزواج وخصوصاً الآن ٠ ولكنني ارى ان نخاطبه بشانها من حيث نستلفت انتباهه ٠ فاذا قلنا له مثلاً ان الدهقانة شديدة الغيرة على اهل الشيعة متفانية في نصرتهم وانها تحب ان تخدمه في ما يؤيد دعوته وينصره على اعدائه — فمثل هذه المواعيد تستلفت افكاره فلعله اذا قابل الدهقانة مرة او غير مرة بهذا الصدد ثم راى منها مايدل على نصرته حقيقة لا اظنه الاّ يرضاها ٠٠ هذا ما اراه وقد اكون مخطئاً » قال ذلك وهزّ منكبيه

قال « لقد رأيت الصواب ٠٠ وهل يمكنك ان تكون واسطة في ايصالها لمقابلته اذا اقتضت الحالة فاني اقول هذا من عند نفسي واخاف ان لا تقبل هي به »

قال « اني اكون لك كما تشاء جهد امكاني »

وكانت سحنة الضحاك قد اكتسبت في اثناء هذه المحادثة صورة الجد وكاد المجون يذهب عنها ٠ فلماسمع قول ابراهيم عاد الى مجونه فالتقط ذيل جبته وادارها حول ابراهيم فاختفى فيها لقصره واجفل وانسحب من تحتها فوقعت عمامته على الارض فالتقطها وهو يضحك فقال له الضحاك « والله انك رجل لطيف ومتواضع لانك خازن الامير وتحمل قباحه خادم مهزار مثلي »

قال « ما اظنك مهزاراً يا اخي ولابدّ لك من شأن ٠٠٠ والآن ألا تأخذ الكيس بما فيه ؟ ٠ »

قال « ليس هو لي وانما سقط من القمر وانت التقطته ٠ فاحتفظ به لنفسك واذا وفيت لنا بوعودك فلك عندنا من هذه الاكياس ما يغنيك عن استبدال الدرهم بالدرهم سرّاً حتى تخاف خادماً مهزاراً ٠٠ هل فهمت ٠٠ السلام عليكم » قال ذلك وتناول نعليه بيديه وهرول مسرعاً الى ريحانة وقد تغير الطقس وتلبدت الغيوم بغتة وهبّت الرياح وفيها رائحة الشتاء وهم في اوائل الربيع والطقس فيه يتقلب على غير انتظار

الفصل الثالث عشر

على مثل الجمر

أما جلنار فانها مكثت في الغرفة على شوك الانتظار وقد تعاظم قلقها واضطرابها لما تتوقعه من نتائج المهمة التي ذهبت بها ريحانة • واصبحت اذا سمعت حركة او خربشة خفق قلبها وحدثتها نفسها ان تخرج من الغرفة لعلها تلهو بشيء او تسمع من ريحانة او الضحاك ما يقوي قلبها او يطمئن خاطرها • واستغرقت في الهواجس مدة ثم انتبهت لجعجعة جمل في الجهة الاخرى من القصر فاستأنست بصوته لانه من معسكر حبيبها ثم تزايدت الجعجعة فهمّت بالخروج بهذه الحجة وهي انما تريد الخروج ضجراً من الانتظار • فوقفت واصغت فلم تعد تسمع صوتاً فعادت الى الفراش وعاد السكوت فرجعت الى الاصغاء والقلق • فسمعت بالباب وقع خطوات خفيفة كانها خطوات حافٍ فاستغربت ذلك ثم ما لبثت ان سمعت نقراً خفيفاً على قفل الباب فنهضت و فتحته وقلبها يدق دقاً شديداً فاذا هي بريحانة فانبسطت نفسها لرؤيتها فدخلت ريحانة مسرعة وهي تتعثر بسراويلها المنتفخة والبغتة بادية في وجهها • فابتدرتها جلنار بالسؤال عما جرى فضمت انامل يدها اليمنى اشارةً للاستمهال وقالت بصوت منخفض وهي تلهث وتتلفت «تمهلي يامولاتي ...» ثم أصاخت بسمعها نحو الدار

فسكتت جلنار واصغت فلم تسمع شيئاً فنظرت الى ريحانة نظر الاستفهام فأجابتها وهي تبالغ في خفض صوتها كانها تتكلم همساً «لقيت الضحاك وارسلته في المهمة المعلومة ومكثتُ في غرفتي قليلاً ثم خرجت اليك وانا احاذر ان يراني احدٌ • وقبل دخولي في هذا الرواق سمعت مولاي الدهقان يتنحنح على مقربة مني فذعرت وخفت ان يكون قد رآني فوقفت هنيهة والضوء ضعيف فلم اسمع شيئاً فخلعت نعالي ومشيت حافية على اطراف انامل حتى جئت اليك وانا اخاف ان يكون سيدي الدهقان في اثري ولكن يظهر اني واهمة»

فقالت «اظنك واهمة لان والدي لا يبقى ساهراً الى هذا الوقت • وهب انه رآك فما في رؤيتك ما يوجب قلقاً ... اخبريني الآن عن الضحاك ومهمته»

فقصت عليها اهمَّ ما دار بينها وبينه الي ان قالت « وانا في انتظار رجوعه لارى ما يكون ولا ريب عندي اننا وضعنا ثقتنا في محلها لان هذا العربي مع ما يظهر من مجونه وبلهه ذو اريحية وحماسة ولا اظن مجونه الا تصنعاً »

قالت « وما الذي يدعوه الى التظاهر بالبله وهو عربي والعرب اهل الدولة فلو لم يكن البله سجية فيه مع ما تذكرين من اريحيته لكان من اكبر رجال الدولة وكان في غنى عن هذه الخدمة .. »

فاشارت ريحانة برأسها وعينها ان « صدقتْ مولاتي » ثم قالت « ومهما يكن من شأنه فاني واثقة بحميته وصدق خدمته وسترين ... ولكن لابدَّ لي من الذهاب الى غرفتي لانتظره فيها كما تواعدنا »

فقالت « أرى ان اخرج معك فالتقي به عندك وذلك خير من ان نلتقي في غرفتي واسلم عاقبة »

ففهمت ريحانة قصدها وأومأت ايماء الاستحسان والطاعة ولبثت تنتظر امرها . فاذا هي قد نهضت من الفراش وكان على اللحاف مطرف من خز احمر مبطن بالفرو فالتحفت به فغطاها كلها ولفت رأسها بشال من الكشمير موشى بالحرير فلم يبق ظاهراً منها الا مقدم وجهها . فمشت الماشطة امامها وسارتا نحو غرفتها ولم تخرجا من ذلك الرواق حتى سمعتا هبوب الزوابع وتنسمتا رائحة الشتاء فانبسطت نفس جلنار لسببٍ لا تعلمه وأرادت ان تخاطب ريحانة بشيء لكنها صبرت نفسها حتى وصلتا الغرفة فدخلتا واغلقت ريحانة الباب واسرعت لاعداد مقعد لسيدتها فقعدت جلنار ووجهها تجاه المسرجة ونور السراج يرقصهُ ما ينفذ الي الغرفة من بقايا تلك الزوابع . ولما قعدت نزعت الشال عن رأسها فبان وجهها وقد زاده الدفء رونقاً وجمالاً فتأملتها ريحانة وهي في تلك الحالة وابتسمت ابتسام مندهل بذلك الجمال ولم تتمالك عن تقبيل رأسها . ثم جثت بين يديها واخذت في اصلاح بعض ما افسده الخمار من شعرها وهي تقول « سبحان الخالق . كيف لا يسحر ذلك الخراساني بهذا الجمال الذي لا مثيل له في خراسان ولا ما وراء النهر .. »

فتنهدت جلنار وسكتت هنيهة ثم تذكرت شيئاً خطر لها لما سمعت هبوب الرياح وعوَّلت على ان تقوله لماشطتها فقالت « شعرت يا ريحانة ونحن قادمتان الآن براحة وطمأنينة لسبب لا اعلمه .. »

فابتسمت الماشطة وقالت « جعل الله كل ايامك راحة وسعادة » ثم نهضت وهي

تقول « وانا أيضاً شعرت بنحو ذلك واظن السبب واحداً وهو هبوب الرياح وتوقع المطر فاني كثيراً ما أكون منقبضة النفس مغمومة فاذا امطرت السماء انبسطت نفسي وذهب عني الغم ... » ثم وقفت هنيهة تجاه المرآة لغير غرض مقصود ثم تحولت بغتة الى سيدتها وهي تقول « ولكن لانبساطنا بهذه الرياح سبباً آخر هل اقوله ؟ »

قالت « قولي »

قالت وهي تضحك « لان الزوابع يعقبها المطر الشديد واذا اشتدّت الامطار كثرت الاوحال وسدت الطرق فيتأخر اضيافنا عن السفر يوماً او بضعة ايام ... وبقية الحديث عندك »

فتبسمت جلنار بعد ان طال انقباضها وقلقها وهمت بالكلام فسمعت ضحكة غلبت قهقهتها على صفير الرياح . فعلمت انه الضحاك ولكنها لم تكن تتوقع ان يجعل لقدومه قرقعة وضوضاء وهم في حال تدعو الى التكتم . فنظرت الى ريحانة فرأتها في مثل حيرتها وهي تقول « صدقت يا مولاتي انه ابله حقيقة بلا تكلف .. »

ولبثتا بعد تلك الضحكة تتوقعان وصوله فاذا هو يقول بصوت عال « صدقتَ يا مولاي الدهقان ان الطقس قد تغير ولا يلبث المطر ان يتساقط لان مطر الربيع قد يكون جارفاً .. وانا لا أستطيع النوم في مثل هذه الليلة » وضحك . فلما سمعتا ذلك علمتا ان الدهقان لايزال ساهراً فخافت ريحانة ان يعلم بهما فتقدمت الى السراج وغطته بحيث لا يبدو نوره من شقوق الباب للخارج فلما فعلت ذلك سمعتا ضحكة أخرى أبعد من تلك وقائل يقول « ألم أقل لمولاي ان ما ظنه خارجاً نوراً من الغرف انما هو من فضلات البرق اذ ليس في هذا القصر ساهر سوى مولاي وأنا .. واذا ظل مولاي الدهقان ساهراً فلا عجب اذا كان اهل القصر كافة سهارى . أما انا فاني ذاهب الى الفراش بعد ان اكون في خدمة مولاي حتى يدخل فراشه لان سائر الخدم نيام واذا أحب ان أولسه بقية هذا الليل فعلت »

نخفق قلب جلنار عند سماعها ذلك لانها ادركت منه ان والدها اساء الظن بريحانة وبحث عن سبب النور الخارج من غرفتها واستحسنت أسلوب الضحاك في انقاذهما من ذلك الخطر . على انهما مكثتا صامتتين لا تتحركان وتكادان تمسكان عن التنفس التماساً للاصغاء . فلما مضت مدة ولم تسمعا فيها صوتاً ايقنتا ان الدهقان ذهب الى فراشه ولا يلبث الضحاك أن يعود اليهما . فأخذت جلنار تتأهب لسماع صورة الحكم على عواطفها

فاما الى النعيم واما الى الجحيم • ولم تكن تتوقع الشعور بمجيء الضحاك او سماع خطواته قبل وصوله للباب لتعاظم هبوب الرياح وحفيف الشجر وقصف الرعد

الفصل الرابع عشر

ابلاغ الرسالة

فلبثتا صامتتين كأن على رأسيهما الطير حتى سمعتا قرع الباب قرعاً خفيفاً فاجفلتا وأسرعت ريحانة الى فتحه واذا بالضحاك دخل مسرعاً وهو في ذلك القباء المقلوب وعمامته مشوهة ونعلاه في منطقته وشعر لحيته منتفش وهيأته في غاية الغرابة • فلما وجد جلنار هناك اجفل وتأدب واشتغل باصلاح شعره وتسوية عمامته وهو يضحك بلا قهقهة وأخرج النعلين من منطقته فوضعهما بالباب ووقف متأدباً كانه مارد لطوله • فابتسمت جلنار من منظره وحركاته فقال لها « اعذريني يا مولاتي على هذا المنظر فاني لم أكن أحسبك هنا والحق على هذه الملعونة •• » وأشار باحدى يديه الى ريحانة وباليد الأُخرى الى عمامته •• » فلم تتمالك جلنار عن الضحك لاسلوبه في التخلص من غضب ريحانة وأما ريحانة فغالطته وقالت « ان الدهقانة مسرورة من همتك ونشاطك •• »

فقطع كلامها بصوت منخفض وقال « وطبعاً انت زعلانة •• لان العريس ليس لك »

فقالت « دعنا من المجون واخبرنا ما الذي فعلته واظنك لاتلتزم الجد الا اذا حلفتك بمولاتنا الدهقانة فبحياتها ألا تكلمت الجد •• »

فلما سمع قولها وقف بين يدي جلنار متأدباً فاشارت اليه ان يقعد فقعد فقالت له ريحانة « قص علينا ما جرى »

فاخذ في سرد الواقعة من ساعة خروجه من غرفتها الى ان لقي ابراهيم الخازن وكيف احتال عليه واخرجه من حجرته وما دار بينهما حتى انتهى الى ما تمَّ الاتفاق عليه بينهما ولكنه لم يذكر ما قاله الخازن عن كره ابي مسلم للنساء لعلمه ان هذا يسيء جلنار ويوقعها في اليأس وهو يريد ان ترجو الحصول عليه • على انهُ اخبرها ان ابا مسلم لا يستطيع أحد من خاصته ان يخاطبهُ بشأن الزواج تهيباً وانها اذا لقيته وخاطبته لاريب انه يحبها ويتمنى الحصول عليها وخصوصاً اذا أظهرت له غيرتهـا على الدعوة التي هو

قائم بتأييدها ..»

وكانت جلنار تتطاول بعنقها لسماع ذلك الحديث فلما بلغت الى ختامه انقبضت نفسها لانها كانت ترجو ان تعرف شيئاً عن قلب ابي مسلم من جهتها فسكتت وظهر الانقباض في وجهها فادركت ريحانة سبب انقباضها فارادت انعاش املها فقالت « بورك فيك يا ضحاك ما ألطف أسلوبك فقد فعلت ما لا سبيل الى سواه .. »

فقال « لا احب التمليق يا ريحانة فاني لم اعمل شيئاً ولكنني مهدتُ السبيل للعمل فاذا رأت مولاتي ان اعرض عليها رأيي في ما ينبغي ان تعمله فعلتُ »

قالت جلنار « قل يا ضحاك »

قال « أرى أولاً ان ندبر وسيلة لتجتمعي بابي مسلم ويدور بينكما الحديث ... »

فاحمر وجه جلنار خجلاً اذ تصورت نفسها في خلوة مع ابي مسلم وقد شبّت ولم تخاطب من الرجال غير والدها وخدم قصرها . ثم تذكرت انها لا تستطيع الوصول الى تلك الجلسة الاّ بالتزلف والتذلل والنزول عن عرش انفتها وعزة نفسها . ثم هي فوق ذلك ستخالف ارادة والدها فضلاً عن تعرضها لغضبه اذا علم بذلك الاجتماع السرّي . فلما تصورت ذلك غلبت عليها عزة النفس فتراجعت وهي جالسة وهزّت رأسها ولسان حالها يقول « لا أفعل ذلك »

ففهم الضحاك فكرها فرفع حاجبيهِ وقلب شفته السفلى كانه يقول لها « الخاطر لك » ثم قال « لا انكر يا مولاتي ان ذهابك للاجتماع به لا يخلو من التنازل و.. »

فخافت ريحانة ان يذكر لها أصل ابي مسلم ومنشأه فاعترضت حديثه قائلةً « لا أرى في ذلك ضعةً ولا تنازلاً لانها اذا ذهبت اليه او خاطبته فانها تخاطب اعظم رجل في خراسان وهو قائد رجال الشيعة مع انه شاب وتحت امره شيوخ من قواد الخراسانيين وامرائهم ويكفي ان الامام اختاره لهذا المنصب العظيم واذا نظرت الى وجهه وهيبته علمتَ ان المستقبل له لا محالة .. »

فلما سمعت جلنار ذلك الاطناب تحركت فيها عوامل الحب فهان عليها كل عسير في سبيله ولكنها ظلت ساكتة . وفهم الضحاك ان الغرض من ذلك الاعتراض ان لا يذكر اصل ابي مسلم في حضرتها فقال « لا انكر منزلة هذا البطل الشاب وانما أردت بالتنازل ذهاب مولاتي الدهقانة اليه وهي فتاة .. الاّ اذا كانت تحب .... (وبلع ريقه) فتلك مسألة أخرى هي أعلم بها . » قال ذلك وضحك وهو مطرق برأسه

وعيناه مرتفعتان نحوها

أما جلنار فان الاهتمام ظهر في عينيها وسكتت وتشاغلت بارسال ضفائر من شعرها الى ظهرها كانت قد استرسلت الى الامام عند انحنائها . ثم اصلحت القرط في اذنها وهي مطرقة . وادركت ريحانة ولحظ الضحاك انها تتردد في أمر ذلك الاجتماع وظلوا صامتين هنيهة كأنهم صاغون لاستماع قصف الرعد وزخ المطر ولو اصاخوا بسمعهم لسمعوا جعجعة الجمال عن بعد ولكن تساقط المطر وهبوب الرياح اضاعا جعجعتها

وأخيراً فتحت ريحانة الحديث قائلة «تبصري يا مولاتي في الامر على مهل فان القوم باقون هنا بضعة أيام بسبب الامطار»

فظلت جلنار صامتة مطرقة فادرك الضحاك انها لا تزال تعظم أمر لقائها أبا مسلم فقال لها «اذا اذنت مولاتي لمملوكها ان يصرح بما في ضميره فعل ..»

قالت جلنار «قل»

قال «يظهر لي انك تكبرين أمر ذلك الاجتماع ولا لوم عليك ونحن نعلم انفتك وعزة نفسك وعندي رأي هل اعرضه عليك ؟»

فاشارت برأسها ان «قل»

فقال «ان ابا مسلم كما لا يخفى عليك قد حصر قواه وعواطفه في أمر الدعوة التي قام لها وما من سبيل يوصلنا الى قلبه غير هذه الدعوة. فالذي أراه ان مولاتي اذا شق عليها لقاؤه وجهاً لوجه ان تبدأ المخابرة بينها وبينه بشيء يدل على اشتراكها معه في هذا الامر ويكون ذلك فاتحة العلائق ثم نرى ما يكون»

فانبسط وجه جلنار وكان انبساطه جواباً كافياً للضحاك فتناولت ريحانة طرف الحديث عنها وقالت «لقد رأيت صواباً يا ضحاك بورك فيك فافصح عن سائر رأيك ..»

قال «هذا رأيي وهو واضح لا يحتمل شرحاً كثيراً ... فالمراد ان تبعث مولاتي الى ابي مسلم بما يدل على نصرتها دعوته ورغبتها في رضاه او اشتراكها في امره ونرى ما يكون منه ..»

قالت ريحانة «اظنك تعني ان ترسل اليه المال»

قال «المال وغير المال كما تشاء»

فقطعت جلنار حديثهما قائلة «فهمت .. ولكن ...» ونظرت في وجه ريحانة كأنها تستطلع رأيها في امر آخر لا تريد التصريح به بين يدي الضحاك فادركت ريحانة

شيئاً مما في خاطرها فنهضت وهي تقول « اظنك يامولاتي تعبت من السهر »

ففهم الضحاك مرادها فنهض وحنى رأسه ويداه على صدره كانه يستأذن مولاته بالذهاب وقال « اني رهين ما تأمرينني باجرائه ولو كان طريقي الى مرضاتك على مراهف السيوف » قال ذلك وخرج

الفصل الخامس عشر

الهدية

فسرّت جلنار بذلك ونهضت ومشت نحو غرفتها وهي تسترق الخطى مخافة ان يسمع وقع قدميها • اما ريحانة فانها اطفأت السراج وسارت في اثرها حتى وصلتا الى غرفة جلنار فدخلتا وتوسدت جلنار على فراشها وتغطت باللحاف والتفت بالمطرف دفعاً لما احست به من البرد في اثناء مرورها في الرواق وجلست ريحانة بين يديها وقد لفّت رأسها وحولت عنقها بالشال فلما استتبّ بهما المقام قالت ريحانة « قد فهمت اعتراضك يا مولاتي •• »

قالت « فما رايك ••• الا ترين اني في مشكل صعب »

قالت « اذا كنتُ مصيبة في ظني فالمشكل على صعوبته لا نعدم وسيلة لحله •• »

فقطعت جلنار كلامها قائلة « وكيف نستطيع حله واراني كحجر بين مطرقتين او ثلاث ••• ان والدي من جهة قد عقد خطبتي على ابن الكرماني وسأزف اليه قريباً وارى نفسي من جهة اخرى مقيدة القلب ••••• (وتنحنحت وبلعت ريقها حياءً) وانا مع ذلك لا ادري اذا كانت المحبة متبادلة • فكيف اتخلص من أمر والدي وكيف اذا لم تكن المحبة متبادلة •• » قالت ذلك وشرقت بريقها واحمرّت وجنتاها او زادتا احمراراً لان وجهها كان قد تورد من الدفء واعمال الفكرة • ولحظت ريحانة في عينيها دمعتين تترددان بين الاماقي فتأثرت لحالها وشعرت بخطر موقفها فبادرت الى التخفيف عنها فقالت « اما ابن الكرماني فليس امره مهماً لانك لو زففت اليه من الغد فبقاؤك عنده لا يكون الاّ بتغلبه على ابي مسلم فاذا غلبه فابو مسلم لا يليق بك واما اذا كانت الغلبة لابي مسلم فانت له لا محالة لانه يقبض كل ماهو للكرماني • واذا كنت تكرهين هذا العريس وترومين بعده

فلك من حكمتك وحسن اسلوبك ما يضمن بقاءك عنده مدة طويلة مصونة كانك في بيت ابيك ..»

فادركت جلنار ما عرضت به ريحانة وقد اخجلها لكن سرورها بهذا الحل هوّن عليها ذلك التعريض فابتسمت والانقباض ينازع الابتسام في وجهها فعادت ريحانة الى حديثها فقالت« بقي علينا النظر في الوسيلة الى ابي مسلم ... والحق يقال ان هذا العربي المهزار قد رأى رأياً حسناً لا غرو اذا وقع لديك موقع الاستحسان ... لان زيارتك لابي مسلم دفعة واحدة بدون مخابرة او مبادلة سابقة لا تخلو من الابتذال فالذي اراه ان ترسلي اليه مع الضحاك مبلغاً من المال على سبيل الاعانة والضحاك يفهمه باسلوب لطيف انك بعثتِ بهذه الهدية حبًّا به و بدعوته ونرى ما يكون من جوابه ... واذا رأيتِ ان ترسلي اليه هدية خصوصية تؤكد محبتك فعلتِ ...»

فاشرق وجه جلنار بهذا الرأي وكانت متكئة فجلست وقالت « لقد اعجبني ياريحانة رأيك الاخير لان ارسال الهدية الخصوصية عبارة عن استطلاع رأي ابي مسلم فيّ .. فما ان تكون تلك الهدية ؟ »

قالت « اجمل هدية تهدى للقواد السيف فاذا بعثتِ اليه بسيف مرصع و بلغه الرسول انه هدية منكِ اليه ازداد اعتقاداً بسلامة نيتكِ في نصرته واذا كان في نفسه شيء ظهر»

فقالت « ومن اين آتي بهذا السيف ..»

قالت « ذلك هين على من يبذل المال فاعطِ الضحاك مالاً وفوضيه ان يبتاع سيفاً فما هو الا ان يذهب و يعود اليكِ بالسيف في ساعة ...»

ففرحت جلنار بهذا التدبير وقالت « اني أكل تدبير هذا الامر اليك واما النقود فهي عند الخازنة خذي منها ما تشائين واحذري ان يدرك والدي شيئاً من هذا التدبير فنقع في مشكل يصعب حله ..»

قالت « كوني مطمئنة يا مولاتي فلا يكون الاّ الخير ان شاء الله والآن خففي عنكِ ونامي وعليّ تدبير كل شيء»

ثم قبلت رأسها و يدها وخرجت حافية حتى عادت الى غرفتها . ولا نظن جلنار نامت في تلك الليلة الاّ قليلاً لعظم اضطرابها وقلقها

فلندع هؤلاء في تدبيرهم ولنرجع الى ابي مسلم فقد تركناه في دار الضيافة ومعه خالد ابن برمك وقد ناما وابو مسلم قلما غمض جفنه وهو يفكر في مشروعه وفي ما عساه ان يحول

دونه من العقبات . وكان ابو مسلم شديد الحذر متيقظ الخاطر سيء الظن في المستقبل لا يأمن كوارث الحدثان . فكان وهو في فراشه سابحاً في بحار التأملات يفرض الممكنات ويهيء الاسباب حذراً من الفشل . وبعد ان نام هزيعاً من الليل افاق على هبوب الرياح وقصف الرعد وتساقط الامطار فشق عليه ذلك مخافة ان تحول الاوحال دون مسيره . فلما استيقظ نهض من الفراش واطلّ من نافذة غرفته الى ما حوله وكأن المطر قد انقطع والصبح قد ابلج فرأى المياه ملأت الطرق وسالت في اخاديد الارض . فتحوّل الى غرفة خالد ولم يكد يدخلها حتى رآه خارجاً منها وقد تزمل بعباءته وتخمّر بعمامته فصاح فيه ابو مسلم « خالد ! »

فقال « لبيك ايها الامير . »

قال « ما رأيك بصاحب الخبر الذي بعثناه بالامس هل تظنه تمكن من التجسس .. »

قال « لا اظنه الا فعل واذا ابطأ علينا فلا يؤخره الا الامطار والاوحال لانه من اهل النجدة والهمة »

قال « اني في انتظاره على مثل الجمر لنعلم حال اعدائنا في مرو فنتدبر في حربهم .. »

قال خالد « ذلك هو الامر الذي شغل خاطري الليلة واحرمني النوم على اني واثق بالرجل واخلاصه لانه يخاف غضبك وهو يكره نصر بن سيار كرهاً شديداً »

قال ابو مسلم « مافي معسكرنا من يحب نصراً ولكنني اخاف من ان يخدعهم الكرماني لانه من دهاة الرجال وقد بلغني انه اخرج نصراً من مرو وتملكها .. »

وهما في ذلك سمعا حركة في داخل الدار واذا ببعض الغلمان قد اقبلوا وهم يحملون كانوناً فيه نار قد تجمرت وضعوه في بعض جوانب الغرفة للاستدفاء وذرّوا فيه شيئاً من البخور فانتشرت رائحته في الدار كلها فاستانس ابو مسلم بالدفء والبخور وجلس على وسادة فوق البساط والتف بطرف خز اسود ولاث عمامته على راسه بغير نظام واشار الى خالد فقعد الى جانبه ثم تذكر انه لم يصلّ بعد فنهض ونهض معه خالد وصليا الصبح وقعدا وكلاهما يفكران في امر الرجل الذي ارسلاه لتجسس احوال مرو قبل وصولهم الى تلك المحلة وكانا قد اوعزا اليه ان يوافيهما الى هناك

الفصل السادس عشر

ابو مسلم والضحاك

و بعد هنيهة جاء الخدم بالطعام فأكلا وغسلا ايديهما ولم يتكلما الاَّ قليلاً لان ابا مسلم كان قليل الكلام جدًّا . ونحو الضحى دخل بعض غلمان ابي مسلم واومأ انه ينقل رسالة فقال ابو مسلم « ما وراءك »

قال « ان في الباب رجلاً يطلب مقابلة الامير »

قال « العله من رجالنا »

قال « كلاَّ بل هو من رجال الدهقان »

فقال « يدخل . . »

فدخل الضحاك وهو يحمل خريطة قد اثقلت كاهله فوضعها بجانب الكانون واغلق الباب ودخل وهو يتأدب بمشيته حتى وقف بين يدي ابي مسلم

فصاح به ابو مسلم « من انت وما غرضك ؟ »

قال « اني من موالي الدهقان ولي مع الامير شان اذا سمح بخلوة بثثته اياه »

وكان الضحاك يتكلم وهو يحاول اخفاء امارات المجون من وجهه ولم يتم كلامه حتى نهض خالد وخرج . فأشار ابومسلم الى الضحاك ان يقعد فاكب على يد ابي مسلم يقبلها وهو يقول « قد اتيت مولاي الامير بمهمة سرّية ارجو ان يكتمها لوجه الله وانا رسول وما على الرسول الاَّ البلاغ »

قال « قل لاخوف عليك »

فمد الضحاك يده واستخرج من تحت عباءته سيفًا مرصعًا دفعه الى ابي مسلم . ولما رأى ابو مسلم السيف اجفل لاول وهلة مخافة ان يكون في الامر دسيسة او اغتيال فاقطب وجهه ونظر في وجه الضحاك وامارات الغضب والحذر بادية في عينيه فضحك الضحاك ضحكة يمازجها شيء من البله وقال « ايخاف صاحب هذا الجند من مهزار متلي جاءه بهدية . ومن يجرأ ان يقدم على الامير بغير الخضوع والطاعة . . اني ارى الموت بين شفتيك والقضاء المبرم في عينيك فبالله الا تبسمت قبل ان اقع قتيلاً » قال ذلك وهو يتظاهر بالذعر او هو ذعر فعلاً لان ابا مسلم كان شديد الهيبة لا يستطيع احد التفرس في وجهه

فتكلف ابو مسلم الابتسام وهو يتناول السيف بيده وما في ابتسامه ما يدعو الى

الاستئناس او السكينة . ولما تناول ابو مسلم السيف تأمله وقلبه بين يديه ثم نظر الى الضحاك وكان لا يزال واقفاً وقال « اقعد »

فقعد متأدباً وهو يتلفت يميناً وشمالاً فقال له ابو مسلم « ما شانك يا رجل .. اني اراك عربياً »

فتراجع الضحاك واظهر الخوف وقال « وهل عليّ باس من وصية الامام ؟ . »

فلم يتمالك ابو مسلم عن الضحك من حركاته وهيأته ويتدر ان يضحك وقال « ان وصية الامام لا تجري على كل عربي لان الامام نفسه عربيّ فكن مطمئناً وقل ما شانك »

فنظر الضحاك نحو الباب نظر الخائف الحاذر وقال « اتقدم الى مولاي اولاً ان يكتم ما سيدور بيني و بينه فقد جئته بأمر ارجو ان ينفعه . واذا شاع اضرني »

قال « قل لا باس عليك اننا كاتمون امرك »

قال « اعلم يا سيدي ان مولاتي الدهقانة جلنار .. هل تعرفها ؟ »

فوجم ابو مسلم لحظة ثم قال « اليست ابنة الدهقان صاحب هذه المحلة ؟ »

قال « هي بعينها . اظنك تعرفها فاعلم يا مولاي انها شهدت مجلسك بالامس وقد سحرت بما شاهدته من حميتك واعجبها الامر الذي انت قائم به وعلمت بما دفعه ابوها واحبت ان تخص نفسها بمال تدفعه هي من جيبها الخاص فبعثت بجانب منه في هذه الخريطة (واومأ نحو الخريطة) على شرط ان لا يعلم بذلك احد وخصوصاً ابوها . ولا تلتمس في مقابل ذلك الاَّ رضى الامير اعزه الله .. ثم انها بعثت اليك بهذا السيف المرصع على سبيل التذكار وهو قديم فيه سرٌّ عظيم ولم يحمله احد الاَّ ظفر بعدوّه »

فأعاد ابو مسلم نظره في السيف وتناوله واستله من قرابه وتأمل فرنده فاذا هو يلمع كالزجاج وفيه تموُّج بديع فقال « يظهر انه مسموم »

قال « اظنه كذلك لان مولاتي قالت لي انه لم يصب به احد الاَّ مات لساعته ولو كان جرحه خفيفاً »

فقال « انها هدية ثمينة ثم ماذا ؟ »

قال « وعندي كلمة اخرى احب كتمانها حتى عن الدهقانة نفسها .. فاذا عاهدني الامير بذلك بحتُ له بها والاَّ لا يهمني لو قتلني بهذا السيف الساعة واراحني من حياتي »

فاستغرب ابو مسلم قوله وطريقة تعبيره واستأنس بخفة روحه فقال له « قل ما تشاء ولا تخف »

قال « وهل تعدني انك لا تغضب من جسارتي ؟ »
قال « قلت لك لا تخف »
قال « ان مولاتي الدهقانة اجمل اهل عصرها وما من امير ولا دهقان الا ويتمنى رضاها ولكنها تمنع نفسها من كل طالب ولم يمل قلبها الى احد حتى الكرماني امير العرب المحاصرين مرو فانه طلبها لابنه ورضي ابوها واما هي فقلبها نافر منـه . وقد تطيع اباها وتذهب الى الكرماني ولكنها اذا سارت اليه فقلبها لا يسير معها ... لانه عالق برجل اعظم منه واعظم من كل رجل في خراسان ... هل يأذن لي مولاي ان اذكر اسم ذلك الرجل ؟ »
فادرك ابو مسلم انهُ يعرض بحبها اياه ولم يكن فاته ذلك من قبل فقال « اذكر اسمه الا اذا كان داخل هذه الغرفة .. »
فقال « كانك تأمرني ان لا اذكره . لانه داخل هذه الغرفة ولكنه ليس انا » وضحك فلم يتمالك ابو مسلم عن الضحك ثم قال « لقد اعجبني اسلوبك يا رجل فانك خفيف الروح »
فقال « وما ينفعني اعجابك يا سيدي وانا اخاف ان اذكر اسمك . . ؟ »
قال « قلت لك لا تخف فما انا ناقم على جسارتك لانك على ما يظهر لا تعرف عني كثيراً »
قال « انا اعلم عن مولاي الامير اكثر مما يظن ولذلك فاني لا اقصد برسالتي هذه ان اكلفه مالا يريده ولكنني تعهدت لصاحبة هذه الهدية برضى ابي مسلم عنها ويجوز ان يكون ذلك الرضا طاهرياً فقط — ثم لا اخفي عن حامل علم الامام ان نظرة منه تشفُّ عن رضى او ارتياح تجعل هذه الفتاة المفتونة آلة بيدهِ قد يستخدمها في أمور تنفعه ولو كانت في فسطاط الكرماني نفسه او في قصر نصر بن سيار صاحب مرواذ تكون اقدر على خدمته وهي هناك وان كان ما ترجوه من ابي مسلم اضغاث احلام لا يصح منها شيءٌ . وعهدي بالامير لا يحتاج الى تصريح ... »
فاطرق ابو مسلم هنيهة وهو يعمل فكرته ويتدبر ما سمعه من الضحاك فرأى قوله لا يخلو من النصيحة ولكنه امسك عن الخوض معه في ذلك . ثم رفع السيف من بين يديه ووضعه وراء الوسادة ونظر نحو الباب فادرك الضحاك انه يريد انصرافه فوقف وهو يقول « يأمر مولاي خازنه ان يستلم هذه الاكياس » ومشى نحو الخريطة

بقرب الكانون

فصفق ابو مسلم فدخل حاجبهُ فقال « اليّ بالخازن »

فخرج الحاجب وعاد ومعه ابراهيم الخازن فلما دخل ابراهيم ورأى الضحاك في خلوة مع ابي مسلم اوجس خيفة ولكنه ما عتم ان سمعه يقول له « خذ من هذا الرجل ما يعطيك وقيده في دفاترك »

فتحول نحو الضحاك ففتح الضحاك الخريطة واستخرج منها عشرة اكياس مختومة وقال له «هذه عشرة اكياس في كل منها الف دينار يوسفية ..» واطال لفظ يوسفية عنوةً فتناولها الخازن وقد فهم اشارته ولكنهُ ادرك انهُ يقول ذلك على سبيل المجون فتناول الاكياس وهو يقول « ممن هي »

فقال ابو مسلم « قل هي مني وكفى »

فحملها ابراهيم وخرج وهو لا يصدق انه نجا من شراك الضحاك . وبعد خروج ابراهيم عاد الضحاك نحو ابي مسلم وانحنى يقبل يديه ثم خرج

الفصل السابع عشر

صاحب الخبر

ولبث ابو مسلم هنيهة بعد خروج الضحاك وهو مطرق يفكر في ما سمعه منه وقد توسم في هذا الرجل غير ما يظهر من مجونه وبلهه وقال في نفسه « لا يخلو هذا العربي المهزار من دهاء مستور » . وفكر في امر جلنار وتعلقها به وكان قد لحظ ميلها اليه من قبل ولم يعبأ به فرأى بعد ما سمعه من نصيحة الضحاك ان يغتنم شغفها به لاتمام مقاصده في مهمته . قضى ساعة في نحو ذلك واذا بالغلام دخل وقد علق بعنقه جراباً فيه البخور والند وذرّ شيئاً منه في الكانون . فلما رآه ابو مسلم تذكر خالداً فصاح فيه « اين الامير خالد ؟ »

فقال « هو يا سيدي في الحديقة يكلم رجلاً قادماً من سفر »

فقال « دعهما اليّ معاً » وقد ترجح عنده ان القادم صاحب الخبر الذي هم في انتظاره على مثل الجمر

وما عتم ان دخل خالد وهو يبتسم ويقول « لقد جاء صاحب الخبر يا امير هل يدخل ؟ »

قال «يدخل حالاً » ودعا خالداً للجلوس وكان ابو مسلم يعتقد في خالد التعقل والدهاء ويستخصه بالمشورة ولا يخفي عنه شيئاً • فجلس خالد بجانب ابي مسلم ثم دخل الرسول وهو لا يزال بلباس السفر عليه العباءة وعلى راسه الكوفية فوق القلنسوة • وقد تجمدت العباءة مما اخترقها من المطر في الليل الماضي — فلما دخل القى التحية ووقف فقال ابو مسلم « العلك هنا من زمن طويل••؟ »

قال « منذ ساعة او ساعتين »

قال « ما الذي اخرك عن الدخول علينا ؟ »

قال « كنت في انتظار الاذن »

قال « ليس على صاحب الخبر من حرج ولا ينبغي ان يؤخر اذنه » والتفت الى خالد كانه يستطلع رأيه في ذلك فاجاب خالد باشارة برأسه ان ذلك هو الصواب • ثم أمر حاجبه ان يغلق الباب ويخرج واشار الى الرسول ان يقعد فقعد متأدباً فقال له ابو مسلم « ما خبرك وكيف فارقت مرو •؟ »

قال « فارقتها والحصار شديد عليها والاعداء محدقون بها »

قال « اظنك تعني ابن الكرماني »

قال « اعنيه واعني شيبان الخارجي فانهما يقاتلان نصر بن سيار صاحب مرو معاً وكل منهما يضمر السوء لصاحبه »

فقال خالد « وكيف ذلك وعهدي بالكرماني انه دخل مرو واخرج نصراً منها•• »

قال الجاسوس « نعم يا مولاي قد كان ذلك ولكنه لم يدم ولكي يتضح لكم الواقع استأذن الامير ببعض التفصيل »

قال ابو مسلم « قل ولا توجز »

قال « لا يخفى على مولاي ان امر بني أمية اخذ في الضعف منذ عدة سنين وانما بقي الحكم في ايديهم تهيباً من اسم الخلافة واحتراماً للدين • فلما افضت الخلافة الى مروان بن محمد واختلف اهله في بيعته وانتقضوا عليه تجرأ الناس على مخالفته • وبعد ان كانت الاحزاب نائمة او ساكنة هبت عليه دفعة واحدة • فقام الخوارج وغيرهم ممن يطمعون بالسلطة لانفسهم ومنهم الكرماني — وللكرماني ايها الامير حديث طويل

مع نصر بن سيار امير مرو هل اقصّه عليكم ؟ »

قال «لا بدّ من ذلك لان التفصيل يهدينا الى مخارج الامور ومداخلها »

قال « لما مات أسد بن عبد الله والي خراسان منذ عشر سنين استشار هشام بن عبد الملك (الخليفة يومئذٍ) بعض خاصته في من يوليه مكانه • فعرض عليه بعضهم ان يولي الكرماني وهو من رجال الدولة واهل النجدة والحزم • فاعرض عنه هشام وقال « ما اسمه » قال « جديع بن علي » فقال هشام «لا حاجة لي به » لانهُ تطير من اسمه فعرض عليه غيره وغيرهُ حتى استقر الامر لنصر بن سيار والي خراسان الآن • فكأن الكرماني حقد ذلك في نفسه فلما مات الوليد بن يزيد بن عبد الملك وفرغ كرسي الخلافة واختلف عليها بنو مروان وحصلت الفتنة ونهض كل ذي سلطان يسعى الى نفسه اغتنم الكرماني هذه الفرصة واظهر الخلاف لنصر بن سيار • ولا يخفى على مولاي ان الرجل اذا قام يطلب سلطة اعتمد على حزبٍ من الاحزاب والكرماني وان كان اسمه يدلّ على انه فارسي من كرمان الاّ انه لقب بذلك لانه ولد في كرمان ولكنه عربي من بني ازد وهم يمنية فاستنصرهم فنصروه على ابن سيار لان رجاله كلها مضرية من عرب الحجاز والخلاف بين العرب اليمنية والمضرية قديمٌ ولايزال شديداً وسيكون من اكبر اسباب سقوط العرب على الاجمال • وكان اهل خراسان انفسهم منقسمين فيما بينهم لان بعضهم يمنية والبعض الآخر مضرية (او نزارية) فلما مات الخليفة كما قدمت لكم نهض من هذين الحزبين من يطلب الخلافة لبعض بني مروان غير مروان بن محمد • وفي جملتهم عرب خراسان فقد اختلفوا فيما بينهم لنفس هذا السبب • فاهتم نصر بن سيار في التوفيق بينهم فاما أعياه ذلك منع عنهم العطاء • فلما كان في بعض الايام وقد وقف في المسجد يخطب نهض الناس وطلبوا منه اعطياتهم فصاح فيهم « اياكم والمعصية وعليكم بالطاعة والجماعة » فوثب اهل السوق الى اسواقهم وثارت الافكار فغضب نصر فخطب فيهم خطاباً لا يزالون يتناقلونه الى اليوم قال في جملته « ما لكم عندي عطاء كأني بكم وقد نبع من تحت ارجلكم شرٌ لا يطاق وكأني بكم مطرحين في الاسواق كالجزر المنحورة انه لم تطل ولاية رجل الا ملوها وانتم يا أهل خراسان مسلحة في نحور العدو فاياكم ان يختلف فيكم سيفان انكم ترشون أمراً تريدون به الفتنة ولا أبقى الله عليكم لقد نشرتكم وطويتكم فما عندي منكم الا عشرة واني واياكم كما قيل

استمسكوا اصحابنا بحذركم فقد عرفنا خيركم وشركم

فاتقوا الله فوالله لئن اختلف فيكم سيفان ليتمنين أحدكم انه ينخلع من ماله وولده يا أهل خراسان انكم قد غمضتم الجماعة وركنتم الى الفرقة . ثم تمثل بقول النابغة الذبياني

فان يغلب شقاؤكمو عليكم فاني في صلاحكمو سعيت

« فعلم الكرماني بذلك الخلاف وكان نصر قد عزله عن منصب كان فيه من قبل فشاور الكرماني اصحابه في القيام فوافقوه على ان يكاتبوا من في مرو من اليمنية و يستنجدوهم . وقد اخبرني رجل من خاصة ابن سيار ان المضرية اشاروا على نصر من ذلك الحين ان يقتل الكرماني وقالوا له « ان هذا الرجل يفسد عليك امرك فارسل اليه فاقتله او احبسه » فلم يصغ لرأيهم وقال « لا ولكن لي اولاد ذكور واناث فازوج بنيّ من بناته وبناتي من بنيه » قالوا « لا » فقال « فابعث اليه بمائة الف درهم وهو بخيلٌ ولا يعطي اصحابه منها فيتفرقون عنه » قالوا « لا . هذه قوةٌ له » وطال الجدال بينهم حتى قالوا له اخيراً « ان الكرماني لو لم يقدر على السلطان والملك الاّ بالنصرانية واليهودية لتنصَّر وتهوَّد » فلما رأى نصر الحاحهم عزم على حبسه فارسل صاحب حرسه ليأتيه به فارادت الازد ان تخلصه من يده فمنعهم الكرماني من ذلك وسار مع صاحب الحرس الى نصر وهو يضحك فلما دخل عليه قال نصر « يا كرماني الم يأتني كتاب يوسف بن عمر بقتلك فراجعته وقلت شيخ خراسان وفارسها فحقنت دمك» قال « بلى » قال « الم اغرم عنك ما كان لزمك من الغرم وقسمته في اعطيات الناس » قال « بلى » قال « الم ارئش ابنك عليًّا على كره من قومك » قال « بلى » قال « فبدلت ذلك اجماعاً على الفتنة » فقال الكرماني « لم يقل الامير شيئاً الا وقد كان اكثر منه وانا لذلك شاكر وقد كان مني ايام اسد ما قد علمت فليتأنَّ الامير فلست احب الفتنة » ثم امر نصر بضربه وحبسه في القهندز (قلعة مرو) سنة ١٢٦ هـ وتكلمت الازد بشانه فقال نصر « اني حلفت ان احبسه ولا يناله سوء فان خشيتم عليه فاختاروا رجلاً يكون معه » فاختاروا رجلاً اسمه يزيد النحوي اقام معه . ولكن ذلك الحبس لم يطل وقته فان رجلاً من اهل نسف قاوَل اهل الكرماني على اخراجه بحيلة لطيفة — وذلك انه اتي مجرى الماء في القهندز فوسعه وادخل الكرماني في السرب فخرج بكل جهد وركب فرسه والقيود في رجله . فاصبح الكرماني بعد ذلك من الدّ اعداء نصر وندم هذا على استبقائه حيًّا وتوسط الناس بينهما وطلبوا الى نصر ان يؤمنه ولا يحبسه فامنّه ولكنه لم يكن يأمنه . فكان يدخل الكرماني الجامع للصلاة ومعه ١,٥٠٠ رجل واكثر فيصلي خارج المقصورة ثم يدخل على نصر في المقصورة فيسلم عليه ولا يجلس . ثم ترك اتيان نصر واظهر الخلاف فبعث اليه نصر

من يستقدمه و يعتذر اليه عن حبسه فابى واظهر الجفاء فاصبح وجوده بلية على نصر»

الفصل الثامن عشر

الحرث بن سريج والكرماني

وكان صاحب الخبر يتكلم وابو مسلم صامت يحدق بعينيه ويتفرس في الرجل كأنه يستنزل الكلام من صدره وهو يتأثر من مطاولة نصر للكرماني وتصور نفسه في موضع نصر فملَّ الانتظار فلما بلغ الرجل الى قوله «وان وجود الكرماني اصبح بلية على نصر» صاح ابو مسلم «ذلك جزاؤه على ضعفه وتردده — قبحه الله لماذا لم يقتله ويكفي نفسه مؤنة الحذر منه — اطال الله بقاء الامام وايَّد دعوته ان في وصيته ما يغنينا عن هذه المطاولة ٠٠ من شككت فيه فاقتله ٠٠ والسلام ٠٠» قال ذلك وهو يعبث بشعرات من لحيته وخالد قد تهيب لما ظهر من تحمسه ثم قال ابو مسلم للجاسوس «ثم ماذا ؟»

قال «وما زال الكرماني حتى حارب نصرًا واخرجه من مرو قهرًا في العام الماضي او الذي قبله ولكنه انقذه من الحرث بن سريج ٠٠»

فقطع خالد كلامه قائلاً «انا اعرف الحرث هذا فقد كان في بلاد الترك وابلى بلاء حسناً وكان بينه وبين نصر اختلاف فخالفه واشتد الجدال ورضي نصران يحكم بعض الوجهاء ولم يتم ذلك» ثم التفت خالد نحـو ابي مسلم وقال «والحرث المذكور يزعم انه صاحب الرايات السود»

فنظر ابو مسلم اليه نظر الاستغراب ثم تكلم الرسول قائلاً «ولكن نصرًا لم يصدقه فارسل اليه يقول: ان كنت تزعم انكم تهدمون سور دمشق وتزيلون ملك بني امية فخذ مني خمسمائة راس ومائتي بعير واحمل من الاموال ماشئت وآلة الحرب وسر فلعمري لئن كنت صاحب ماذكرت اني لفي يدك وان كنت لست ذلك فقد اهلكت عشيرتك» فأجابه الحرث «قد علمت ان هذا حق ولكني لا يبايعني عليه من صحبني» فقال له نصر «فقد ظهر انهم ليسو على رأيك فاذكر الله في عشرين الفاً من ربيعة واليمن يهلكون فيما بينكم»

فقطع ابو مسلم كلام صاحب الخبر وقال وهو يهز رأسه «انهم يخافون اصحاب الرايات السود وسيرونهم و يرون بلاءهم فيهم فهؤلاء لا يترددون في حكم ولا يصبرون على ضيم ٠٠

بل يقتلون كل من يشكون فيه » وسكت

فعاد الرجل الى حديثه فقال « ولم يكن ذلك ليثني الحرث عن عزمه فرأى نصرٌ ان يضرب به الكرماني فقال له « ان كنت تزعم كما تقول فابدأ بالكرماني فان قتلته فأنا في طاعتك » فلم يفعل . وبالاختصار فان الحرث تطاول على نصر حتى صاروا يقرأون سيرته في اسواق مرو وفي المساجد يدعون الناس الى بيعته . حتى قرأوها مرة على باب نصر نفسه فهاج الناس والتحم الفريقان وكانت معركة هائلة فلم يرَ نصر الا ان يستنجد الكرماني فبعث اليه فلم يستخلصه . وكانت معركة مركبة كل منهم يحارب الآخرين وانقضت بفرار نصر من مرو وتغلب الكرماني عليها . فلما رآه الحرث قد فاز بعث اليه يطلب ان يكون الامر شورى بينهما فلم يقبل الكرماني فاقتتلا فقُتل الحرث وتفرقت قواته وصارت قبائل اليمن كلها مع الكرماني وقد انتصروا على المضرية اصحاب نصر فاستبدّوا فيهم وانتقموا منهم وهدموا منازلهم وكان الحرث نفسه مضريًّا فلما قتل قال فيه نصر

يا مدخل الذل على قومه	بعدًا وسحقًا لك من هالك
شؤمك اردى مضرًا كلها	وخر من قومك بالحارك
ما كانت الازد واشياعها	تطمع في عمر ولا مالك
ولا بنو سعد اذا الجموا	كل طمر لونه حالك

فقال ابو مسلم « فالكرماني الآن صاحب مرو ... واين نصر .. ؟ »

قال « لم تطل اقامة الكرماني في مرو لان المضرية اشتد ساعدهم بقتل الحرث وانضم اليهم جماعة كبيرة من رجال الحرث فعاد نصر الى مرو وخرج الكرماني منها وعسكر خارجها »

قال « فالكرماني الآن محاصر مرو »

قال « وليس وحده »

قال « ومن معه ؟ اظنك تعني شيبان الحروري »

قال « نعم يامولاي .. وليس شيبان بالشيء القليل لانه يرى رأي الخوارج فهو مخالف لنصر لانه من عمال مروان والخوارج لا يعترفون بخلافة مروان . وقد اتفق مع الكرماني على قتال نصر لان الكرماني يمني ونصر مضري كما تعلمون . فاتفق الاثنان على نصر »

فقطع خالد كلام الرجل وخاطب ابا مسلم بالفارسية بما معناه « ولا يخفى عليك ايها الامير ان هذين لا يكرهان دعوتنا لاننا ندعو الى خلع مروان ايضًا ... »

فاجابه ابو مسلم « ساذيقهم طعم الحزم والعزم وساريهم كيف تؤكل الكتف ... »

ثم التفت الى الرسول وقال « فالآن مرو محصورة بجند الكرماني وشيبان ٠٠ »

قال « نعم يامولاي ٠٠٠ وهما على وفاق »

قال « وهل تعرف عدد رجالهما »

قال « لا اعرف ذلك تماماً ولكنهم يزيدون على بضعة آلاف »

فتحرك ابو مسلم في مجلسه كأنه يتحفز للنهوض ففهم الرسول انه يريد خروجه فنهض وخرج

الفصل التاسع عشر

الاستعداد

فظل ابو مسلم وخالد في خلوة فقال ابو مسلم « علينا محاربة هؤلاء جميعاً ٠ الكرماني وشيبان ونصر ٠٠ »

فسكت خالد ولم يجب فلحظ ابو مسلم غرضه فقال « كأني بك تقول وكيف نحارب هؤلاء وليس معنا من الرجال احد ٠٠٠ تمهل وسترى كيف يأتيك الناس مئات والوفاً ٠٠ كيف الطقس يا ترى ؟ » قال ذلك ونهض ليرى الجو فمشى معه خالد الى الباب فاطلا على الحديقة فرأيا الشمس مشرقة وقد صفا الجو واقبل الدفء واخذت المياه بالجفاف فقال ابو مسلم « نقدر على السفر الليلة ان شئنا »

فقال خالد « اذا رأى الامير ان نبيت الليلة هنا ونرحل في الصباح كان ذلك اقرب الى الصواب »

قال لا بأس من ذلك وأرى ان نبعث الى كبار النقباء نخبرهم بعزمنا ونشاورهم في امرنا والخطة التي يجب ان نعمل بها قبل الاقبال على مرو ٠ لاننا في حاجة الى الرجال والاموال كما ذكرت وان كنت على يقين من نجدة كل دهاقين خراسان ومن يقول بقولهم وماهم في خصام بينهم مثل خصام العرب اليمنية والمضرية بل هم متفقون على النقمة من العرب كافة لما يسومونهم من الخسف والذل ٠٠ »

فقال خالد «رأيك هو الصواب ألا ترى ان نكاتب الدهاقين ونستنجدهم ونبث الدعاة بل نهوضنا من هنا حتى اذا نهضنا الى مرو لا يطول انتظارنا النجدة ثم تتوالى علينا النجدات باذن الله ٠٠ »

قال ابو مسلم « سنكاتب الدهاقين ونبثّ الدعاة متى خرجنا من هذا المضيف وسننزل في اقرب القرى الينا نقيم فيها حيناً لهذا الغرض ثم نرحل الى سفيذنج ننزل فيها على صاحبنا سليمان بن كثير ونكون تجاه مرو »

فلما سمع خالد اسم ابن كثير تذكر ما في قلب ابي مسلم من هذا الرجل مع ما يظهره من احترامه له . لان ابن كثير كان يدعو لاهل البيت قبل ظهور ابي مسلم وقد ابلى في ذلك بلاءً حسناً ونال مقاماً رفيعاً فلما بعث ابراهيم الامام ابا مسلم الى خراسان وعهد برئاسة الدعاة اليه لم يقبله سليمان بن كثير لصغر سنه وقد كبر عليه ان يكون تحت امره . وكان في جملة الدعاة رجل اسمه ابو داود فحرض الدعاة على قبوله رئيساً عليهم وحجّهم بما لا محل له هنا فقبلوه وكان قد بلغ ابا مسلم ما قاله ابن كثير فيه فحقدها عليه وعرف فضل ابي داود — فلما سمع خالد بن برمك ابا مسلم يذكر ابن كثير تذكر هذه الحادثة ولكنه تجاهل واسرع الى الجواب لئلاّ ينتبه ابو مسلم لما جال في خاطره لانه كان دقيق الفراسة جداً فقال خالد « حسناً رأيت ايها الامير فلنتأهب للسير وفي الغد نسافر الى اقرب القرى الينا وهي « فنين » على ما اظن »

قال « نعم هي بعينها فابعث الى النقباء ان يكونوا على اهبة الرحيل في الغد ولا بدّ لنا قبل الرحيل من وداع دهقاننا لنوصيه بمخابرة اصدقائه من دهاقين مرو ان يمدوا لنا يد المساعدة بالمال او الرجال والله الموفق .. »

فأشار خالد اشارة الاستحسان وخرج

واما جلنار فقد تركناها بعد خروج ريحانة من عندها وهي مضطربة البال فقضت تلك الليلة في الهواجس وكلما تصورت ذهاب الضحاك لمقابلة ابي مسلم وتقديم الهدية اليه يخفق قلبها فلم تنم الاّ قليلاً . فاصبحت منحـرفة الصحة لعظم ما قاسته من القلق والاضطراب في الامس مع قلة النوم فظلت على فراشها تتشاغل بالافكار المتضاربة وتخاف ان يبكر والدها اليها ويخاطبها بشأن خطبة ابن الكرماني وهي تحب الاطلاع على ما يكنُّه قلب ابي مسلم اولاً . فلما تراكمت عليها الافكار شعرت بالاحتياج الى ريحانة واستبطأتها فصبرت نفسها ومكثت في الفراش تارة تجعل اللحاف فوق رأسها للاستدفاء او للاستغراق في التفكير وتارة يضيق صدرها فتزيحه الى اسفل كتفها وتتنهد وهي تتوقع مجيء احد ثلاثة اما ان يأتي والدها بخبر الكرماني او تأتيها ريحانة وحدها تبشها بارسال الهدية او تأتيها بالضحاك بعد الفراغ من المهمة

الفصل العشرون

الوساطة

قضت في ذلك عدة ساعات واذا بريحانة قرعت الباب ودخلت فلما رأتها جلنار جلست في الفراش وتفرست في وجهها تستطلع ما يتجلى فيه من الانباء فلما رأتها تبتسم انشرح صدرها ولكنها لم تتمالك عن الاستفهام منها عما فعلته فاجابت « قد ارسلنا الهدية وهي جميلة و ٠٠٠ »

قالت « هل عاد الضحاك ؟ »

قالت « كلاَّ يا مولاتي لم يعد بعد ٠٠ الا تريدين الطعام ؟ »

قالت « لا اشعر بحاجة اليه ٠٠ دعينا من الأكل واخبريني عما تتوقعينه من امرنا »

قالت « خيرًا ان شاء الله ولكن ٠٠ » وسكتت

فاشتغل خاطر جلنار وقالت « ولكن ماذا ؟ »

قالت « جئتكِ بأمرٍ من والدك »

فتصاعد الدم الى وجهها بغتة وتسارع خفقان قلبها وقالت « واي امر هو ؟ »

قالت « لا بأس عليكِ يا سيدتي لا تخافي فاني لا اذخر وسعاً في كل ما يرضيكِ ويريحك ٠ اما مولاي الدهقان فقد استقدمني في هذا الصباح وسرَّ اليَّ امرًا اوصاني ان لا ابوح به اليكِ ولكنني سأخالفه في ذلك كوني في راحة وساقص عليكِ الخبر كما كان — بعث اليَّ باكرًا فلما وقفت امامه مدَّ يده الى خاتم كان بين يديه ودفعه اليَّ وهو هذا (وارتها خاتمًا من الذهب فيه حجر من الفيروز جميل) وقال هذه هدية لك فتناولتها وقبلتُ يده ثم ذكر لي مقدار حبه لك ورغبته في راحتك وسعيه في سعادتك وانه استغرب تمنعك في مسألة ابن الكرماني الى ان قال انه نظرًا لما يعلمه من دالتي عليك عهد اليَّ ان اقنعك بقبوله لان الكرماني امير ابن امير وهو صاحب الامر والنهي و و ٠٠٠ الخ »

فقطعت جلنار كلامها قائلة « وماذا قلتِ له ؟ »

قالت « طاوعته في بادئ الأمر وابديت استحساني رايه — ولا يمكني غير ذلك — حتى اذا آنس فيَّ الموافقة قلت له « ولكني لا أرى ان تعجل عليها في الذهاب اليه فما لا يقضى اليوم الاَّ بالعنف والضغط قد يقضى غدًا بالرضى والراحة فأرى ان لا تخاطب

مولاتي الدهقانة في هذا الشان الاّ بعد بضعة ايام ريثما اكلمها واقنعها » قلت له ذلك ياسيدتي لنرى ما يبدو من ضيفنا » وضحكت تخفيفاً لما في قلب جلنار فابتسمت هذه والانقباض يغشى ذلك الابتسام ولكنها استحسنت حيلة ريحانة . ثم قالت هذه « وقد جاريت سيدي الدهقان في قوله حتى املك منه سبباً لخدمتك بما في الامكان والاّ فانه فاعل ما يريد ولا يحتاج الى اكثر من ان يامر . فلو قال لك اذهبي الآن الى الكرماني لا اظنك الاّ ذاهبة »

فقالت جلنار « اذهب ولكن . . »

قالت « تذهبين مكرهة ولا يساعدك ادبك على مخالفة والدك فضلاً عن غضبه الذي ربما حمله على اجبارك بالقوة »

فصمتت جلنار وظلت مطرقة وارادت ان تعود الى السؤال عن الضحاك ومنعها الحياء من تكرار السؤال في هذا الموضوع ولم يفت ذلك ريحانة فوقفت وهي تقول « هلمّ بنا الى المائدة ومتى تناولتِ الطعام ننظر ما يكون . . »

فنهضت واخذت ريحانة في تبديل ثيابها وتطييبها وضفر شعرها وجلنار لا تنتبه حتى أتتها بالمرآة وهي تقول « انظري الى هذا المحيَّا وقولي سبحان الخلاّق »

فحولت جلنار وجهها عن المرآة كأنها لا تريد ان ترى صورتها وقالت « لا تخدعيني بهذا الاطراء يا ريحانة . . . لو كان في وجهي جمال لما كنت في هذا الشقاء . . » وغصّت بريقها

فابتدرتها ريحانة قائلة « لا تيأسي يا مولاتي . . طوّلي بالك وهلمّ بنا الى الطعام » قالت ذلك وخرجتا معاً وجلنار تنظر نحو الرواق المؤدي الى الحديقة لعلها تجد الضحاك عائداً فسمعت ريحانة تقول لها « اذا كلمك مولاي الدهقان بشان الكرماني او ابنه فلا تبدي تمنعاً . . ايه ؟ »

فاشارت جلنار بهز الراس ان « نعم » وهي لا تزال تنظر نحو الرواق ومع كثرة من في تلك الدار من الخدم والجواري بين ذاهب وغادي لم تنتبه لاحد منهم لاتجاه جوارحها جميعاً الى جهة واحدة . فوصلت غرفة الطعام ولم ترَ احداً فقعدت الى المائدة وعليها الوان الاطعمة الباردة والحارة والفاكهة فتناولت يسيراً منها وهي لا تتكلم وكلما سمعت صوتاً يشبه وقع اقدام الضحاك التفتت نحو الباب وريحانة تلاحظ حركاتها وتتألم لقلقها وتحاول مشاغلتها بالحديث عبثاً ثم تناولت تفاحة وقدمتها اليها وهي تقول « ما اشبه لون هذه التفاحة

بلون خديك » ودفعتها اليها فاخذت جلنار التفاحة وقضمت قطعة منها بغير انتباه فسمعت نقرًا على الباب فاصاخت بسمعها واللقمة في فمها وقد امسكت عن المضغ ووقفت لتفتح الباب فسبقتها ريحانة اليه وفتحته فسمعت جلنار ضحك الضحاك ولم ترَ وجهه فاصطبغ وجهها بالاحمرار وكادت تشرق بريقها ولكنها تجلدت واخذت في مضغ التفاحة تتشاغل بذلك عما كاد يغلب عليها من القلق ونظرت الى الضحاك وقد دخل وهو يتأدب في مشيته فابتدرته ريحانة قائلة « ما وراءك ؟ »

فضحك وتباله وتكتف ووقف فانتهرته ريحانة قائلة « لا تتباله .. اخبرنا بما فعلته عاجلاً »

قال « دعيني اضحك فاني مسرورٌ »

فاشرق وجه جلنار فاستبشرت ونظرت اليه وهي تبتسم ولسان حالها يقول « اخبرنا بهذه البشرى »

فالتفت الى جلنار وقال « ابشرك يامولاتي ان عند صاحبنا الخراساني اضعاف ما عندك من .. » وتنحنح

فلم تتمالك جلنار من الضحك بغتة ثم انتبهت لما في ذلك من ظواهر الخفة فامسكت نفسها وقالت « بارك الله فيك لقد اتعبناك ياصاح ونرجو ان نكافئك .. قص علينا خبرك »

الفصل الحادي والعشرون

خدعة

قال وهو يلتفت يميناً وشمالاً كأنه يحاذر ان يسمعه احد « ذهبت الى ابي مسلم بالهدية فقبلها وكأنه كان على موعدٍ من قدومي بهاولم يشأ ان يخاطبني في حضرة رفيقه ابن برمك فاشار اليه فخرج فلما خلوت به سألني عنكِ وتلطف في الاستفهام عن حالك فكدت اطير من الفرح ... »

فلما سمعت جلنار قوله تسارعت ضربات قلبها وكاد السرور يخرج بها عن حدود الحشمة وكادت ترقص طرباً لو لم تتذكر انها امام ذلك الخادم فتجلدت ونظرت الى ريحانة

كأنها تقول لها استزيديه بياناً فقالت ريحانة « ماذا قال لك ؟ .. هل رأيت فيه انعطافاً الى مولاتنا ؟ »

قال « قلت اني رأيت عنده اضعاف ما عندها وقد شهدت له بسلامة الذوق لانه قدّر هذا الجمال حق قدره » قال ذلك وهو ينظر الى الارض مطرقاً من الحياء فحجلت جلنار وقد عفت عن جسارته في سبيل ما جاءها به من البشري وظلت ساكتة فقالت ريحانة « دعنا من التلميح وقل صريحاً ما الذي قاله لك »

قال « قال لي .. قال لي .. لا اذكر كلامه بحرفه ولكنني فهمت منه انه عالق القلب بمولاتي وكان يخاف ان لا يكون عندها مثل ما عنده ولهذا السبب كان يظهر الاعراض في اثناء تلك الجلسة بالامس لكنه اوصاني وبالغ في التحذير من اظهار ذلك لمولاي الدهقان لغرض في نفسه وهو سرٌّ عميق ازهق روحي قبل اطلاعي عليه »

فقالت ريحانة « وما هو ذلك السر »

فوجم الضحاك وأقطب وجهه كأنه ندم على ما فرط منه وتراجع نحو الباب فابتدرته ريحانة قائلة « ما بالك تتراجع العلك ندمت على صدق خدمتك ؟ »

فوقف وتشاغل باصلاح عمامته وقد حوّل وجهه الى جلنار وجعل ذراعه بين عينيه ووجه ريحانة واشار الى جلنار بجفنيه وعض على شفته السفلى ففهمت جلنار أنهُ لايريد أن يقول ذلك لريحانة فابتدرتها قائلة « دعيه .. اني أريد أن أسأله ذلك سرًّا »

فرجعت ريحانة الى مقعدها وسكتت وظل الجميع سكوتاً لحظة ثم أدركت ريحانة ان الحال تدعو الى خروجها فخرجت

فلما خلت جلنار بالضحاك نظرت الى وجهه مستفهمة فدنا منها ثم التفت الى الباب الذي خرجت منه ريحانة ليتأكد خروجها وقال « اني سأبوح لك بسرٍّ عاهدني ابو مسلم ان ألقيه اليك وطلب اليّ ان تعاهديه على كتمانه عن كل انسان فهل تعدينني بذلك ؟ »

قالت وقد تطاولت بعنقها نحوهُ « نعم أعاهدك قل ؟ »

قال « هو يحبك يا سيدتي كثيراً ولكنه عاهد نفسه أن لا يقرب النساء ولا يعقد عقداً حتى يفرغ من مهمته ويخرج من حربه فائزاً بعد ان يهلك أعداءَهُ .. فهمتِ ؟ »

فاطرقت وهي تفكر بما ينطوي عليه ذلك القول من المغامز فلم تفهم مراده تماماً فقالت « افصح يا رجل .. قل كلمة أخرى »

قال « أنت تعلمين ان أبا مسلم قادم بهذه الدعوة واعداؤهُ كثيرون واكبرهم ابن

الكرماني ونصر بن سيار ولا يضمن الفوز لنفسه الاّ بعد قتلهما •• وقد أخبرته ان الكرماني خطبك لابنه فسرّ وابتهج •• » قال ذلك وتشاغل بحك ذقنه وضحك

فاطرقت وأعملت فكرتها فاستغربت تلك المناقضة كيف ان أبا مسلم يحبها وكيف أنهُ سرّ بخطبتها لابن الكرماني فرفعت بصرها الى الضحاك وفي عينيها علامة الاستفهام فضلاً عن ملامح الاضطراب ففهم سبب استغرابها فقال « لم يسره ان تكوني للكرماني بل سرّهُ انك ذاهبة اليه وأنت تريدين أبا مسلم وتحبين نصرته على اعدائه »

فادركت جلنار ان أبا مسلم يرجو منها أن تساعده على غرضه وهي عند الكرماني ولا يكون ذلك الاّ اذا أعانته في قتله وقتل ابن سيار فاكبرت الطلب لانه لا يتم لها الاّ بخيانة الكرماني بعد أن تصير زوجته فضلاً عن الاقدام على القتل وهي لم تتعوده فوجمت ولبثت صامتة وقد حارت في أمرها واعظمت ان تصرح للضحاك بما فهمته من خلال كلامه وأصبحت بين عاملين فوبين أحدهما يدفعها الى مرضاة حبيبها بأي وسيلة كانت والآخر يمسكها عن الاشتراك في قتل رجل سيعدّ نفسه زوجها ولا تستطيع الاشتراك في قتله الاّ وهي في بيته • فشعرت للحال أنها في شدة وقلق لا تنحو منهما الاّ بالازماع على احد أمرين اما أن تقبل بالكرماني على أمل أن تنال أبا مسلم بالاشتراك في قتله أو ان تأبى ذلك الرأي فتخسر أبا مسلم

قضت مدة وهي تتردد في الحكم بين الوجهين فاتعبها التردد واحست بصداع شديد وضاق صدرها فلم تتمالك عن الوقوف بغتة والضحاك يراعي حركاتها ويتوقع أن يسمع منها جواباً • فلما رآها وقفت علم أنها في حيرة شديدة فقال لها « لا تعجلي في الحكم يا سيدتي ••• تمهلي في أعمال الفكرة فان الطلب شاق وعلى كل حال لا سبيل الى ابي مسلم الاّ بما ذكرته لك لان الرجل شديد التمسك بعزمه ولا يرى العدول عنه الى سواه »

فارادت أن تستوضح الطلب فقالت « لم أفهم المراد تماماً •• لماذا لا تتلو عليّ قوله بحرفه ؟ »

قال « لو أردت ذلك لطال بي المقام غير اني أقول لك ما قد فهمته منهُ اجمالاً — هو يحبك ولكنه عاهد نفسه ان لا يكتب كتاباً الاّ بعد الفراغ من حربه وهو فائز ولكنه لا يرجو الفوز الاّ بالتغلب على هذين الرجلين وقد يمكن التغلب عليهما بدون قتلهما وقد لا يكون الاّ بقتلهما فاذا كنت أنت عند أحدهما كنت عوناً له على ذلك اذا أردت والاّ فالخاطر بك•• انظري في الامر على مهل •• »

فاحست جلناز بعجزها عن الحكم في المسألة فوراً واحبت تأجيله ريثما تخابر ريحانة في شأنه رغم ما وعدت به من كتمانه عنها — والانسان اذا أعجزه الحكم في مسألة أحس بميل شديد الى مكاشفة بعض أخصائه بها ولا عبرة بعهوده على الكتمان وقد يكون الالحاح عليه في كتمان السر من بواعث ترغيبه في افشائه وخصوصاً النساء فانهنّ أقل صبراً على حفظ الاسرار من الرجال بما فطرن عليه من ضعف المزاج وخصوصاً في ما يتعلق بالحب وأسبابه • ويغلب أن يكون افشاؤهن السرّ على سبيل المسارة فاذا عهدت الى أحداهن بسرٍ وأوصيتها بكتمانه فانها تخبر به صاحبتها سرًّا وهذه تنقله بالمسارة الى صاحبة أُخرى • ولا نبرئ الرجال من مثل ذلك وان كانوا اصبر على الكتمان منهنّ • وقد قالوا « كل سرّ جاوز الاثنين شاع » والحقيقة « أن كل سرٍ جاوز الشفتين شاع » — يقال ذلك في الاسرار على العموم بقطع النظر عن مصلحة أصحابها في افشائها وقد يعذر من يفشي سرًّا من أسراره التماساً للمشورة بعد أن يضيق صدره ويعجز عن الحكم فيه كما أصاب عروس هذه الرواية فانها اتخذت ريحانة خزانة لاسرارها منذ أعوام وهي شديدة الثقة باخلاصها وتعقلها فلا لوم عليها اذا كاشفتها بما أضجرها من أمر أبي مسلم في طلبه على ما حمله اليها الضحاك

الفصل الثاني والعشرون

الوداع

فلما ضاقت ذرعاً عن القطع في الامر أشارت الى الضحاك بالانصراف ومضت الى غرفتها لتخلو بنفسها لعلها تتوصل الى حلّ تلك المشكلة فأغلقت بابها واتكأت على الفراش وقد استغرقت في الهواجس فقضت في ذلك ساعة وهي تطوف في عالم الخيال ثم تعود الى حيث بدأت حتى ضاق صدرها فاحست بافتقار كلي الى ريحانة وصارت تتوقع قدومها على مثل الجمر ثم غلب عليها التعب والقلق وهي متكئة فاحست بالنعاس وشعرت بالبرد فالتفت باللحاف ونامت واستغرقت في النوم وقد تركت الباب مغلقاً ولم توصده فجاءت ريحانة لتفتقدها فرأتها نائمة فتركتها ومضت وهي اكثر قلقاً منها لاستطلاع ما سرّه

اليها الضحاك وكانت على يقين ان سيدتها لا تكتم عنها شيئاً

وظلت نائمة الى الغروب فافاقت على ضوضاء الخدم ففتحت عينيها وهي تحسب نفسها في الصباح فنهضت فرأت ريحانة جالسة بجانب فراشها فمسحت عينيها وتلفتت حولها فانتبهت انها في الغروب فلما رأت ريحانة قالت لها « لقد ابطأتِ وغلب النعاس عليَّ »

قالت « تخلفتُ عنك لتستوعبي سرك ثم جئت فرأيتك نائمة »

فقالت « ما هذه الضوضاء التي اسمعها ؟ »

قالت « ان الاضياف في القاعة مع مولاي الدهقان والخدم في خدمتهم »

فلما سمعت ذلك اجفلت واحست بميل شديد الى مشاهدة ابي مسلم وادركت ريحانة غرضها فقالت « ان مولاي الدهقان سألني عنك فاخبرته انك نائمة فهل تحبين الذهاب الى القاعة »

قالت « وما ذا يفعلون هناك »

قالت « اظنهم جاؤا للوداع وهم على اهبة السفر في صباح الغد »

فوقفت ودنت من المرآة المعلقة بالحائط لتصلح من شأنها ولم تصبر على ريحانة لتصلحها فاسرعت هذه الى المشط فسرَّحت شعرها وضفرته وأتتها بقارورة الطيب فتطيبت ولبست ثوباً سماوي اللون والتفت بشال موشيّ بالحرير وهي تضطرب من التأثر وترتعد رعدة الحب وتتظاهر انها انما ترتعد من البرد فجاءتها ريحانة بمطرف من الخز التفت به فغطى معظم اثوابها ومشت ريحانة بين يديها حتى دخلت القاعة من بابها السرّي وتنحت ريحانة واشرفت جلنار على الجلوس بحيث تراهم ولا يرونها فرأت والدها جالساً على وسادة في صدر القاعة وبين يديه محجن فيه مسك وهو يتشاغل بتفتيت المسك بين انامله وقد فاحت رائحته حتى تتضوع المكان بها ٠ ورأت أبا مسلم جالساً وقد بدّل ثياب السفر التي رأته بها بالامس فجعل على رأسه قلنسوة من خز اسود وفوق اثوابه قباء اسود فتذكرت ما سمعته عن الشعار الاسود الخاص باصحاب هذه الدعوة ٠ ورأت خالداً بجانب ابي مسلم بمثل لباسه وقد جاسا على وسادتين مثنيتين دلالة على علو منزلتهما عند صاحب الضيافة٠ فوقفت هنيهة وهي لا تمتلك نفسها من الرعدة فانتبه لها والدها فناداها واشار اليها ان تجلس الى بعض الاساطين فجلست ولم تتكلم ولكنها كانت متوجهة بكل جوارحها نحو ابي مسلم لترى ما يبدو منه بعد ما سمعته عنه ٠ فلحظت منه التفاتاً لم تعهده من قبل فانشرح صدرها وكانوا قد أخذوا باطراف الحديث قبل وصولها فخاطبهم والدها بالفارسية

قائلاً « اراكم مسرعين في الرحيل عنا ألعلكم لم ترتاحوا الى ضيافتنا ..؟ »

فقال ابو مسلم « كلاّ يا حضرة الدهقان بل نحن لا ننسى حسن وفادتكم ونتمنى ان يكون سائر الدهاقين مثلكم »

قال « لا ريب عندي انكم ستلاقون من اخواننا الدهاقين كل رعاية وسيكونون عوناً لكم في هذه الدعوة لانكم انما تدعون الى نصرتهم بل انتم تسعون في انشاء دولة سيكون لآل خراسان نفوذٌ عظيم فيها فننسى تحكم العرب في شؤوننا واستئثارهم بالاموال دوننا . فقد كنا من قبلهم وفي اوائل دولتهم نحن اهل السطوة واصحاب الحكومة فما زالوا ينازعوننا عليها حتى كادوا يحكمون فينا ولا يمرّ يوم لا يأتوننا فيه بضريبة »

فقال ابو مسلم « واظن هذا هو السبب في بقاء معظم الدهاقين على الزردشتية او المجوسية »

قال الدهقان « نعم هذا هو السبب وانا اعرف جماعة من هؤلاء لولا ظلم هذه الدولة واستبدادها لاعتنقوا الاسلام على ان بعضهم همّ بالاسلام ثم عدل عنه ولا ريب عندي انهم اذا آنسوا من حكامهم رفقاً لا يتخلف أحد منهم عن الاسلام وانا اضمن ذلك اذا شئتم »

قال خالد « يكفينا من حضرة الدهقان ان يبعث بعض اتباعه الى من والاه من الدهاقين ان يحسنوا الظن بدعوتنا »

الفصل الثالث والعشرون

الدهاء المتبادل

وكان ابو مسلم في أثناء كلام خالد ينظر الى جلنار من طرف خفي وهي تسارقه اللحظ وقد كاد قلبها يطير سروراً لما رأته يبتسم لها واصبحت لا تبالي بما قد يحول بينها وبينه من المشاق واستغربت ترددها في أمره بأثناء النهار — ولا غرابة في ذلك لان الانسان اذا هاجت عواطفه اصابه ضربٌ من الجنون لا يقدّر معه عاقبة ولا يخاف خطراً والحب سلطان مستبدٌ اذا لم يعترضه العقل جرّ صاحبه الى اكبر الكبائر وهو لا يدري. فكم من اديب عاقل تغافل عقله في ساعةٍ تغلبت فيها عواطفه فارتكب أمراً جرّ عليه

الخراب او العار ابد الدهر وقد كان في حلٍّ من ذلك لو استطاع الصبر على عواطفه ساعة او بعض الساعة • ولو أعملت الفكرة في اكثر الجرائم التي يرتكبها البشر ويشقون بسببها لرأيتها انما حدثت في مثل تلك الغفلة — فلا غرو اذا هان على جلنار ركوب ذلك المركب الخشن في سبيل رضا حبيبها ولم يعوزها للاستهلاك في ذلك الاَّ ابتسامة خرقت احشائها واضاعت رشدها وهي مع ذلك تتجلد وتتظاهر بخلو الذهن مخافة ان يبدو ذلك لاحد الحاضرين

أما ابو مسلم فلما سمع كلام خالد قال « نعم يكفينا ان يحسن الدهاقين ظنهم في دعوتنا واذا رضي هؤلاء هان كل عسير ولم يعد يهمنا جند العرب ولو كثروا فان دولتهم آخذة في الزوال •• »

فتذكر الدهقان ان هذا التعميم يشمل جند الكرماني لان جنده من العرب ولكنهم من عرب اليمن خلافاً لجند نصر بن سيار فانهم من المضرية فقال « اظنك تعني عرب مضر لان عرب اليمن مخالفون لبني أمية •• »

فادرك أبو مسلم انه يعرّض بالكرماني وتذكر ما سمعه من الضحاك عن خطبة الكرماني لجلنار فقال « ان اليمنية ينصرون دعوتنا ويدعون لابراهيم الامام فهم اعواننا ونحن اعوانهم • اما اذا وقفوا في سبيلنا ودعوا لانفسهم او لرجل آخر فهم اعداؤنا والسيف بيننا وبينهم »

فاختلج قلب جلنار لهذا التصريح وتذكرت شأنها في ذلك فامتقع لونها فبالغت بالالتفاف بالشال وتشاغلت باصلاح المطرف حول منكبيها وتنحنحت وهي تتظاهر بسعال داهمها فأدرك ابو مسلم انها تخاطبه فتبسم وتشاغل بحك ذقنه ثم قال ووجَّه خطابه الى الدهقان « اذا اصبحت مرو فريسة بيننا وبين الكرماني او بيننا وبين شيبان فهي للفائز منا بعد التنازع عليها »

وكان الدهقان منذ سمع قول ابي مسلم الاول بشأن عرب اليمن يفكر في مصير ابنته اذا تزوجها ابن الكرماني وهو يعتقد ان الكرماني أقوى وامنع من أبي مسلم لكثرة جنده واستعداده وابو مسلم لم يجتمع عنده من الجند أحد بعد • فعوّل ان يمسك الحبل من الطرفين فاذا غلب الكرماني كانت ابنته عنده ونال بالمصاهرة غرضه واذا غلب أبو مسلم أمن على حياته وامواله بما ابداه من المسايرة • ولم يكن عازماً على نصرته حقيقة وانما وعده بالمساعدة خداعاً فقال « نعم ان الكرماني مثلنا من حيث نهوضه على بني أمية

ورجاله من القبائل اليمنية وهم اعداء عرب مضر انصار بني أمية • ولكن الكرماني عربي الاصل وان كان اسمه يوهم غير ذلك فنخاف اذا فاز ان لا يكون لنا في دولته مصلحة وأما أنتم فانكم منا ونحن منكم ودولتكم دولتنا • نعم ان الدعوة باسم خليفة عربي ولكنه سيكون نصيرنا لاننا نصرناه في دعوته • وزد على ذلك انه اوصى بابادة العرب من خراسان على ما سمعناه من وصيته التي بعث بها اليك — • • »

فلما سمعت جلنار كلام والدها استبشرت وخيل لها انه غيَّر رأيه في الكرماني واختلج قلبها فرحاً وظهر ذلك في وجهها • ولو دخلت في الحديث معهم لما خفي حالها على ابي مسلم ولكنها كانت صامتة منزوية لا تجسر على الكلام لئلاَّ يبدو شيء من عواطفها فيفتضح امرها عند والدها فيفسد عليها تدبيرها

واما ابو مسلم فلم ينخدع باقوال القهرمان كل الانخداع لانه كان اكثر دهاء منه وهو يسيء الظن باقرب الناس اليه ولا يأمن أحداً على امره ولا يسلم سرّه الى احد بل كان يضمر السوء لكل انسان اذا لم ينفعه أو ينصره فكان يقيس الناس على ما يعلمه في نفسه — والناس مفطورون على حب الذات قلما يعملون عملاً الاَّ وينظرون من ورائه الى مصالحهم الخصوصية وان تظاهروا بغير ذلك • فلا يقوم أحد بنصرة الوطنية الاَّ اذا توقع منها نفعاً لنفسه ولا ينصر الحكومة الملكية المطلقة الاَّ لمصلحته ولا يسعى في قيام الجمهورية الاَّ لما يرجوه من المصلحة فيها • فالانسان لا يعمل عملاً كبيراً ولا صغيراً الاَّ اذا توقع الانتفاع به عاجلاً او آجلاً حتى الصلاة والعبادة وكل عمل ادبي او مادي • واذا أنكر احد ذلك فانه يخدع نفسه او اهله او انه من العامة الذين يساقون سوق الاغنام في آرائهم ومذاهبهم • وانما كلامنا عن خاصة الناس قادة الافكار • لان الناس من هذا القبيل فئتان فئة قائدة وفئة مقودة والفئة الأُولى هم خيرة الانام واهل العقول الكبيرة واصحاب المطامع فهؤلاء لا يقدمون على عمل الاَّ وهم يرجون منه النفع لانفسهم ولكنهم يختلفون في حدود مطامعهم ففيهم من يريد النفع لنفسه ويابى الضرر لسواه وهم اهل الخير وفئة لا يهمهم الاَّ الوصول الى اغراضهم ولو تخطوا اليها على جثث الناس • وفيهم من لا يبالي ان يتخطى الى غرضه على جثث اقرب الناس اليه وقد يضحي اصدقاءه وخاصة اهله في هذا السبيل • وامثال هؤلاء كثيرون في تلك العصور واكثرهم يعدُّون من عظماء الرجال ومنهم ابو مسلم هذا فقد كان واسع المطامع كبير النفس متصلب القلب لا يهمُّه الاَّ بلوغ غايته وهي الفوز في دعوته فاذا اعترضه ظلُّ اخيه قتل

اخاه ولو توهم الخوف من اصدق اصدقائه بادر الى قتله عملاً بنص الوصية التي اوصاه بها الامام «من شككت فيه فاقتله» فمن كان هذا شانه لا يحسن الظن في احد — فلما سمع مواعيد الدهقان اظهر تصديقه اياها تشجيعاً له على الثبات في قوله وهو في الواقع لا يعتقد صدقه وخصوصاً بعد ان علم بخطبة ابن الكرماني لجلنار فكيف يزوج ابنته من رجل يعتقد قرب سقوطه .. ولم يكن ابو مسلم يجهل حقيقة حاله يومئذٍ وليس عنده من الرجال الاَّ القليل. فلما تصور ذلك هبَّ من مقعده كأنه انتبه لشيءٍ نسيه ووقف فوقف الجميع فقال ابو مسلم للدهقان «استودعك الله فاننا نبيت الليلة على ان نرحل في فجر الغد وانتم نيام فلا تنسَ وعودك فاننا نحارب في سبيل اخواننا الخراسانيين وسائر رجال فارس»

فقال «كن في راحة اني باذل اقصى الجهد في جمع كلمة الدهاقين على نصرتكم»

فقال خالد «اذا فعلت ذلك فانك فاعله لخيرك وخير اهلك» وقبل ان يتحوَّل ابو مسلم من القاعة التفت الى جلنار وكانت تراعي كل حركة من حركاته وتصغي لكل قول من اقواله فلما وقع نظرها على نظره توهمت انه ابتسم لها وانه وعدها باللقاء القريب اعتماداً على رسالته اليها على يد الضحاك فزاد هيامها به واحسَّت وهو خارج كأنه انخلع من قلبها ولكنها عللت نفسها بما سمعته من والدها من تحقير امر الكرماني واعظام امر ابي مسلم وحدثتها نفسها ان والدها قد غير رايه في خطبتها

الفصل الرابع والعشرون

الخيبة

وخرج ابو مسلم وخالد والغلمان بالشموع بين ايديها حتى بلغا مبيتهما وظلت جلنار في مكانها تنتظر الخلوة بوالدها لعله يبدي ما يطمئنها . فلما عاد من وداع الرجلين ورآها ابتسم لها ودنا منها حتى جعل يمناه على كتفها وهو يتبع ابا مسلم بنظره ويقول «طالما قلتم ولم تفعلوا ..»

فلم يعجبها قوله لانه دل على انكاره امر ابي مسلم فتجاهلت وقالت «ومن هؤلاء يا ابتي»

قال هؤلاء اهل بيت النبي فانهم ما زالوا منذ ملك بنو أمية زمام الملك وهم يبثون

الدعاة يدعون الناس الى انفسهم فيأتينا هؤلاء كما اتانا ابو مسلم اليوم فنحسن وفادتهم وندفع اليهم المال وننصرهم جهدنا ثم لا نلبث ان نسمع بذهاب دعوتهم وان الامويين قتلوا صاحب الدعوة اوصلبوه فيقوم سواه . وهكذا . وكانت الدعوة قبلاً لابناء بنت النبي وأما اليوم فانهم يدعون لابناء عمه . ولا ريب عندي ان هذه الدعوة ساقطة لسببين مهمين الاول لأن نقل هذه الدعوة من آل ابي طالب الى آل العباس يهيج غضب الطالبيين كافة وهم اصحاب هذه الدعوة وأهل خراسان لا يعرفونها لسواهم . والسبب الثاني ان هذا الغلام مغرور بنفسه يريد ان يحارب هذه الدولة بسبعين رجلاً او مئة رجل .. »

وكانت جلنار تسمع كلام والدها باصغاء واستغراب ولو انتبه وهو واضعٌ يده على كتفها لشعر بقشعريرة اعترتها عند سماع قوله . وخافت هي ظهور ذلك منها فتظاهرت باصلاح شعرها وتخلصت من يده وتجلدت وقالت « سمعتك تطريه وتعده بالمساعدة وتؤمله بالنصر .. »

قال وهو يضحك « وما الذي خسرته أليس ذلك أفضل من ان أعاديه او اعترض على رأيه وهو كما علمتِ شديد الوطأة لا يبالي بالعواقب واذا عادانا لا نكون في مأمن من اذاهُ . وزد على ذلك اني لا اقول بفشل هذه الدعوة قطعياً اذ لا آمن ان ينقلب الامر الى عكس ما أراه فيكون لنا عند ابي مسلم شفاعة لاعتقادهِ اننا على دعوته . واذا كانت الغلبة للكرماني كنتِ لنا شفيعاً عنده ... » قال ذلك وتشاغل هنيهة بالسعال وتنحنح ثم اتم كلامه قائلاً « أما نصر بن سيار فانه مغلوب في كل حال لان سلطان بني أمية ذاهب لا محالة وستنقسم مملكتهم الواسعة الى دول صغيرة يملكها أمراء مستقلون كما حدث لمملكة الفرس بعد الاسكندر اذ ملكها ملوك الطوائف . وفي اعتقادي ان خراسان ستكون احدى تلك الممالك وسيملكها الكرماني كما قلت لك غير مرة والعاقل من اغتنم الفرص عند سنوحها » وكانه تذكر وصية ريحانة ان لا يلح على ابنته بشأن ابن الكرماني وان يترك امره اليها فقال « هلمَّ بنا الى المائدة نتناول العشاء فقد حان وقته » قال ذلك ومشى وهو يجرُّ مطرفه ويخطر في مشيته والخدم يقفون له اذا مرَّ بهم وجلنار تسير في أثره حتى وصلا غرفة المائدة وقد اعدَّت فيها المآكل على خوان فوق البساط وعليهِ اصناف الاطعمة والاشربة والفاكهة . وكان الدهاقين اهل ترف وتأنق شأن اهل الثروة والنفوذ وخصوصاً في تلك الاعصر — وكانت جلنار في أثناء الطعام لا تتكلم وانما تلاهى بالطعام عن غير قابلية وافكارها تائهة في ابي مسلم وهي تتصوره خارجاً من القاعة

وعليه تلك الحلة السوداء بعد ان نظر اليها النظرة الاخيرة • فلما تذكرت انه ذاهب في الفجر ولن تراه الآ اذا قدّر لها لقاؤه وهي تحسب ذلك بعيداً صعباً وقفت اللقمة في حلقها ودمعت عيناها رغم ارادتها • فاشارت الى أحد الغلمان الوقوف للخدمة بالماء فجاءها بكاس من الفضة فيه ماء فشربت وهي تتظاهر ان عينيها دمعتا من الغصة وودّت الفراغ من الطعام والذهاب الى غرفتها للاجتماع بريحانة لبثّ شكواها والمداولة في امرها • ولم تكن ريحانة تأكل معهم على مائدة واحدة فتظاهرت جلنار انها تألمت من تلك الغصة وانزعجت والتمست الذهاب الى فراشها قبل الفراغ من المائدة لان التأنق يدعو الى المطاولة في الاكل والشرب • فاذن لها فأسرعت الى غرفتها فوجدت ريحانة في انتظارها هناك فجلستا للمداولة

الفصل الخامس والعشرون

الرحيل واظهار الدعوة

فلنتركهما في حديثهما لانه يطول ولنعد الى ماكان من أمر ابي مسلم بعد خروجه من حضرة الدهقان فانهُ استقدم كبار النقباء اليه وهم اثنا عشر كان محمد بن علي والد ابراهيم الامام قد اختارهم في اول الدعوة نحو سنة ١٠٠ هـ قبل ظهور ابي مسلم وتأميره عليهم واكثرهم عرب يمانية وكلهم من احاسن القواد من جملتهم سليمان بن كثير وكان يومئذ في سفيذنج كما تقدم • ومنهم ابو الحكم عيسى بن اعين وهو في « فنين » التي هم سائرون اليها وكان من جملة الذين حضروا تلك المائدة قحطبة بن شبيب الطائي ولاهز بن قريظ التميمي وابو داود الذي تقدم ذكره ونصر بن صبيح التميمي وشريك بن غضي التميمي وعبد الرحمن بن سليم [1] وكان من جملة رجل تلك الدعوة من الفرس خالد بن برمك وابو عون الخراساني وكانا في جملة الحضور تلك الليلة فتناولوا العشاء مما اعدّه خدم الدهقان كالعادة • فلما فرغوا من الطعام قال لهم ابو مسلم « اعلموا اننا ناهضون في صباح الغد الى فنين اذ ننزل فيها على اخينا ابي الحكم عيسى بن اعين النقيب وهناك ننظر في توجيه القواد الى الشيعة في الاطراف فتأهبوا للنهوض باكراً وامروا

(١) ابن الاثير ج ٥

رجالكم باعداد الاحمال اللازمة حتى نقوم من هنا في الفجر ونصل « فنين » في الضحى »

فتحادثوا في ذلك ملياً ثم نهضوا الى خيامهم واصبحوا في الفجر وقد تأهبوا للرحيل وكانت مياه المطر قد جفت واعتدل الطقس ولكنهم لم يستغنوا عن الالتفاف بالعبي والفرو دفعاً للبرد

وصلوا « فنين » في الضحى وقد اشرقت الشمس ودفأت الطبيعة فنزلوا هناك على عيسى بن اعين فنصبوا الخيام للرجال ونزل ابو مسلم وخاصته الذين ذكرناهم في بيت عيسى المذكور في شعبان سنة ١٢٩ هـ وفي حال وصولهم عقدوا جلسة اقروا فيها على انفاذ النقباء الى الاطراف لاظهار الدعوة وجمع الرجال للحرب . وكانت تلك الجلسة في قاعة غصت بأصحاب اللحى من المشائخ وكلهم ينقادون لرأي ابي مسلم وهو شابٌّ كاحد اولادهم ولكنهم كانوا لا يرون بدًّا من أمر الامام لانهم انما قاموا يدعون له ويعتقدون صدقه ويعملون برأيه . فلما اجتمعوا وتداولوا أخذ ابو مسلم في توجيههم فوجه ابا داود النقيب ومعه عمرو بن اعين اخو عيسى الى طخارستان فما دون بلخ . ووجه نصر بن صبيح وشريك بن غضبي التميميين الى مرو الروذ (غير مرو المحاصرة) . ووجه عبد الرحمن ابن سليم الى الطالقان . ووجه الجهم بن عطية الى خوارزم وأرسل غيرهم ايضاً واوصاهم جميعاً ان يظهروا الدعوة في رمضان لخمس بقين منه الاَّ اذا اعجلهم عدوهم دون الوقت بالاذى والمكروه فقد « حلَّ لهم ان يدفعوا عن انفسهم ويجردوا السيوف ويجاهدوا اعداء الله ومن شغله منهم عدوهم عن الوقت فلا حرج عليهم ان يظهروا بعد الوقت » واوصاهم بالصبر والثبات فنهضوا

وظل ابو مسلم في فنين الى أول رمضان ثم نهض بمن بقي من رجاله حتى نزل سفيذنج في اليوم الثاني من رمضان وفيها سليمان بن كثير الخزاعي المقدم ذكره فاشرفوا على مرو عن بعد لانها في سهل واسع مستو محاط بالجبال حتى لا يرى المقيم فيها جبلاً [1] وليس في شيء من حدودها جبل وارضها سبخة كثيرة الرمال

فلما نزل ابو مسلم سفيذنج استقبله سليمان بن كثير ورحب به وبرفاقه وانزله هو وخالد عنده ونزل الباقون في الخيام ولبثوا ينتظرون اليوم المعين لاظهار الدعوة يوم ٢٦ رمضان اي لخمس بقين منهُ وهو اليوم الذي أمر قوّاده باظهارها فيهِ

وفي اليوم التالي من وصوله هناك وقف هو وسليمان وخالد في مكان يشرفان منه على مرو وما حولها . فرأوها محاطة بسور من طين وفي وسطها بناءٌ هائل هو قهندزها

---

(١) الاصطخري

اي قلعتها وهي في الكبر مثل مدينة عالية يراهـا القادم عن بعد • فقال ابو مسلم « اني لاستغرب امر هذا القهندز لضخامته وكبره وعلوّه »

فقال سليمان « واغرب من ذلك انهم ساقوا اليه الماء من النهر بقناة على قناطر وقد دخلته مرة فرأيتهم قد غرسوا على سطحه مباطخ ومباقل وغير ذلك فاذا مشيت هناك توهمت انك في بستان على قمة جبل »

ورأى أبو مسلم خياماً خارج السور برايات مختلفة الالوان والاشكال فتذكر ما سمعه من صاحب خبره عن الكرماني وشيبان فقال لسليمان « هذان المعسكران للكرماني وشيبان ؟ »

قال « نعم وهما يحاربان نصر بن سيار ورجالهما كثيرون في المعسكرين •• »

فقال ابو مسلم « كانك تخاف قلة عددنا سترى اننا كثيرون باذن الله •• ألا ترى ان نبث دعاتنا في هذه القرى حول مرو ؟ •• »

قال « تفعل حسناً ايها الامير لان اهل هذه القرى ملّوا تعدي العرب على اغراسهم وهم لا يفرقون بين اليمنية والمضرية وانما يعرفون ان العرب يظلمونهم وان الفرس خير منهم فاذا بثثنا الدعاة على هذه الصورة اجابونا »

فدعا ابو مسلم الدعاة وبث جماعة منهم في القرى المجاورة يدعون الى ابراهيم الامام تحت ظل أبي مسلم الخراساني فجاءهم في ليلة واحدة اهل ستين قرية [1] وظلوا على نحو ذلك الى ميعاد اظهار الدعوة • وكان ابومسلم يقبلهم سرًّا ثم يردهم الى قراهم الى ان يحين وقت اظهار الدعوة فيدعوهم اليه بنيران يوقدها علامة للقدوم

وفي ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان من سنة ١٢٩ ﻫ احتفل ابو مسلم بذلك احتفالاً رسميًّا بجمع كبار الدعاة في ساحة بين يدي سفيذنج • وكان اول علامات الاظهار انه عقد اللواء الذي جاءه من عند الامام واسمه « الظل » على رمح طوله اربع عشرة ذراعاً وغرسه امام المنزل الذي يقيم فيه وجاء برمح آخر طوله ١٣ ذراعاً عقد عليه الراية التي سماها السحاب — فعل ذلك في مشهد موقّر حضرهُ النقباء وهو يتلو « أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير »

ولما فرغ من تلاوة الآية التفت الى النقباء وقال « اتعلمون لما ذا سمّى مولانا الامام هذه الراية السحاب ؟ »

---

(١) الطبري ج ٣

قالوا « لا »

قال « اشارة الى ان السحاب يطبق الارض . وهل تعلمون لما ذا سمي هذا اللواء بالظل ؟ »

قالوا « لا »

قال « لان الارض لا تخلو من الظل وكذلك الارض لا تخلو من خليفة عباسي ابد الدهر »

ثم جاؤا بالالبسة السوداء ويسمونها السواد فلبسوها رسميًا واول من لبسها ابو مسلم وسليمان ابن كثير واخوة سليمان ومواليه ومن كان اجاب الدعوة من اهل سفيذنج وسائر الدعاة ثم اوقدوا النيران على حسب الاتفاق مع الشيعة الذين بايعوا فتجمعوا اليه حين اصبحوا وكان اول من قدم عليه اهل النقادم مع ابي الوضاح في تسعمائة راجل واربعة فرسان ومن اهل هرمزفره جماعة وقدم اهل النقادم مع ابي القاسم محرز بن القاسم الجوباني في الف وثلثمائة راجل وستة عشر فارسًا فيهم من الدعاة ابو العباس المروزي فجعل اهل النقادم يكبرون من ناحيتهم ويجيبهم اهل النقادم بالتكبير فدخلوا عسكر ابي مسلم بسفيذنج بعد ظهوره بيومين وحصّن ابو مسلم حصن سفيذنج ورمه وسد دروب المحلة

الفصل السادس والعشرون

اين المحب من الخلي

فلما حضر عيد الفطر امر ابو مسلم سليمان بن كثير ان يصلي به وبالشيعة ونصب له منبرًا بالمعسكر وامره ان يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير اذان ولا اقامة وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبل الصلاة وبالاذان وبالاقامة . وامر ابو مسلم ايضًا سليمان بن كثير بست تكبيرات تباعًا ثم يقرأ ويرجع بالسابعة ويكبر في الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعًا ثم يقرأ ويركع في السادسة ويفتح الخطبة بالتكبير ثم يختمها بالقرآن . وكان بنو أمية يكبرون في الاولى اربع تكبيرات يوم العيد وفي الثانية ثلاث تكبيرات فلما قضى سليمان الصلاة انصرف ابو مسلم والشيعة الى طعام أُعدّ لهم [1]

(1) الطبري ج ٣

وكانت المائدة التي اعدها سليمان في فسطاط كبير بجانب المعسكر فجلسوا حولها مستبشرين . وابو مسلم في صدر المائدة ساكت مفكر كعادته يتناول اللقمة في اثر اللقمة على مهل وعيناه تنظران الى ما وراء الباب من السهل الواسع الذي لا يقف البصر في آخره على غير الافق . وحوله النقباء والامراء وكلهم هائبون منظره وفيهم من يفكر في ما يهددهم من الحرب العظيمة

وبعد الفراغ من الطعام وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة نهضوا لتدبير شؤونهم وكلٌّ في شاغل من امر نفسه او اهله الا ابا مسلم فلم يكن همُّه الا تدبير ما اجتمع اليه من الناس وهم كثيرون بالنظر الى قصر المدة التي اجتمعوا فيها ولكنهم قليلون بالقياس على رجال نصر في مرو ورجال الكرماني وشيبان خارجها . وكان ابو مسلم لا يخلو الاَّ ومعه خالد ابن برمك فقد كان مقر ثقته ومستودع اسراره فلما خرجوا من فسطاط المائدة انصرفا معاً الى جانب من المعسكر على مرتفع يشرفان منه على مرو وضواحيها وعلى معسكرها

فلما رأى ابو مسلم قلة جنده بالنسبة الى اولئك التفت الى خالد وهو يزيح عمامته نحو الوراء وتبسَّم وذلك نادر منه فاقبل خالد نحوه بكليته كانه يتأهب لتنفيذ امره فقال ابو مسلم « الا تخيفك قلة جندنا وكثرة عدونا ؟ »

فبش خالد وقال « لا يخيفني شيء وانت اميرنا واليك قيادتنا وقد استبشرت اليوم بكثرة من جاءنا من الشيعة على قصر مدة ظهورنا . . »

فقطع ابو مسلم كلامهُ وقال « صدقت ولكن الغلبة ليست بالكثرة وانما هي بالتدبير والاتحاد . نعم ان اعداءنا كثيرون ولكنهم احزاب متفرقة قد يفني احدها الآخر قبل خروجنا اليهم . وربما كان لنا من منهم عونٌ عليهم . . . اليس اليمن مع الكرماني ومضر مع ابن سيار والخوارج على الاثنين ؟ ساريك مصير هؤلاء جميعاً . . . » ثم وقع نظره وهو يتكلم على سواد قادم من عرض الافق وغبار متصاعد فتفرس به واستبشر فابتدره خالد قائلاً « اظن جماعة من شيعتنا قادمين لنصرتنا . . »

فلم يجبه ابو مسلم وظل متفرساً هنيهة ثم قال « لا أرى أعلاماً سوداً . . . فلا أظن القادمين شيعة لنا » ولبثا هنيهة أخرى فانكشف الغبار عن قبة على فيل أبيض كبير وحول القبة بضعة فرسان يسير في ركابهم جماعة من العبيد ووراء الفيل جمالٌ عليها احمال الآنية والفرش وغيرها . فاستغربا ذلك وزاد استغرابهما لما رأيا الموكب متجهاً نحوهما فجعلا ينظران اليه لعلهما يتبينان شيئاً من أمره فاذا بتلك القبة مصنوعة من الديباج الاحمر وقد

تدلت استارها حتى لا يظهر شيء مما في داخلها وحول عنق الفيل وعلى جبهته وفي مقدم صدره عقود وأوسمة مرصعة بحجارة كريمة مختلفة الالوان تتلألأ بنور الشمس وقد كسي ظهره وجوانبه بالديباج الاصفر الزاهي • يقود الفيل رجل طويل القامة عليه عباءة وعمامة ما لبث ابومسلم ان رآه لما اقترب حتى عرفه وهو الضحاك فتذكر حكاية جلنار وخطبتها الى ابن الكرماني وما كان من حديثه بشأنها فاجفل لاول وهلة لانه ظنها مزفوفة اليه • فاذا بالضحاك قد عهد بمقود الفيل الى عبد كان بجانبه وأسرع نحو أبي مسلم متأدبًا حتى اذا وقف بين يديه حياه تحية الامراء وهمّ بتقبيل يده فمنعه ابو مسلم وابتدره قائلاً « ما شأنك ؟ »

فضحك الرجل وقال بصوت ضعيف « لا تخف ليست مزفوفة اليك » ثم رفع صوته وقال « أليس هذا معسكر ابي علي الكرماني؟ • »

فصاح خالد فيه « قبحك الله ألا ترى الاعلام السوداء ؟ »

فتظاهر الضحاك بالاستغراب وقال « لقد أخطأنا الطريق أظن معسكر الكرماني ذاك » وأشار بيده اليه ثم تشاغل بحك قفا عنقه وظل واقفاً مطرقاً

فقال خالد « نعم »

وأدرك ابو مسلم مما بينه وبين الضحاك بشأن جلنار انه لم يأت اليه الاّ لغرض فمشى وتبعه الضحاك وظل خالد في مكانه فلما انفردا قال الضحاك « ان هذه المسكينة مزفوفة الى ابن الكرماني رغم ارادتها وقد أوصتني ان احتال لها في الدنو من معسكرك لكي تراك لان قلبها •••• » وتنحنح ثم قال « واذا أرسلت نظرك الى القبة رأيتها تنظر اليك من خلال الستور خلسة فانظر اليها من باب العلم بالشيء ••• » وضحك

فرفع ابو مسلم نظره الى القبة وكانت قد صارت على نحو خمسين خطوة منه فرأى وجهاً مطلاً من خلال الستور اذا شبهناه بالقمر ظلمناه لأن القمر صحيفة لا ماء فيها ولا حياة ولو كان لابي مسلم قلب يهوى ما استخف بعواطف تلك الفتاة المستهامة • ولكنه خالٍ من عقل ودهاء وطمع وكبرياء وابتعد قلبه عن محبة النساء • ولا نظن قلبه عرف نوعاً من انواع المحبة وانما هو قلب يهوى العلى ويهوّن سفك الدماء ولا يحكم في نفسه الا عقله من حيث الدهاء التماساً لما يتوقعه من الظفر القريب

اما تلك الفتاة المفتونة فقد خلقت وقلبها كبير ولم تتحرك عواطفها قبل ان عرفت أبا مسلم والحب كله رجاء والمحب واسع الامل وقد زادها الضحاك أملاً بما نقله اليها من حب

ابي مسلم فاستسهلت كل صعب في سبيل مرضاته فقبلت أمر أبيها ورضيت بالزفاف الى ابن الكرماني تقرباً من معسكر حبيبها وعملاً بارادته • وأوصت الضحاك ان يحتال في الوقوف هناك ليعلم ابو مسلم انها جاءت الى الكرماني صورةً وان قلبها مع ابي مسلم • فلما رأته ينظر الى قبتها اختلج قلبها في صدرها وتوهمت انها رأت أبا مسلم يبتسم لها ويحييها فدمعت عيناها وأرخت الستر وتحولت الى الداخل وريحانة معها ولم يخفَ عليها شيءٌ من أمرها

أما الضحاك فانه حنى رأسه بين يدي أبي مسلم وقال « ثق بعبدك وكن على يقين اني سأخدمك بما يسرك »

الفصل السابع والعشرون

سياسة التقسيم

ثم حياه وتحول وهو يقول بصوت عال « فنحن اذاً قد أخطأنا الطريق الى معسكر أبي علي •• هلم بنا ياقوم الى تلك الاعلام اليمنية فان الكرماني هناك •• »

ولما وصل الى الفيل تناول المقود وأشار الى بعض العبيد فانطلق مسرعاً يعدو نحو معسكر الكرماني ينبئهم بقدوم العروس ليستقبلوها وكان الكرماني قد كتب الكتاب في منزل الدهقان قبل ذلك اليوم ودفع المهر وابرم الاتفاق

أما خالد فانه ترك أبا مسلم يخاطب الضحاك وانصرف نحو المعسكر فرأى رجلاً مسرعاً نحوه وهو يقول « اين الامير ؟ »

فقال « وما الخبر ؟ »

فاشار بيده نحو مرو وقال « ان الحرب قد انتشبت بين الكرماني ونصر •• »

فالتفت خالد الى مرو فرأى الفرسان قد خرجت من المدينة ومعها اعلام بني أمية وخرج اليهم رجال الكرماني باعلامهم وقد تطايرت النبال واشتبك القتال • وكان أبو مسلم قد أقبل نحو خالد ورأى مثل ما رأى ففرح وصاح « لقد أزفت ساعة العمل »

فقال خالد « هل نستعدُّ للهجوم ايها الامير ؟ »

قال « احذر ان تفعل انما شأننا اليوم الصبر لنرى عاقبة هذا القتال •• »

قال « ألا نغتنم اشتغال نصر بالحرب ونهجم على المدينة »

قال « اذا هجمنا لا نأمن ان يجد العدو ان علينا ولكن نصبر الى الغد » قال ذلك ومضى الى منزل سليمان بن كثير فرأى النقباء قد اجتمعوا هناك وهم يسألون عن أبي مسلم وكلهم يرون رأي خالد بالهجوم • فلما أقبل ابو مسلم عليهم استشاروه فقبح رأيهم وأمرهم بالتربص فسكتوا وأطاعوا

فلما غربت الشمس تراجع الجيشان وأمسكا عن القتال ورجع كل منهما الى مكانه والنقباء يرون أبا مسلم قد أخطأ لتقاعده عن اغتنام تلك الفرصة وهو لا يقول شيئاً • فلما أمسى المساء طلب الخلوة بخالد وسليمان وأمر سائر النقباء ان يبيتوا على حذر

فلما خلا بخالد وسليمان همّ ان يكاشفهم بما في ضميره فسمعوا طارقاً يطرق الباب ففتحوا له واذا بفارس ومعه رجل موثق بعمامته والفارس يقول « قد قبضنا على هذا الرجل ماراً في معسكرنا وليس هو منا » فلما رآه أبو مسلم بنور المصباح عرفه فصاح به « الضحاك ؟ »

فقال « نعم يامولاي »

فاشار الى الفارس فتركه وانصرف ودخل الضحاك فحلوا وثاقه وسأله عن أمره فقال « هل أتكلم ام تأذن بخلوة ؟ »

فادرك انه يريد الخلوة فاشار الى خالد وسليمان فذهبا الى غرفة أخرى وجلس ابو مسلم على وسادة وأمره ان يجلس وقال « قل ما وراءك »

فجلس الضحاك جاثياً متأدباً وقال « اسمح لي يا مولاي ان اثني على تربصك الليلة وقد كنت خائفاً ان تأمر جندك بالهجوم »

قال « لا تخف •• ثم ماذا ؟ »

قال « هل اتجاسر برأي أبديه ؟ »

قال « قل بارك الله فيك ••• ما أسرع ما اطلعت على الخفايا »

قال وهو لا يضحك « قد رأيت يا مولاي أمراً هالني وخفت عاقبته على رجالك »

قال « وما هو »

قال « وصلنا بالعروس الى فسطاط الكرماني فاذا هو قد ركب لمحاربة نصر بن سيار صاحب مرو وابنه علي معه اعني العريس المبارك (وضحك) فانزلنا العروس في خبائها بين عبيدها وجواريها وخرجت لاستطلاع الاحوال فرأيت جند الكرماني كبيراً وكلهم من

رجال اليمن الاشداء وفيهم العدة والنجدة وربما زادوا على خمسة اضعاف رجالك ولما خرج رجال نصر لقتاله رأيتهم ايضاً كثاراً فخفت ان يغرك ذلك فتخرج برجالك للحرب وأنا لا اضمن لك الفوز لعلمي ان الجنـدين وان تباينت عصبيتهما بين اليمن ومضر فانهم جميعاً من العرب فاذا رأوا الخراسانيين يحاربونهم اتحدوا عليهم ..»

قال« صحيح ... ايه ... قل »

قال « فرأيت ان خير ما تفعله الآن ان تمكن البغضاء بين هذين الجيشين »

فاستغرب ابو مسلم قوله واعجب بسداد رايه لان هذا هو الرأي الذي كان قد عزم عليه وقال « ذلك هو الرأي الصواب يا رجل وهو الذي عزمت عليه ... ولكن ما هو الطريق الى القاء الفتنة الليلة حتى تتم لنا الحيلة في صباح الغد »

قال « أتستشيرني يامولاي ؟ »

قال « لا بأس من المشورة فانها آمن طاقة فاذا لم يعجبني رايك رجعت الى رايي »

فأخذ الضحاك يحك جانب رأسه باحدى يديه ويده الاخرى على عمامته يسندها لئلا تقع ثم ضحك وقال « اكرم بك يا ضحاك .. ان الامير يستشيرك ..» ثم عاد الى هيأة الجد وقال « الرأي ياسيدي ان تكتب كتاباً تجعل عنوانه الى شيبان الحروري صاحب الجند الآخر المعسكر وراء الكرماني . وتقول في عرض خطابك الى شيبان المذكور ما معناه « ان قبائل اليمن لاوفاء لهم ولا خير فيهم فلا تيقن بهم ولا تظهر اليهم فاني ارجو ان يمكنك الله منهم واذا بقيتُ لا ادع لاهل اليمن شعرًا ولا ظفرًا » او نحو ذلك مما يدلّ على انك تكره اليمنية ولا ترجو خيرًا منهم وترسل هذا الكتاب مع رسول تأمره ان يجعل طريقه الى معسكر شيبان من جهة معسكر المضرية اصحاب نصر بن سيار . فهم طبعًا سيستغشونه ويقبضون عليه ويأخذون الكتاب منه فيفتحونه ويطلعون عليه فيقوم في نفوسهم انك معهم قلبًا وقالبًا فيميلون معك وتقوى نفوسهم على اليمنية . واكتب كتاباً آخر الى شيبان ايضاً على نفس هذه الطريقة ولكنك تطعن فيه بالمضرية وتقول عنهم مثل الذي قلته عن اليمنية بذلك الكتاب . وترسل هذا الكتاب مع رسول يجعل طريقه من جهة معسكر الكرماني وهم يمنية فسيستغشون الرسول ويطلعون على الكتاب فيرون انك معهم على المضرية وتقوى نفوسهم بك [1] فاذا اشتبك القتال في الغد واردتَ النزول كان الفريقان معك ...» وضحك

(١) ابن الاثير ج ٥

ضحكة طويلة فلم يتمالك ابو مسلم عن مجاراته في الضحك ولو قليلاً وقد انبسطت نفسه بذلك الدهاء وقال ان لك لشأناً يا رجل وما انت ضحاك كما تظهر نفسك .. اني فاعل كما اشرت الساعة » ثم نهض ليأمر الكاتب بذلك فتعلق الضحاك بذيله وقال « وانا ما ذا اعمل ؟. »

قال « تاخذ هديةً جزاء صدق خدمتك »

قال « هدية ! اني لا التمس على خدمتي اجراً . ومع ذلك فاني لم افعل شيئاً استحق عليه اجرة ولعلي استطيع ذلك بعد الآن فانا منصرف الساعة الى مولاتي الدهقانة وسابلغها سلامك وامتنانك ليس لانك تحبها ولكن لان ذلك يسرها وينفس كربها من رؤية عريسها الاعور .. »

قال « ومن تعني ؟ »

قال « اعني علياً ابن الكرماني فانه نصف اعمى فضلاً عن غرابة شكله وهو مع ذلك زوجها بعقد مكتوب ومهر مدفوع وسترى كم ينفعنا هذا العقد .... انا منصرف الآن بامرك وسآتيك بالاخبار عند الحاجة »

ثم وقف فقبل يد ابي مسلم وخرج مهرولاً

الفصل الثامن والعشرون

الحرب

اما ابو مسلم فصفق فجاءه خالد وسليمان وامر بالكاتب فجاء فاخبرهم عما عزم عليه من المخابرة على الكيفية التي تقدم بيانها واملى على الكاتب فكتب كتابين الى شيبان الخارجي وسلمهما الى رسولين من اصحاب الخبر البارعين بالجاسوسية وامر احدهما ان يمر بعسكر نصر ابن سيار والآخر بمعسكر الكرماني ومتى قرئ الكتابان يرجعان بهما اليه ولا يوصلاهما الى شيبان فسار الرسولان وفعلا كما أمرا

فلما اطلع الكرماني على احد الكتابين وفيه ما فيه من نقمة ابي مسلم على قبائل مضر توهم ان ابا مسلم معه على المضرية . ولما اطلع نصر بن سيار على الكتاب الآخر توهم ان ابا مسلم معه على اليمنية فقويت نفس كل منهما على قتال صاحبه . وكان ابو مسلم في اثناء اقامته هناك

قد كتب الى الكور باظهار الامر فسوّد (لبس السواد) جماعة كبيرة في نسا وابيورد ومرو الروذ وكثير من قرى مرو واقبلوا اليه تباعاً

وفي صباح الغد عاد الجيشان الى الحرب بقلوب قوية وهواهما مع ابي مسلم · ولاتمام الحيلة كتب ابو مسلم الى كل من نصر بن سيار والكرماني كتاباً خصوصيًّا يقول فيه « ان الامام ابراهيم (صاحب الدعوة) قد اوصاني بك و برجالك خيرًا ولست اعدو رايه فيكم » فتزايد الفريقان رغبة فيه ورهبة منه وزادت نقمة كل منهما على صاحبه فلما احتدم القتال ركب ابو مسلم بمن معه من النقباء والاتباع واقبل على المتحاربين فلم يتعرض لهم احد بسوء فنزل بمن معه بين خندق الكرماني وخندق نصر وهابه الفريقان · ورأى بدهائه ان يجرئ الكرماني حتى يعرضه للخطر فبعث اليه « اني معك » فقبل الكرماني ذلك بسرور فانضم ابو مسلم اليه فعلاً فاشتد الكرماني به

فلما رأى نصر ذلك ادرك حيلة ابي مسلم فبعث الى الكرماني يقول له « ويحك لا تغتر فوالله اني لخائف عليك وعلى اصحابك منه فادخل مرو ونكتب كتاباً بيننا بالصلح » وكان غرض نصر ايضاً ان يفرق بين الكرماني وابي مسلم

فلما سمع الكرماني كلامه رجع الى صوابه وخاف ان يكون نصر مصيبًا فدخل الكرماني فسطاطه وظل ابو مسلم في العسكر

ثم خرج الكرماني حتى وقف في الرحبة بين المعسكرين في مائة فارس وعليه قرطق وهو قباء ذو طاق واحد وارسل الى نصر يقول « اخرج لنكتب بيننا ذلك الكتاب »

فلما رآه ابو مسلم يقول ذلك خاف حبوط مسعاه · وكان ابو مسلم واقفًا على جواده وعليه درع كاملة تغطي جسمه وبعض الجواد لا يبالي بتساقط النبال عليه فانها ترتد عنه خائبة · و بينما هو في تلك الحيرة ابصر رجلاً ملثماً طويل القامة يسرع سرعة الجواد الجموح نحو معسكر نصر وهو يتقي السهام بكفيه فعرف من حركته وقيافته انه الضحاك وما لبث ان رآه حتى تغلغل في ذلك المعسكر · ثم رأى كوكبة من الفرسان خرجت من معسكر نصر وفي مقدمتها فارس يصيح باعلى صوته « انا الرجل الموتور انا ابن الحرث بن سريج جئتك يا كرماني يا ابن الفاعلة انت قتلت ابي وانا اقتلك به » قال ذلك وانقض انقضاض الصاعقة والتقت الكوكبتان واشتبكتا واشتد ازر المضرية ثم رأوا فارساً خرج من مرو يحرض المضرية و يسوق فرسه امامهم وقد جلله الشيب ولكن الشيخوخة لم تغير شيئًا من نشاطه وحميته · ولما ساق جواده لعبت الريح بلحيته وهي بيضاء عريضة ملء صدره وصاح في رجاله يستحثهم فعلم

ابو مسلم انه نصر بن سيار فقال في نفسه لو ظهر في بني امية مثل هذا الرجل قبل تمكن الاختلال فيهم لما تعجل سقوطهم ولكنه لن يستطيع امراً . وهجم مع نصر كوكبة من الفرسان فتغلبوا على الكرماني فاصابوه بطعنة تخرّ عن دابته فاتموا قتله وامر نصر بحمل الجثة وصلبها فصلبوه ومعه سمكة

فلما رأى ابو مسلم قتل الكرماني تظاهر بالاسف وتوقع فشل اليمنية واذا بعلي بن الكرماني قد هجم يطالب بثار ابيه فهجم ابو مسلم معه ونادى رجاله فهجموا جميعاً على نصر ورجاله فارجعوهم عن مواقفهم ثم تراجع الجيشان

رجع ابو مسلم من المعركة وقد سره مقتل الكرماني واخذ في اثناء رجوعه يعمل فكرته في تدبير الحيلة لمقتل ابنه علي ولكنه رأى ان يستعين به على نصر اولاً ثم يقتله ويقتل شيبان الخارجي فوصل معسكره واجتمع اليه النقباء فنظر اليهم وهو يقول « الم يكن رأينا صواباً .. قتلنا الكرماني ولم نسفك محجماً من دماء رجالنا — والرأي فوق شجاعة الشجعان ... »

فاعجبوا بدهائه وغلب عليهم بفوزه في سياسته فازدادوا تفانياً في طاعته وقالوا « مر بما تشاء فانك صاحب الراي النافذ والقول الفصل » واشتغلوا في مهامهم

الفصل التاسع والعشرون

العروس في بيت حميها

اما جلنار فقد تركناها في القبة على الفيل ذاهبة الى معسكر الكرماني . وقبل وصولها جاءها وفد من رجال الكرماني استقبلوها وانزلوها في خباء خاص نصبوه في مؤخر المعسكر وانزلوا فيه احمال الآنية والفرش وادخلوا جلنار غرفة من غرفه ليس فيه من النساء سواها ومعها بعض الجواري وريحانة وقد زادت تعلقاً بها في هذه الغربة واصبحت لا تصبر على فراقها لحظة . وكانت ريحانة اكثر تعلقاً بها للسبب عينه واحست انها مسئولة عنها وحدها وقد علمت بما يهددها من الاخطار الجسام وطنت النفس على بذل كل ما في وسعها في سبيل راحتها وسلامتها

فلما وصلت جلنار الخباء سبقتها الجواري الى تهيئة ما يلزم من اسباب الراحة واشتغل الضحاك في انزال الاحمال ومعه العبيد والخدم . ثم جاءت ريحانة الى جلنار فادخلتها غرفتها واخذت

تنزع ما عليها من ثياب السفر وتلبسها ثوب البيت وهي صامتة لا تتكلم ثم لاحت منها التفاتة الى جلنار فرأت عينيها تدمع فانقبضت نفسها وابتدرتها قائلة « ما الذي يبكيك يا مولاتي » ولم تكد تلفظ هذه العبارة حتى اختنق صوتها وغصت بريقها فاكتفت جلنار بما شاهدته من ريحانة ولم تجبها . فتشاغلت ريحانة بضفر شعر سيدتها وتجلدت واعادت السؤال وهي تحاذر ان يختنق صوتها وقالت « ما بالك يا مولاتي لا تجيبين على سؤالي ؟ »

فالتفتت جلنار الى ريحانة والدمع يتلألأ في عينيها وقالت بالفارسية « اتسالينني عن السبب وانت اعلم به مني ؟ اين نحن الآن ؟ كيف خرجتُ من دار ابي وقد كنتُ فيها بحصن حصين وجئت الى دار الحرب والنبال تتساقط على فسطاطي .. ثم اني لا اعرف الى من انا صائرة »

فاحبّت ريحانة ان تلطف حالها فقالت وهي تتظاهر بالابتسام « انت صائرة الى الامير علي بن الكرماني وكل هذا المعسكر رهن اشارتك .. »

قالت « واين هو علي هذا .. ؟ اني لم أره ولو رأيتهُ ما عرفتهُ ... سامحك الله يا ابتاه لقد فرطت فيَّ ... بل اللوم عليَّ .. كيف اسلم نفسي لرجل لا اعرفهُ ولم أره ... وقد وصلتُ منزلهُ ولم اجدهُ ... »

فقالت ريحانة « خففي عنك يا مولاتي انه لا يلبث ان يأتي فقد اتفق وصولنا ساعة خروج الامير الكرماني لملاقاة جند مرو في حرب وطبعاً ان علياً ابنه معه وسترينه عائداً وقد تلطخ صدر جواده بدم الاعداء وفي وجهه عز النصر . وهو عزٌّ لك .. ان في ذلك لذة لم تتعوديها فاذا ذقتها مرة لذّت لك .. ان لذة النصر عظيمة يا مولاتي »

فذعرت جلنار عند سماعها اسم الحرب وقالت بالفارسية ايضاً « هو وفي حربٍ ؟ . الم تقولوا لي انه صاحب مرو وله الامر والنهي وبيده الحل والعقد ... »

قالت « قد كان كذلك على ما علمنا فالظاهر انه خرج منها ولكنه لا يلبث ان يفتحها كما فتحها قبلاً »

فصاحت وقد نسيت موقفها « لا يهمني فتحها ام لم يفتحها .. اني لا اريده اخرجوني من هذا المكان .. يا ريحانة اخرجيني الى حيث شئت .. »

فضحكت ريحانة في وجهها تخفيفاً لغيظها واظهرت الاستخفاف بخوفها وكانت قد فرغت من تمشيطها وتبديل ثيابها والبستها في ذلك اليوم ثوباً عنابي اللون تمنطقت عليه بمنطقة مرصعة ولفت كتفيها بطرف من الخز الموشي مبطن بالفرو الثمين وقد احمرّ وجهها من

اثر السفر وتورَّدت وجنتاها وتكسرت عيناها من البكاء وغشيهما ذبول الاهتمام وتجلى في جبينها وبين عينيها هيبة الانقباض واحدق بمبسمها معنى يعبِّرعنه بالخوف او الحذر . واسترسل شعرها ضفيرة واحدة على ظهرها وقد تلالأ القرطان في اذنيها وكل منهما جوهرة واحدة تضيء في الظلام . غير ما في عنقها من العقود الثمينة وغير ما يحيط بمعصميها من الدمالج والاساور . فاصبحت ملاكاً بصورة انسان وكانت ريحانة لاترتوي من النظر اليها . فلما فرغت من الباسها دعتها الى الجلوس فجلست وهي تقول « واين الضحاك يا ترى ؟ »

قالت « لا يلبث ان ياتينا فقد تركته يهتم بالاحمال ونحوها » وصفقت فدخل خادم كان في جملة الخدم خارجاً فقالت له « اين الضحاك »

قال « كان حول الخباء ثم ذهب لا ادري الى اين »

فاجفلت جلنار من قوله ونظرت الى ريحانة كأنها تستطلع رايها بشانه فقالت ريحانة « هلم بنا نطلُّ من باب الخباء لنتفرج بمنظر هذا المعسكر لعلنا نرى الضحاك »

فنهضت ومشت على اثر ريحانة حتى اطلتا من باب الخباء واذا بسهم سقط بين يديهما عند الباب فذعرت جلنار وتراجعت ولم تذعر ريحانة لانها كثيرًا ما شهدت مثل هذه المعارك فضلاً عن اضطرارها للتظاهر بالجلد تشجيعاً لمولاتها فقالت وهي تضحك « ما الذي اجفلك يا مولاتي .. »

قالت وهي ترتعد خوفاً « يظهر انهم يحاربون على مقربة منا .. بالله ماهذا ؟ .. ما الذي جاء بي الى هذا المكان ؟ كيف رضيت بالمجيء ... آه يا ابا مسلم ... » وكانها نطقت باسمه سهوًا فخجلت وتشاغلت بمسح دموعها بمنديل كان في منطقتها

وكانت ريحانة أعلم منها بعظم المصيبة ولكنها لم يسعها الاَّ التخفيف عنها وشعرت انها أساءت اليها اذ لم تمنعها من المجيء فقالت « الحرب بعيدة عنا ... اخرجي وانظري الى المعركة فانها وراء هذا المعسكر بينه وبين المدينة . واما هذا السهم فقد أفلت وأبعد صدفة .. أخرجي » قالت ذلك وامسكتها بيدها وأخرجتها من الخباء رغم ارادتها فاطلت على المعركة عن بعد فرأت الفرسان تتجاول والنبال تتطاير والسيوف تبرق في أيدي الفرسان وبعضهم يحمل الاتراس وبعضهم يشرعون الرماح واكثر القتال بين الفرسان . ولذلك قلما كانوا يترامون بالنبال لان النبالة أكثرهم من المشاة . فلم تستطع جلنار الصبر على ذلك المنظر فدخلت ودخلت ريحانة في أثرها وكلاهما صامتتان وقد شغل خاطرهما لانهما لم يشاهدا الضحاك . حتى اذا دنا المغيب وهي الساعة التي تنقبض فيها النفوس

بلا سبب تزايد انقباض جلنار وتصورت قرب مجيء زوجها الذي لم تره عينها ولا أحبهُ قلبها ولا ترجو ان تحبه لاشتغاله بسواه . فامسكت ريحانة بيدها فاحست هذه بارتعاشها فقالت « ما بالك ترتعدين يا مولاتي ؟ »

قالت « اني ارتعد لقرب الساعة التي سالقى بها ابن الكرماني او كما تسمونه .. بالله كيف أقابله ؟ .. احقيقة هو بعلي ؟ كلاَّ ... الموت أحب اليَّ من قربه .. » ثم قبضت على يد ريحانة بيديها جميعاً وصاحت « لا اعرف نجاتي الا منك »

قالت « لا بأس عليك يا سيدتي .. انا ادبر كل شيءٍ ومن يوم الى يوم فرج .. وانما اتقدم اليك ان تتجلدي بين يديه ولا تظهري نفورك منه .. وقد يكون لا بأس منه ... كيف تبغضينه قبل ان تريه ؟ .. »

فنظرت اليها جلنار بطرف عينها ولسان حالها يقول « الا تعلمين ما يكنه فؤادي من حب أبي مسلم ؟ »

فادركت ريحانة مرادها وتبسمت وهي تقول « كوني على يقين انك ستنالين بغيتك ولكن بالصبر والحزم »

الفصل الثلاثون

العريس

ثم سمعتا صهيل الخيل وضوضاء الناس فاجفلتا معاً ولكن ريحانة تصبرت وقالت « يظهر ان الفرسان قد رجعوا من المعركة » ثم خرجت حتى أطلت من باب الخباء وعادت وهي تقول « هذا الامير قد أتى على فرسه وهو مخضب بالدماء كما قلت لك وسيأتي اليك فلا تجزعي »

فقالت « والضحاك لم يأت بعد .. أين هو » قد تركنا في ساعة الحاجة اليه »

قالت « لا تلومي الغائب حتى يحضر ... »

ثم جاء بعض الخدم من رجال الكرماني يحملون الشموع مغروسة في أعواد نصبوها في جوانب الخباء فاضاء المكان وجلنار لا تستطيع الوقوف من شدة التأثر فجلست وقد اصطكت ركبتاها واذاهي بالضوضاء تقترب من الخباء . ثم سمعت رجلاً يتكلم قرب الباب

بصوت عال يقول « أين خباء عروسنا الدهقانة .. ؟ »

فلما سمعت جلنار صوته تحققت انه عريسها فارتعدت فرائصها وازداد اضطرابها فتشاغلت بمطرفها تلف به منكبيها ويداها ترتعشان وقد بردتا . فخرجت ريحانة لاستقباله بالباب وقالت « أهلاً بالامير الجليل ان مولاي الدهقان يوصيك بابنته خيراً ويقول لك انه قد عهد اليك بفلذة كبده فكن بها رفيقاً »

فقال « لقد أوصى حريصاً ان الدهقانة تنزل عندنا في أرفع منزلة وأعز مكان » ومشى نحو الغرفة وهو يقول « وأين هي ؟ »

فقالت « هي جالسة في حجرتها وقد انهكها التعب على أثر السفر في اثناء النهار »

فادرك مرادها وقال « اني انما اطلب راحتها ولكنني احببت لقاءها والترحيب بها » ودخل وقد تنسم رائحة الطيب

وكانت جلنار جالسة وقد سمعت قوله فسكن روعها وأطرقت وهي تراعي دخوله بجوارحها . فلما دخل حجرتها وأقبل عليها ورأى جمالها أخذت بمجامع قلبهِ ولكنه هابها وقال « مرحباً بعروسنا لقد اتيت أهلاً ونزلت سهلاً . وارجو ان يكون مقامك عندنا امنع من مقامك في بيت ابيك »

فرفعت جلنار بصرها اليه لترى وجهه والحياء يغالبها فرأت شاباً في نحو الثلاثين من عمره قصير القامة عريض المنكبين وقد توشح بعباءة من الحرير وتقلد السيف وغرس الخنجر في منطقته وعلى راسه عمامة حمراء وكان مستدير الوجه واللحية دقيق الشاربين وقد ذهبت احدى عينيهِ . فلما دنا منها قعد على البساط امامها ووضع السيف معارضاً على حجره وقال « لا بأس عليك يا جلنار ارجو ان يذهب عنك تعب السفر الليلة وان يكون قدومك فأل خير على هذا المعسكر . فقد وصلتِ والحرب قائمة بيننا وبين صاحب مرو وعدنا من هذه المعركة ظافرين بحول الله فعسى ان يأتينا الفتح على يديك وببركة قدومك ... »

وكانت جلنار مطرقة حياء وتلعثماً لا تدري بما ذا تجيب وفتح على ريحانة برأي توسمت من ورائه فرجاً فأجابت عنها قائلة « ذلك ما نرجوه ايها الامير البطل فقد قدمنا ونحن نتوقع ان يكون مقامنا في مدينة مرو فعسى ان لا يكون مقرنا في هذا المعسكر الا قليلاً .. »

فتحمس علي وقال « لو تقدم مجيئكم يسيراً لنزلتم تواً في مرو وقد كانت في قبضتنا

نخرجت من ايدينا منذ ايام لكنها ستعود الينا باذن الله •• »

فادركت جلنار غرض ريحانة من ذلك التعريض فقالت والحياء يغالب منطقها « فكان قدومنا اذاً شؤماً عليكم •• فكيف تتوقعون ان يكون بركة ولو كان كذلك لما كان نزولنا في غير دار الامارة في مرو •• »

قال « عفواً ايتها الدهقانة •• ان قدومك بركة وفألٌ حسن •• وانا على يقين من ذلك •• وسترين صدق قولي »

قالت « انت صادقٌ ولكننا علمنا شؤم قدومنا من النبال التي رأيناها تتساقط حولنا منذ أنيخت المطايا بنا في هذا الخباء •• »

فازداد عليٌّ حماساً واريحية وهان عليه كل صعب في سبيل رضاها وقال « انك ستبيتين غداً في دار الامارة باذن الله » قال ذلك ارضاء لخاطرها ولم يدر انه قيد نفسه بوعد دون الوصول اليه خرط القتاد • فلم تغفل ريحانة عن اغتنام تلك الهفوة فنظرت الى مولاتها وهي تظهر الاعجاب باريحية علي وقالت « ان الامير يا مولاتي قد قال وقوله عهدٌ انك لا تبيتين غداً الا في دار الامارة •• »

فقال علي وقد اخذ الهيام منه مأخذاً عظيما واستسهل الصعب « نعم لا تبيتين غداً الاَّ في دار الامارة » ثم ادرك تسرعهُ فاراد ان يوسع على نفسه فقال « واعاهدك على الاقل اني لا اتمتع بهذا الوجه الجميل الا في تلك الدار »

فاطرقت جلنار حياءً وتشاغلت بتثنية هداب المطرف وسكتت • فاجابت ريحانة عنها قائلة « بورك فيك من شهم حرّ والحرُّ اذا عاهد وفى »

فنهض وقد ثارت النحوة في راسه وقال « استودعك الله وسترين بلائي غداً • فاذهبي الآن الى فراشك واستريحي » ثم خرج وهو يجرُّ سيفهُ وراءهُ

فلما توارى نظرت ريحانة الى سيدتها وهي تبتسم وقالت لها بالفارسية « ما قولك بهذا العهد ؟ »

قالت « لا بأس منه ولكني اخاف ان يتمكن من دخول مرو غداً •• »

قالت « لا اظنه يستطيع ذلك •• واذا استطاعه كان جديراً بك اذ لا يكون لابي مسلم حينئذٍ شأن »

فقطعت كلامها وقالت « لا تقولي ذلك ان ابا مسلم وهو مكبلٌ بالاغلال احبُّ اليَّ من سواه ولو كان على عرش كسرى ••• »

فتأثرت ريحانة من تعلقها بابي مسلم الى هذا الحد وقالت « دعي ذلك الى تدبير العزيز الحكيم •• وغداً لناظره قريب • ولكن غياب الضحاك قد شغل خاطري وهو انما جاء معنا ليكون في خدمتك •• قومي الآن الى المطعم ثم ننظر ما يكون »

الفصل الحادي والثلاثون

الضحاك

فنهضتا الى حجرة الطعام في ذلك الخباء والجواري قد اعددن الخوان فجلستا للاكل واذا ببعض الخدم قد دخل مهرولاً وهو يقول « ان الضحاك بالباب »

فانبسطت نفس جلنار وعافت الطعام لرغبتها في مقابلة الضحاك ولم تكن ريحانة اقل منها رغبة في ذلك لكي تطلعه على ما توفقتا اليه تلك الليلة فقالت للخادم « ادخلهُ الى الحجرة الوسطى واحمل اليه الطعام وقل له ان الدهقانة قادمة اليه عاجلاً »

واسرعتا في الاكل ثم نهضتا الى تلك الحجرة فوجدتا الضحاك قد فرغ من طعامه وقعد في انتظارها فوقف لها فلما شاهدته جلنار انشرح صدرها واحست بحملٍ ثقيل تحول عنها ولم تتمالك ان صاحت فيه « اين كنت يا رجل •• »

فتأدب في موقفه ويداه في منطقته وعمامته مائلة على راسه وقد نبش شعر لحيته وشاربيه حتى تغيرت سحنته فلم تتمالك جلنار عن الضحك فأجابها بضحكة طويلة فأشارت اليه ان يقعد وقعدت واقعدت ريحانة بجانبها فقعد الضحاك جثواً على ركبتيه وقال « لقد اذنبتُ بخروجي بلا استئذان ولكن العفو اقرب للتقوى »

فقالت ريحانة « كيف تتركنا وحدنا وقد اوصاك الدهقان برعاية مولاتنا وان لا تفارقها ؟ »

قال « نعم اخطأت بمخالفتي وصية مولاي الدهقان ولكنني اصبت بمجاراة مولاتي الدهقانة » قال ذلك واطرق اطراق الحياء وتكتف

فقالت « دعنا من مجونك وقل اين كنت »

قال « اذا كنتِ لم تفهمي كلامي فمولاتي الدهقانة قد فهمته » ونظر الى جلنار وقال « ايه ؟ •• »

فقالت جلنار « العلك ذهبت الى ابي مسلم ؟ »
فقهقه ثم قطع ضحكته بغتة وقال لريحانة « ارأيت الفرق بين من يفهم ومن لا يفهم ؟ .. نعم يا مولاتي قد ذهبت اليه »
فتطاولت جلنار بعنقها نحوه وقالت « وماذا فعلت ؟ »
قال « غداً تعلمين ماذا فعلت »
فقالت ريحانة « قل الآن .. فنقول لك ماذا فعلنا نحن »
قال « انا اقول لك ماذا فعلتِ يا ذكية .. قد عاهدتِ صاحبنا ان لا يتزوج الا في دار الامارة »
فبغتت جلنـــار لاطلاعه على ذلك والتفتت الى ريحانة لتشاركها في الاستغراب فالتفت الضحاك الى ريحانة وقال وهل من الغريب ان اعرف شيئاً انا فعلته »
فقالت ريحانة « وكيف ذلك ؟ ونحن انما جررناه الى هذا الوعد خطوة خطوة »
قال « انا وضعت الاساس وقد فكرت في هذا الامر قبل خروجنا من بيت سيدي الدهقان فلما وصلنـــا كان قصاري همي ان الاقي العريس . فتركتكم وذهبت الى جانب المعركة حتى اذا عاد الامير علي منها بشرته بمجيء العروس ثم القيت اليه كلاماً اعددت به ذهنه لذلك العهد .. »
فاستغربتا تيقظه ونباهته وقالت ريحانة « ثم الى اين ذهبت »
قال « ذهبت الى العريس الآخر » ورفع بصره الى سقف الخباء وتظاهر انه يتفرس بما فيه من الرسوم والاشكال الملونة ولم يضحك . ثم ارسل بصره الى جدران الحجرة فابتدرته ريحانة قائلة « وما الذي فعلته هناك »
قال « غداً تعرفينه »
فقال « عزمت عليك وكرامة مولاتنا ان تفصح وتترك المجون »
فتظاهر بالجد ووجه خطابه الى جلنار وقال « بحثت مع ابي مسلم في الطريق المؤدي الى بقائه وحده في هذا الميدان »
فقالت جلنار « وكيف ذلك ؟ قل »
فقص عليهما ما دار بينه وبين أبي مسلم مختصراً الى ان قال « والحق يقال ان هذا الخراساني نبيه عاقل .. وخصوصاً لانه شهد لي بالنباهة » وضحك
فقالت ريحانة « ان نباهتك معلومة عندنا »

قال « اراك تطنبين بخطابي كأنك تطمعين بي وقد قلت لك اني نذرت العفة وليس لي ارب بالزواج »

فقطعت جلنار كلامه وقالت « اكفف عن ريحانة لاتعبث بها »

قال وهو يحك ذقنه « كانك تظنينها تكره ذلك ... ولكني عملاً بامرك قد عفوت عنها وخصوصاً لاني اراها تحبك .. »

فضحكت جلنار وقد انبسطت نفسها وخفّ ما بها فلما رأت ريحانة انبساط سيدتها شاركتها فيه وشعرت بمقدار فضل الضحاك في كل ذلك وقالت في نفسها « لا بد لهذا الرجل المهزار من شان وان امره لعجيب »

ثم التفتت ريحانة الى سيدتها وقالت « الا تذهبين الى الفراش يا مولاتي »

قالت « نذهب » ووقفت

فوقف الضحاك وقال « وانا ذاهب وربما لا انام الليلة فاذا طلبتماني فيساعة ولم تجداني فلا تحسباني فررت »

قالت جلنار « افعل ما بدالك اننا لاننسى لك جميلاً تبذله في سبيل راحتنا واذا توفقنا الى ما نريد كان لك ما ترضاه ... انصرف اذا شئت »

فخرج الى المبيت في فسطاط الاعوان والحاشية وكان الكرماني وابنه قد استانسا به مذ لاقاهما في غروب ذلك اليوم وآنسا فيه خفة الروح وسهولة الخلق وخصوصاً علي بن الكرماني فانه ارتاح الى رؤيته واطمأنت نفسه اليه

ولم ينم تلك الليلة حتى علم ان رسول ابي مسلم مرّ بذلك المعسكر وقبضوا عليه ورأى الكرماني في فسطاطه يتلو كتاب ابي مسلم ومعه ابناه علي وعثمان وكانا لا يفارقان مجلسه وهما عمدته في حروبه وكان عثمان اصغر من علي . فلما تحقق الضحاك نجاح تدبيره ذهب الى منامه مع الخدم والاعوان ولم يخاطبه احد منهم الا استخف روحه واستلطفه

فلما التحم الجيشان في صباح الغد وقف الضحاك يرصد حركاتها فلما رأى الكرماني قد قبل بمصالحة نصر بن سيار اسرع الى معسكر نصر ملثماً واستحث ابن الحارث ان يثأر لابيه فجاء وقتل الكرماني كما تقدم

الفصل الثاني والثلاثون

ابو مسلم في خلوته

تركنا ابا مسلم في معسكره فرحاً بما اوتيه من نجاح حيلته بالكرماني · فلما تفرق عنه النقباء الى خيامهم بعد العشاء ظل هو في غرفته وحده يعمل فكرته في اتمام مشروعه للتفريق بين تلك الجنود المحيطة بمرو · وكان اذا خلا بنفسه ربض كالاسد واخذ في تدبير الامور بدهاء يندر مثاله في الناس · فاذا ملّ الجلوس وقف وتمشى ذهاباً واياباً كانهُ نمر كاسرٌ حُبس في قفص من حديد وقد جاع وفريسته على مقربة منه وهو يتحفز للوثوب عليها · ولو نظرت الى ابي مسلم في تلك الساعة لرأيته عبوساً يكاد يزمجر غضباً ويخيل لك انه لو اراد الابتسام لعصتهُ غضون وجهه · ولو امكنك الاطلاع على ما في ضميره تلك الليلة لرأيته يخوض بافكاره في بحور من الدم فيقضي على هذا بالقتل وذاك بالاسر لا يبالي اذا حال احد دون غرضه ان يقتله ولو كان اخاه او اباه · وكان وهو يتنقل في تدابيره يرى شبح الضحاك نصب عينيه ويتوقع ان يراه قادماً اليه بحيلة يظنها الضحاك فتحاً جديداً وهي عند ابي مسلم قديمة · وابو مسلم يظهر اعجابه بفطنته تشجيعاً له على خدمة اخرى · والضحاك يتوهم انه يخفي حقيقة مساعيه عن ابي مسلم وما علم ان هذا الخراساني يقرأ كل ما يجول في خاطره ويدرك ما سياتي به اليه او يشير به عليه وانهُ انما يظهر له استحسانه واعجابه دهاء ومكراً ولا يسايره الا على دخل وقد اضمر سوء الظن به · لان الناس اعداء بعضهم لبعض كل منهم يترصد من صاحبه غفلة يغتاله وخصوصاً في ذلك العصر وقد اختلفت العناصر وتباينت المقاصد وصدرت وصية الامام ابراهيم بالقتل على الشك

وكان ابو مسلم سارحاً في عالم الخيال وهو يتمشى و بيده قضيبٌ يلاعبه بين انامله اذ جاءه الحرسي ان بالباب رجلاً يطلب مواجهته فأدرك حالاً انه الضحاك فاذن له فدخل وقد تنكر بقلنسوة من قلانس الفرس وفوقها عمامة صغيرة كانهُ من كهنة المجوس · فلما اقبل عليه رحب به وبش له تخفيفاً لرعبه ولكن الضحاك قرأ في احمرار عينيه وتغضن جبينه ما دلهُ على اهمية الامر الذي يفكر فيه فوقف متأدباً فخاطبه ابو مسلم قائلاً « اهلاً بصديقنا الضحاك »

فاعظم الضحاك هذا التنازل من ابي مسلم و بالغ بالتأدب في موقفه وقال « اني

لا استحق هذا الاكرام يا مولاي وانما انا عبدك وابتغي رضاك »

قال « ومتى كان العربي يستعبد للفارسي »

فوجم الضحاك لحظة ثم قال « ان المسلمين اخوة وانما يتفاضلون بالتقوى والجهاد . وقد ذهبت الدولة التي تحسب للعرب مزية على غير العرب وكانت عصبيتهم للعرب سبباً لذهاب سلطانهم . وكيف لا اكون عبداً لبطل خراسان صاحب دعوة الامام »

فاستضحك ابو مسلم وهو يقعد ثم اشار الى الضحاك فقعد جاثياً على ركبته وقد اطرق وسكت فابتدره ابو مسلم قائلاً « ما وراءك يا ضحاك »

قال « ما ورائي الا الخير . . وقد جئتك مهنئاً بما اوتيته من الفوز الباهر ومستأمراً لعلي انفذ لك امراً »

قال « انما نحن مديونون بهذا الفوز لتدبيرك وسعيك . . واذا تمَّ لنا النصر جعلناك في منصب يليق بامثالك »

قال « لا التمس الاَّ رضى مولاي الامير فمرني بما تشاء »

قال « قل ما الذي تراه الآن . . ؟ لقد اعجبني سداد رايك بالامس »

فأطرق الضحاك هنيهة كانه يعمل فكرته ثم قال « الا ترى بعد ان قتل الكرماني ان نتخلص من ابنه فيخلو لك الجو . . ؟ »

قال « وشيبان ؟ »

فضحك الضحاك وهو يقول « شيبان ؟ وما شان هذا الخارجي امامك . . فهو ليس ممن يحسب لهم حساب »

قال « كيف لا وهو صاحب جند وعصبية مثل الكرماني »

قال « اذا قتلت ابن الكرماني فعليَّ تدبير شيبان »

وكان ابومسلم في اثناء حديثه ينظر الى قلنسوة الضحاك وفي نفسه ان يعلم ما تحتها . وقد لحظ من وراء حافتها ان راس الضحاك حليق . فاوماً بالقضيب الى القلنسوة وقال « ومن اتاك بهذه القلنسوة » واظهر انه غمزها بالقضيب سهواً فسقطت فبان راسه حليقاً . فوثب الضحاك وقد بغت وتظاهر بالمجون و بادر الى القلنسوة فاعادها الى راسه حالاً وهو يضحك و يقول « قد انتظمتُ في سلك المجوسية من عهد قريب »

فتجاهل ابو مسلم عما استطلعهُ من حلق راسه وتضاحك وقال « ان الكهانة خليقة بالفرس وليس بالعرب »

فاصلح الضحاك قلنسوته وقد امتقع لونه من تلك البغتة ولكنه صدق ان ابا مسلم انما فعل ذلك سهوًا فقال « ان الرجل يغير زيَّه في سبيل غرضه ولو لم البسها ما استطعت الوصول الى خيمتك »

فتظاهر ابو مسلم بتصديقه وقال « انك لتعجبني بجدك وهزلك فلنعد الى الجد ... قل لي اذا اردنا التخلص من ابن الكرماني فما الحيلة »

قال « ان قتل هذا الرجل هينٌ صعبٌ »

قال « وما معنى ذلك ؟ »

قال « اذا اطعتني في ما اشير به فقتله وقتل كل من في معسكره اهون من قطع الخيط »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « الا تذكر يامولاي جلستنا في منزل دهقان مرو اذ قلت لك ان اظهارك الرضا لهذه الفتاة المفتونة سيكون عونًا لك في تنفيذ مآربك .. »

فادرك ابو مسلم غرضهُ ولكنه تجاهل وقال « نعم اذكر ذلك ولكنني لم افهم مرادك به »

قال « مرادي انه يكون لك بها نصيرٌ في خيمة ابن الكرماني وعلى فراشه »

قال « أتظنها تساعدنا على قتله ؟ »

قال « نعم يا سيدي انا اضمن ذلك على شرط »

قال « وما هو ذلك الشرط »

قال « انه شرط هين عليك ... ترسل الى هذه الفتاة علامة توكد لها رضاك عنها وان قتل ابن الكرماني يرضيك وانا اتمم الباقي »

فقال « وما هي العلامة التي تعنيها »

قال « علامة تعلم هي انها منك »

فنظر الى الضحاك نظرة كشف بها اسرار قلبه كما يكشف اصحاب اشعة رنتجن ما وراء الجوامد وقال « لا اظنها تقنع منك بغير خاتمي »

فقال « تلك خير علامة نقضي بها الارب »

فاطرق ابو مسلم كانه يتردد في عزمه ثم قال « اتعلم اهمية هذا الامر ؟.. اتعلم اذا دفعت اليك خاتمي اني سلمت اليك امري ؟ »

قال « اعلم ذلك يا مولاي ولو علمتُ ان الامر يقضي بدونه لفعلته »

فاستخرج ابو مسلم الخاتم من اصبعه ودفعه اليه وهو يقول « هذا هو خذه وامض مسرعاً وعد اليَّ به الليلة فاني لا ابيت بدونه »

فوقف الضحاك اجلالاً وتناول الخاتم وقبلهُ ووضعه على راسه وهو يقول « ربما لا استطيع ملاقاة الدهقانة الليلة فآتيك في الصباح ومعي الخاتم باذن الله »

قال « سر بحراسة المولى »

ثم استانف الكلام قائلاً « تربص هنا ربثما اعود اليك » قال ذلك وخرج من باب سري في تلك الغرفة وظل الضحاك واقفاً وقلبه يطفح سروراً لما توهمهُ من نجاح امرهِ واصاخ بسمعهِ لعلهُ يشعر بحركة أَو يسمع صوتاً يستدلُّ به على شيء فلم يسمع شيئاً . ثم عاد ابو مسلم وهو يقول « سر يا ضحاك واذا توفقت في خدمتنا كافأناك ... ولكن (وخفض صوته) متى استوثقت من موافقة الفتاة لك قل لها لا تعجل بالامر بل تنتظر منا اشارة اخرى .. فهمت ؟ »

قال « سمعاً وطاعة وخرج » واحتذى نعاله في الخارج ومضى

الفصل الثالث والثلاثون

الاستبطاء

اما ما كان من امر جلنار فانها اصبحت في ذلك اليوم وقد تهيأ الجيشان للنزال وهي تخاف ان ينتصر الكرماني فاذا انتصر تعرقلت مساعيها وخابت آمالها فوقفت مع ماشطتها بحيث ترى المعركة عن بعد فرأَت تضعضع جند الكرماني ثم رأَتهُ عاد الى معسكره ثم رجع وكاد ينتصر فخافت واخيراً علمت بما كان من قتله كما تقدم في وصف المعركة . ثم شاهدت تضعضع عسكره وهجوم ابنه علي واتحاده مع ابي مسلم فاستغربت ذلك ولم تقدر على تفسيره فعادت الى خبائها مع ريحانة وقد انقبضت نفسها وقالت لها بالفارسية « ما الذي اراه ياريحانة اليس ابو مسلم ينصر صاحبنا ؟ »

قالت « لا يغرك ما تشاهدينه انها حيلة من أبي مسلم ومتى جاء الضحاك يفسر لنا كل ذلك »

فدخلتا الخباء وهما صامتتان لاتدريان كيف تفسران ما شاهدتاه ولكنهما صبرتا نفسيهما ريثما يأتي الضحاك • فلما غربت الشمس ولم يأتِ انقبضت نفس جلنار ولم تستطع طعاماً ولا شراباً وريحانة تخفف عنها وتمنيها بالمواعيد• ثم سمعتا قرقعة اللجم وصهيل الافراس بباب الخباء فاجفلتا وعلمتا ان علياً قادم برجاله فمكثتا صامتتين واذا بباب الخباء انفتح ودخل عليٌّ وثيابه ملطخة بالدماء وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً • فخافت جلنار من منظره ولم تعلم بماذا تخاطبه في تلك الحال وقد قتل أبوه فرأت ان تتجاهل فلبثت صامتة• اما ريحانة فتجلدت واستقبلت علياً وقالت « احسن الله عزاء الامير ان من يقتل في ساحة الوغى ويخلف مثلك لم يمت لانك آخذٌ بثأره»

فاعجبه قولها فسري عنه والتفت الى جلنار وقال « لنا ببقاء عروسنا الدهقانة اكبر عزاء اما والدي فسوف نأخذ بثأره من أولئك الانذال وما هي الا ان تطلع الشمس ونعود الى القتال فلا تغرب الاّ ونحن في دار الامارة باذن الله » قال ذلك وهو يصلح خوذته على رأسه وأشار الى جلنار ان تجلس وهو يحاول الابتسام رغم ما جاش في صدره من الاسف على قتل والده • وكأنه تسلى عن ذلك برؤية جلنار لانه أحبها كثيراً والحبُّ خير معزٍّ للانسان وهو ايضاً اصل متاعبه • فلولا الحب لم تكبر النفوس ولا اتسعت المطامع — واذا كبرت نفس المرء فانما يؤثر البقاء من أجل محبوبه • ولو تدبرت أحوال الناس لرأيت الحبَّ محور معاملاتهم وسبب ملذاتهم ومتاعبهم• والانسان اذا تجرد من الحب رأى الحياة من العبث فتصغر نفسه وتحصر مطامعه في الطعام والشراب فيشارك الحيوان في الاقتصار على لوازم الحياة • فاذا ملأ جوفه أخلد الى الخمول ولا يتحرك حتى تنهضه لواعج الحب فيطلب العلى ويرى الحياة ثمينة فيتحمل المشاق في سبيل استبقائها • والحب ريحانة النفس ومهذبها ورافعها من حضيض الحيوانية الى سماء الملائكة • ولكنه لا تتمكن عراه الا اذا تآلفت القلوب وتوافقت لغاتها وتم التفاهم فيما بينها وقد تتفاهم في لحظة بلا لسان ولا بيان • فتنفتح للمحبين أبواب النعيم والشقاء معاً• واذا لم تتفاهم القلوب بلسانها عجزت الالسنة وخابت المساعي في سبيل تأليفها فلا لذة هناك ولا شقاء • وينفرد بالشقاء دون اللذة محبٌّ تقيد قلبه وظل قلب حبيبه مطلقاً • قلبه يتكلم وقلب حبيبه أصم مثل حال ابن الكرماني لو علم بنفور جلنار منه وتعلقها بسواه وانما أخر شقاءه جهله ما في ضميرها واعتقاده الحب المتبادل• ولو سمع مثل تلك التعزية من فمها لذهب حزنه ونسي مصيبته • على انه حمل سكوت جلنار عن خطابه محمل الحياء فعذرها واكتفى بما

سمعه من ريحانة

اما جلنار فلم يسعها عند سماع ما قاله علي عنها الا ان تجيبه قائلة « ان العزاء ببقاء مولاي الامير حفظه المولى وأعانه على الاخذ بالثار »

فلما سمع علي قولها انشرح صدره وقال « اني سأثأر لابي بما يسرك » ثم صفق فجاءت قيمة الخباء فامرها ان تحسن رعاية الدهقانة وتلبي طلبها بكل ما تحتاج اليه . ثم تحول وخرج للاهتمام بأمر العسكر والاستعداد للحرب في الغد

فلما خرج ظلت الدهقانة صامتة وقد تحرك خاطرها شفقة على ذلك الشاب لما تضمره له من الشر ثم خافت ان يميل قلبها اليه فاستحضرت صورة ابي مسلم الى ذهنها فهاجت عواطفها وذهب رسم علي من ذهنها خالاً . ولم تمالك عند انفرادها بريحانة ان قالت بالفارسية « اي متى يأتي الضحاك لنسأله عما شاهدناه في هذا النهار . »

قالت ريحانة « لا يلبث ان يأتي وقد اوصانا بالامس ان لا نستبطئه اذا غاب »

قالت « ان لهذا الرجل لشأناً .. فقد جاء ليكون في خدمتي وأراه يقضي اكثر وقته خارجاً »

فقالت ريحانة « اذا غاب يا مولاتي انما يغيب في خدمتك أيضاً هكذا فعل في الامس .. فلا تلومي الغائب حتى يحضر »

فقطعت جلنار كلامها قائلة « اني والحق يقال لم أر مثل اخلاص هذا العربي في خدمتنا والغريب انه عربي ولم يستنكف ان يكون من موالينا . »

قالت ريحانة « ان العرب ليسوا الآن كما كانوا من قبل فقد انحلت عصبيتهم وانقسموا فيما بينهم ودالت دولتهم .. الا تذهبين الى المائدة ؟ »

فنهضت جلنار ومشت وهي تقول « نذهب الى المائدة نتلاهي بالطعام ريثما يعود ذلك المهزار .. »

فمشت ريحانة في أثرها وهي تتمم قائلة « لا أظنه مهزاراً ... »

تناولتا الطعام وقضتا برهة تتشاغلان بالاحاديث وكلما سمعتا وقع اقدام تظنان الضحاك قادماً حتى طال انتظارهما وغلب عليهما النعاس فذهبت جلنار الى الفراش وتوسدت وظلت ريحانة جالسة بين يديها والنعاس يغالبها والقلق ينبهها . فانقضى هزيع من الليل ونام اهل المعسكر وساد السكوت وسكت القصاصون والقراء ولم يأت الضحاك . ثم غلب النعاس على جلنار فنامت وظلت ريحانة جالسة وعيناها مغمضتان من مغالبة النعاس وقد

ثقلت اجفانها وتطأطأ رأسها رغم ارادتها ونامت نوماً متعباً وهي متنبهة الحواس اذا سمعت خربشة استيقظت مذعورة لشدة قلقها على غياب الضحاك

الفصل الرابع والثلاثون

امرٌ شاق

وفي احدى غمضاتها توهمت انها تسمع ضحكة الضحاك فذعرت وفتحت عينيها واذا هو واقف بازاء عمود الخباء وكانهما عمودان . فهمت بان تصيح فيه فانتبهت لسيدتها وخافت ان تيقظها وترعبها فاقتربت منه وقالت بصوت منخفض « سامحك الله على هذا الغياب »

فمشى وهو يشير اليها بيديه ان تتبعه فتبعته حتى خرجا من تلك الغرفة الى غرفة أخرى ليس فيها نور فتبعته ورجلاها تتثاقلان فمد يده وأمسكها بيدها وشدها وهو يقول « لا تخافي .. لا بأس عليك »

قالت « دعني احمل اليك السراج لأرى وجهك واسمع حديثك معاً »

فضحك وقال وقد أفلت يدها « ما أشد شوقك لرؤية هذا الوجه ! . طيب هاتي السراج »

فعادت وهي تمشي على رؤوس أصابعها حتى حملت السراج من غرفة جلنار وجاءت به الى تلك الحجرة فاوقفته بجانب العمود وجلست . فجلس الضحاك وكان قد ابدل القلنسوة بالعمامة التي يعرفهُ بها اهل ذلك المعسكر فابتدرته قائلة « لقد اطلت الغياب الليلة ونحن في قلق ومولاتي الدهقانة نامت منقبضة النفس على أثر ما رأته من نصرة أبي مسلم لجند الكرماني .. »

فقطع الضحاك كلامها وقال « ألم يقتل الكرماني ؟ تلك هي نتيجة انتصاره لهُ !.. واذا طالت نصرته لهذا البيت اجهز على اهله واحداً بعد واحد ... »

فلم تفهم ريحانة مقاله فقالت « بالله لا تكلمني بالالغاز افصح »

قال « قبحك الله ما اغلظ فهمك .... الى كم افهمك وأنت لا تفهمين ... ان هـذا الخراساني ما تقرَّب من قوم الاَّ ابادهم في سبيل مصلحته .. فاظهر انهُ نصير للكرماني حتى يستعين به على صاحب مرو .. ولم يكن قصده سرعة قتله ولكن الاقدار

عجلت عليه ٠٠٠٠٠ »

قالت « ان مولاتنا الدهقانة في قلق شديد بسبب غيابك بعد ما علمته من مقتل الكرماني فهل ايقظها لسماع حديثك ؟ »

قال « سأيقظها بعد قليل وانما أريد ان اسر اليكِ أمراً ارجو ان تساعديني فيه خدمة لمصلحة مولاتنا »

فتطاولت بعنقها وقالت « وماذا تريد ؟ »

قال « ان مقتل الكرماني انما كان بمسعاي انا توطئة لمقتل ابنه ليرضى علينا ابو مسلم فتنال مولاتنا ما تتمناه ٠٠ »

قالت « انت سعيت في قتل الكرماني ؟ لله ما اقدرك ٠٠ والآن تريد ان تقتل ابنه وكيف تستطيع ذلك ؟ »

فضحك وقال « لا استطيع ذلك الا بمساعدتك »

فبغتت وقالت « العلي من اهل السيف ؟ »

قال « ان القتل لا يكون بكثرة الجند يا ريحانة وانما ينال الانسان مرامه بالدهاء والصبر ٠ وأنا الآن آتٍ من عند أبي مسلم وقد وعدته بقتل ابن الكرماني لانه اصبح يتوقع ذلك منّا منذ لقيته للمرة الاولى وخاطبته بشأن مولاتنا الدهقانة فاخبرته انها ستكون عوناً له في نجاح مهمته ٠ وليس مايسهل عليه تلك المهمة اكثر من قتل آل الكرماني لينفرد هو بالقوة ويغلب على من بقي من جنود العرب ولا يتم له ذلك الا بهذه الطريقة »

فاجفلت ريحانة لذلك الطلب وسكتت ولم تحر جواباً

فلما رآها ساكتة وقف وقال « دعيني اذهب الى مولاتي جلنار فانها اعلم منك باهمية هذا الطلب »

فوقفت وهي تصعد كتفيها وتقول « لا أظن الدهقانة توافق على قتل رجل يستهلك في حبها الى حد العبادة بلا ذنب اقترفه نحوها ولاهي تعودت القتل ٠٠ امكث هنا ريثما ايقظها ثم أدعوك » وتركته ومضت ثم عادت وناديته فتبعها والسراج بيدها حتى دخلت غرفة جلنار وكانت قد جلست في الفراش والتفت بالمطرف فدخلت ريحانة وكانت قد اخبرتها بقدوم الضحاك فلما دخلت سألتها عنه فنادته فدخل ووقف متأدباً فامرتهُ بالجلوس فجلس على طنفسة صغيرة عليها رسوم فارسية ملونة وجعل ركبتيه تحتهُ وهي جلسة التأدب عندهم

الفصل الخامس والثلاثون

لم تقبل

فلما استتب به المقام خاطبته جلنار قائلة « لقد شغلت بالنا بغيابك وانت تعلم ان والدي انما أذن بمجيئك لتكون معي لاني لا أزال اعدُّ نفسي غريبة بين هؤلاء القوم وانت منذ أتينا هذا المعسكر لم تمكث معي الاَّ قليلاً ونحن دائماً على أحر من الجمر في انتظارك »

فاطرق الضحاك ولم يجب فاستأنفت جلنار الكلام وكأنها استدركت امرها فقالت « لا انكر انك لا تغيب الاَّ في مهمة تهمني وانك من أشد الناس غيرة عليَّ وسعياً في راحتي ولكنك اقلقتني في هذا المساء حتى كادت تزهق روحي »

فابتسم الضحاك ابتسام الاعتذار وأجاب بسكون ورزانة واحترام « يسوءني يا مولاتي ان أسبب لك تعباً أو قلقاً ولكني اقسم برأس مولاي الدهقان اني انما غبت في سبيل خدمتكِ ومتى عرفتِ من اين انا آتٍ الآن عذرتني ..»

قالت «من اين ؟ »

فالتفت الى ريحانة كأنهُ يستشهدها في ما قاله لها في هذا الشأن وقال « قصصتُ بعض حديثي على ريحانة في اثناء رقادك ولا بأس من الاعادة ... اتيتُ الآن من معسكر الخراسانيين بعد مدوالتي مع الامير ابي مسلم ساعة »

فلما سمعت الاسم بدا الاحمرار في وجهها وتجلت علامات الحب في عينيها وغلب عليها الحياء فاطرقت وهي تبدي عدم الاكتراث . ثم قالت « وما الذي حدث ؟ »

قال « لم يحدث شيءٌ بعد واخاف ان لا يحدث شيء فيذهب سعينا هدراً »

قالت وقد اوجست من ذلك التعريض « ما الذي تخافه »

قال وهو يخفض صوته « اخاف ان ينقلب سعينا علينا ... فنحن انما ركبنا هذا المركب الخشن وحملنا دهقانة مرو الى خيمة هذا الرجل وحملناها ما حملناها من المشقة وعرَّضناها للخطر على شرط الوصول الى ما تبتغيه من قائد جند الخراسانيين وقد تنسمتُ من كلام ريحانة الآن ان الامر سيصير الى غير المراد »

فالتفتت جلنار الى ريحانة وفي عينيها امارات الاستفهام فاجابتها بنظرة الاستغراب فقال الضحاك « لا تستغربي يا مولاتي فاني افصح لك عن مرادي بعبارة وجيزة ..

قد رأيتِ اليوم ما كان من نصرة ابي مسلم لابن الكرماني ولا اظنك تجهلين معنى هذه النصرة — فأبو مسلم لم ينصر عدوه هذا الاَّ احتيالاً حتى يتمكن من الفوز عليه في شيئين مهمين الاول أنت وهو الاهم عنده والثاني فتح مرو ولا يغرنك ما يبديه ابن الكرماني من مسايرة ابي مسلم فهو انما يسايرهُ ريثما يملك غرضه فيتزوج الدهقانة ويفتح مرو . وكل منهما لاينال غرضه الاَّ بقتل صاحبه لينفرد بالغنيمتين . فالكرماني يدبر الوسائل لقتل أبي مسلم وهذا يدبرها لقتل ابن الكرماني وترجيح الفوز لاحد المتناظرين راجع الى رأيك .. »

فاستغربت جلنار هذا التفصيل وادركت بعض مراد الضحاك واشكل عليها البعض الآخر فقالت « وما علاقة رأيي في ذلك ؟ »

فقال وهو يبالغ في خفض صوته وجلنار تتطاول بعنقها نحوهُ « ان ابن الكرماني يبحث عن غفلة من ابي مسلم ليغتاله بها ولا ندري اي متى يتأتى لهُ ذلك فاراد ابو مسلم ان يسبقه الى اغتنام تلك الغفلة منه فيقتلهُ وريحانة تأبى ذلك فارجو ان لا يكون رأيك من رأيها »

فقالت « هل ترضى ريحانة بفوز ابن الكرماني ؟ لا اظن »

قال « لم تقل ذلك صريحاً ولكنني ذكرت لها طريقة تسهل قتل هذا الرجل وتجمعك بابي مسلم فعرقلت مساعيَّ »

فقطعت ريحانة كلامه ووجهت خطابها نحو جلنار وقالت « ليس الامر كذلك يامولاتي .. . ولكنه جاءني برأيٍ لا اظنك ترضين به .. »

فابتدرها الضحاك قائلاً « الا ترضى مولاتنا بقتل هذا الرجل واستقلالها بابي مسلم ؟ »

فقالت ريحانة « ولكنكَ تريد ان يكون قتله على يدها »

فلما سمعت جلنار قولها بدا الارتباك في وجهها ونظرت الى الضحاك فرأَته يصعد كتفيه ويقلب شفتيه ولسان حالهِ يقول « ذلك لايعنيني »

فقالت جلنار « أَحقيقةً انت تعني ذلك ؟ . اتعني ان اقتل هذا الرجل ؟ وكيف اقتلهُ ؟ وهو لم يسيء اليَّ بشيءٍ »

قال « تفعلين كما تشائين .. كانك الفتِ الاقامة هنا ونسيت وعدك .. »

قالت « لم انس وعدي ولا أريد تغيير عزمي وانت تعلم ذلك »

فمد يدهُ الى جيبه واستخرج الخاتم ودفعه اليها وقال « هل تعرفين صاحب هذا الخاتم ؟ »

فتناولتهُ وقرأتهُ بقرب السراج فاذا عليه اسم ابي مسلم فاختاج قلبها في صدرها وهاجت عواطفها وتنسمت منه رائحة حبيبها ونظرت الى الضحاك وقالت « هذا خاتمه ٠٠ ما الذي جاء به اليك ؟ »

قال « لم اسرقه ٠٠ ولكن صاحبه دفعهُ اليَّ دليلاً على صدق رسالتي فهل تصدقين ما اقولهُ ؟ »

قالت « وهل كذبتك في شيءٍ قبل الآن ؟ »

قال « كلاَّ »

قالت « وما الذي بعثك بهِ اليَّ ؟ »

قال قصصت عليك غرضه وخلاصة ذلك اننا ان لم نقتل صاحب هذه الخيمة فهو يقتل صاحب هذا الخاتم • فان احدهما سيقتل الآخر لا محالة فاذا توقفنا عن مقتل هذا فكاننا سعينا في قتل ذاك ولا سبيل الى ذلك الاَّ بك فاختاري احد الوجهين »

فادركت جلنار غرضه فاعظمت الطلب ولكنها اعظمت ان تعرض حبيبها للخطر وهي تعتقد انه يحبها وفي قتله ذهاب كل آمالها فلبثت متحيرة ساكتة واستولى السكوت على تلك الجلسة السرية لحظة وكل من الحضور مطرق يفكر • ثمَّ فتحت جلنار الكلام قائلة « قد اوقعتني في حيرة لا اعرف كيف انجو منها ٠٠ اما القتل فلا طاقة لي به ولكنني ابذل جهدي في منع الاذى عن ذاك »

فضحك الرجل وقال « تمنعين الاذى ! • طيب افعلي ما بدا لك فانا غير مسئول عن تبعة ما يحدث من عاقبة هذا التردد »

فخافت تهديده وزادت حيرة وعادت الى السكوت فقال الضحاك « كيف تمنعين الأذى وانت محبوسة في هذه الخيمة ولايمكن خروجك منها الاَّ بقتل صاحبها واذا لم نعجل بمقتله سبقنا هو الى قتل صاحبنا وندم حين لا ينفعنا الندم • ومع ذلك فانت صاحبة الشأن ونحن طوع امرك فان الخسارة انما تعود عليك فافعلي ما تشائين ٠٠ »

فقالت « اقتله بيدي ؟ بالله كيف استطيع ذلك ٠٠ تبصر في الامر ياضحاك واجعل نفسك في موضعي فما الذي تفعلهُ ٠٠ »

قال « انا ؟ لوكنت في مكانك لقضيت هذا الامر بشربة ماءٍ او لقمة طعام ٠٠ »

فاطرقت هنيهة ثم قالت « لا . . لا اقدر على ذلك . . ولكنني ابذل جهـدي في منع الاذى عن . . . . واذا استطعت المساعدة في . . . » وسكتت ثم قالت « دعني اتدبر هذه المسألة واری ما يفتح عليّ بها »

فنهض الضحاك وقد ترجح عنده اقناع جلنار في جلسة اخرى وقال لها «ارجعي لي هذا الخاتم لارده الى صاحبه . . وانا على يقين انك ستعودين الى رأيي»

فقالت « وهل تردّه اليه الليلة ؟ »

قال « لابد من ذلك . . ولم يعطني اياه الاّ على هذا الشرط »

فتثاقلت جلنار في دفع الخاتم اليه لانها استأنست به وتنسمت منه ريح حبيبها ثم انتبهت لتثاقلها والضحاك واقف في انتظارها فدفعته اليه رغم ارادتها فتناوله وخرج وترك الدهقانة وماشطتها في بحور من الهواجس

الفصل السادس والثلاثون

كشف المعمى

اما هو فسار مسرعاً حتى خرج من المعسكر وقد ذهب نصف الليل واطل القمر من وراء الجبال عن بعد . فانفرد الضحاك في مكان نزع فيه جبته وغير قيافته وحل عمامته ثم تعمم تعمماً مخصوصاً ومشط لحيته وشد منطقته في وسطه واصلح من شأنه حتى ذهبت عنه هيأة المجون وولى وجهه معسكر شيبان الخارجي

وكان معسكر الخوارج وراء معسكر الكرماني في منبسط من الارض . والخوارج كما لايخفى يذهبون الى نزع السلطة من كل مسلم ويرون ان الحكم لله وحده — يقولون ذلك ويطلبون السلطة لانفسهم . فغرضهم مثل اغراض سائر طلاب الخلافة في ذلك العهد ولو اختلفت الاسباب . وكان زعيمهم شيبان قد جاء برجاله وحاصروا مرو قبل مجيء ابي مسلم كما تقدم وجاء الكرماني فتنازعا على مرو

وكان نصر بن سيار صاحب مرو من اهل الدهاء والحزم فكان اذا خاف احد العدوّين استعان عليه بالعدو الآخر فلم يستطع احد منهما ان يتغلب عليه

وكان الضحاك من امراء الخوارج شديد التمسك بمذهبهم فلما تحقق امتناع مرو على

اصحابه وبلغه سعي الكرماني في تزويج ابنه من ابنة دهقان مرو منذ اشهر رأى ان يحتال في قتل الكرماني غيلة . وخطر له ان يتنكر و يدخل في خدمة ذلك الدهقان و يحبب نفسه الى الدهقانة حتى تستانس به و يكون في جملة من يحمل معها من الخدم والعبيد الى بيت زوجها فيتقرب من الكرماني ويغتنم غفلته واطمئنانه و يقتله فيشتد ازر الخوارج و ينفردوا بمحاربة مرو فيتم لهم النصر . فاحتال حتى بيع للدهقان في جملة مماليك بيعوا له و بذل جهده بالتقرب من الدهقانة بواسطة ريحانة بما كان يبديه من المجون ونحوه حتى وثقت الدهقانة به كل الوثوق وصارت تعهد باسرارها اليه . وكان يحرض ريحانة على تحبيب ابن الكرماني الى سيدتها

و بينما هو يسعى في ذلك جاء ابو مسلم الى الدهقان ونزل عنده . فاطلع الضحاك على مقاصده وعرف قوته فاعمل فكرته في تدبير الحيلة . ثم كلفته ريحانة مخابرة ابي مسلم بشأن زواجها به كما تقدم فرأى ان يستعين بابي مسلم على قتل الكرماني وابنه بواسطة جلنار . فحسّن له القبول بها ونقل اليها خبر رضاه بها من عند نفسه . واراد ان يستخدم الدهقانة لقتل الكرماني وابنه وغيرهما اذا اقتضت الحال . ثم يتمكن من قتل ابي مسلم اذا ساعدته الاحوال . والاّ فيكتفي بقتل ابن الكرماني فيبقى اليمنية بلا امير فيحرضهم على الاتحاد مع شيبان لانهم من العرب وهم بالطبع يفضلون العرب على الخراسانيين فينصرون شيبان فينفرد ابو مسلم برجاله الخراسانيين وهم قليلون فيغلبه الخوارج و يفتحون مرو لانفسهم و يتم لهم ما كانوا يؤملونه من اخراج بني امية من خراسان والاستقلال بها

فلما جاء ابو مسلم الى مرو وعلم الضحاك ان ابا مسلم لابدّ له من الاستعانة بالكرماني على شيبان ونصر تظاهر انه على رايه واشار عليه بالتفريق بين الاميرين كما رأيت وزعم انه استنبط هذا الراي من عند نفسه ليكتسب ثقة ابي مسلم توصلاً الى اغرائه بقتل ابن الكرماني بواسطة جلنار . وكان في خلال اقامته عند دهقان مرو وبعد قدومه الى معسكر الكرماني يتردد سرًّا الى معسكر الخوارج و يطلع شيبان على تدابيره . ولذلك ظل شيبان بعد قدوم ابي مسلم الى مرو هادئًا لايحارب عملاً بمشورة الضحاك بالتربص . فاما ان يتحارب ابو مسلم والكرماني فيفني احدهما الآخر فيخلو الجو لشيبان او ان يحتال الضحاك في قتل ابن الكرماني

وكان شيبان قد تواطأ هو والضحاك في ليل الامس ان يذهب الضحاك الى ابي مسلم فيحرضه على قتل ابن الكرماني على يد جلنار . فاذا تأتى له ذلك بعث دعاة الخوارج الى اليمنية رجال الكرماني يحرضونهم على الاتحاد معهم لانهم عرب مثلهم و يطلعونهم على حيلة ابي

مسلم في التفريق بينهم بالكتب التي ارسلها اليهم مع الرسول . وكان شيبان عازماً على مهاجمة مروٍ في صباح الغد حالما يعلم بقتل ابن الكرماني . فبث امراءه في المعسكر يستحثون الرجال على التأهب وامر القصاصين ان يتلوا على الجيش اقوال عنترة وغيره من اشعار الجاهليين في الحماسة والفخر استنهاضاً للهمم وتحريضاً على العصبية العربية [1] — تلك كانت عادة الاجناد العربية في حروبها

الفصل السابع والثلاثون

القصاص ورفيقه

وجلس شيبان في خيمتهِ ينتظر قدوم الضحاك فلما ابطأ قدومه وقد مضى هزيع من الليل ضجر وخاف ان يغلب النعاس عليه وعلى امرائه الساهرين معه لهذه الغاية . فامر بعض غلمانه ان ياتيه بقصاص يتلو عليه بعض الاشعار او القصص على سبيل التسلية . فذهب الغلام ثم عاد وهو يقول انه سمع قصاصاً ينشد اشعارًا حماسية بصوت رخيم و يضرب على الطنبور باطرب الانغام

فقال « واين هو ؟ »

قال « هو بجانب فسطاط الامير . . ألا تسمع صوته ؟ »

فاصاخ شيبان باذنيه فسمع نشيدًا مطربًا وصوتًا عاليًا يدوي في ذلك الليل الهادىء تتخلله انغام الطنبور فأمر الغلام ان يأتي به حالاً

فخرج الغلام ثم عاد ووراءهُ شيخٌ طاعن في السن طويل القامة عريض المنكبين عليه عمامة صغيرة واسع اللحية والصدر ابيض الشعر وقد غطت لحيته معظم صدرهِ وعليهِ عباءة حمراء قصيرة وبيده طنبور يضرب عليه بلباقة . ومعه رجل قصير القامة على رأسه عمامة كبيرة لها زائدتان عريضتان احداهما مرسلة الى الوراء والاخرى مدلاة على جبينه فوق عينيه كأنه يشكو رمدًا فأصبح مغمض العينين . واذا مشى تعلق برفيقه القصاص يتلمس الطريق في أثرهِ وبيده دفٌ صغير ينقر عليه نقرًا جميلاً

---

(١) ابن الاثير ج ٤

وكان شيبان في خيمة كبيرة قائمة على عدة اعمدة في ارضها بساط كبير قد جلس هو في صدره على وسادة وبين يديه بضعة امراء من خاصته . فلما رأى القصاص داخلاً امره بالجلوس والانشاد فجلس واجلس رفيقه فبدأ هذا بالنقر على الدف نقراً محكماً واخذ القصاص في الانشاد بما يطرب الجماد . فأنشد بعض اشعار عنترة ثم امره شيبان ان ينشد اشعار غيره من الجاهليين فتلا اقول زهير وطرفة وغيرهما وهو يضرب على الطنبور بما يحرك العواطف الحماسية . وكلما قال بيتاً حماسياً هاج الامراء وتحمسوا واستعادوه . وطلب اليه بعضهم ان يقص عليهم حرب البسوس ويوم ذي قار الذي انتصف فيه العرب من العجم وغيرهما من مواقع الجاهلية المشهورة فاجابهم في كل ما يطلبون سواء كان قصةً او شعراً او ضرباً على الطنبور ورفيقه ينقر على الدف نقراً حسناً ويساعد القصاص بالانشاد وهو مطرق في الارض من ألم عينيه . فطرب الجميع ونسوا ما كانوا فيه من ملل الانتظار . وتجمع رجال الحاشية والخدم في الخيمة وحولها حتى تكاثروا واختلطوا

وبينما هم في تلك الضوضاء دخل غلام تخطى رقاب الناس حتى وقف بين يدي شيبان واسرَّ اليه قولاً . فأشار شيبان اشارة تحرك لها كل من كان هناك من الامراء والحاشية ووقفوا وعلت ضوضاؤهم وهموا بالخروج . فوقف القصاص وتعلق به رفيقه وارادا الخروج مع الخارجين فجاءهما بعض الغلمان وامرهما بالانتقال من الفسطاط الى خيمة الخاصة بجوار ذلك المكان . فخرج القصاص ورفيقه ممسك بطرف ثوبه فرأى القصاص وهو خارج رجلاً طويلاً دخل الفسطاط فتنحى لهُ الناس واستقبله شيبان بالترحاب واجلسه الى جانبه وهو يقول « اهلاً بالامير شبيب »

ولم تمضِ بضع دقائق حتى خرج الناس من الفسطاط الاّ الامير شيبان والامير شبيباً وبضعة امراء آخرين . وتحوّل سائر الحاشية والاعوان الى خيمة بالقرب من الفسطاط . واراد القصاص ان ينصرف فامسكه بعض الخدم وامره ان يدخل تلك الخيمة وينشد بعض رجال الحاشية هناك فدخل مع رفيقه واخذا بالانشاد والضرب والنقر . فبعث الامير شيبان اليهم ان يسكتوا لئلا يشوشوا عليهم حديثهم على ان يستبقوا القصّاص الى بعد الفراغ من الحديث ففعلوا



الفصل الثامن والثلاثون

شيبان وشبيب

فلما خلا شيبان بشبيب ومن ظلَّ في الفسطاط من خاصته انطلق لسانه بالترحاب وهش لهُ واستدناه حتى تماست ركبتاهما وشيبان يقول « بورك بالامير شبيب ... ارجو أن تكون قد افلحت وآن لنا الظهور »

قال « النجاح لا ريب فيه باذن الله وبيركة الامير شيبان » قال ذلك واستخرج خاتم ابي مسلم ودفعه اليه

فبغت شيبان وتناول الخاتم وتفرس فيهِ فلما عرفه تبسم والتفت الى أمير بجانبهِ وقال « هذا خاتم الشاب الخراساني فما قولكم في من تمكن من الحصول عليه ؟ »

فاجاب احد الامراء قائلاً « ما الذي ينفعنا من خاتمه وهو معسكر امامنا وقد اتحد مع هؤلاء اليمنية وقبض على زمام اميرهم الكرماني بعد ان قتل أباه فاذا اتحدا على صاحب مرو غلباه ولا فائدة من مقامنا هنا »

فضحك شبيب غير ضحكة الضحاك ووجه خطابهُ الى الامير شيبان وهو يتربع في مجلسه ويده اليمنى على ركبة شيبان واليسرى يحك بها ذقنه وقال « لم اخط خطوة الا وانا حاسب لها حساباً وأظنني أحسنت التدبير وسأقص عليكم رأيي فاذا بدا لكم تعديله اطعتكم فيه .. » ثم التفت يميناً ويساراً كانه يتوثق من خلو المكان من الغرباء او الخدم فابتدره شيبان قائلاً « قل اننا في مأمن من العيون وليس حولنا احد نخافه على افشاء سرنا »

فقال شبيب « لا يهمنا هذا الخاتم ان لم نقتل به ابن الكرماني الليلة او غداً »

فقال شيبان وهو يظهر الاعجاب والاستغراب « الليلة ؟ »

قال « قد كنت اتوقع قتله الليلة ولكنه في حال لا يبقى بها الى ما بعد الغد .. »

فقال أحد الامراء « وكيف نقتله وهو محاط بالحرس والحاشية ؟ »

فاعترضه شيبان قائلاً « يقتله بالدهاء والذكاء .. واذا كنتم تعرفون دهاء الامير شبيب فلا تستغربون ذلك منه » ثم التفت الى شبيب كأنه يلتمس منه اتمام الحديث فقال شبيب « اذا قتل ابن الكرماني فان رجاله يكونون معنا على ابي مسلم لانهم عرب مثلنا وكلهم يمنية وهم طبعاً يكرهون عجم خراسان ومضر مرو ولم يجمع كلمتهم علينا الآن الا

اميرهم المذكور فمتى قتل فعليّ (وأشار باصبعه الى صــدره) ان اجمع كلمتهم تحت قدم الامير شيبان فاذا فعلنا ذلك تكاتفنا اولاً على قتل ابي مسلم وتشتيت جمعهِ ولا ريب ان نصراً صاحب مرو يساعدنا على ذلك او يلزم الحياد على الاقل »

فقطع شيبان الحديث بقوله « بل هو يساعدنا لانه بعث اليّ في صباح هذا اليوم يخطب محالفتي »

فقال شبيب « ولو لم يطلب هو نصرتنا طلبنا نصرتهُ ... وانما الغرض الاول ان نتخلص من ابن الكرماني ولا تحسبن التخلص منه هيناً .. بل هو يستحيل على سواي ولذلك حديث يطول شرحه والامير شيبان يعرف معظمه »

فاجاب شيبان باحناء رأسه واطباق جفنيه ان « نعم »

فقال شبيب وهو يوجه خطابه الى شيبان « لقد زهقت روحي قبل الوصول الى المطلوب فالفتاةالمفتونة بحب ذلكالخراساني جعلتهاتعتقد انه مفتون بها وانه لاسبيل لهااليه الا بقتل خطيبها ابن الكرماني . وهذا اكثر استهلاكاً بحب هذه الفتاة من استهلاكها بحب ابي مسلم وأرجو ان يهلكوا جميعاً من عواقب الحب .. وقد بذلت جهدي في تحريضها على قتل ابن الكرماني او مساعدتي في قتله بالسم او نحوه ارضاءً لحبيبها الذي بالحقيقة لا يحبها وانما ما لأني على اظهار الحب لانفاذ غرضه كما خدعته باستهلاكي فيسبيل دعوته لانفاذ غرضي وهو يحسب نفسه يخادعني ويسايرني ويظنني مخدوعاً مغروراً وهو المخدوع المغرور ... والخلاصة اني خدعته حتى دفع اليّ خاتمه علامة منه لتلك الدهقانة انه يحبها وانه يريد منها ان تفتك بخطيبها .. واعترف لكم اني آنست منها مقاومة في بادىء الرأي ولكني سأعيد الكرة في الغد بحيث لا ينقضي اليوم الا وقد نفذت الحيلة »

فظهرت امارات الاعجاب على وجوه السامعين وهم يتطاولون باعناقهم نحوه ويراعون حركات شفتيه وعينيه لاستيعاب اقوالهِ . فلما رأى منهم ذلك تنحنح وسكت وهو مطرق كأنه يفكر في امر خطر له بغتة فسكتوا واصبحوا يتوقعون منه قولاً فاذا هو يقطب حاجبيه ويرفعهما كما يفعل الحائر ثم التفت الى شيبان وقال « بقي امرٌ لا بد من الرجوع به اليكم والاعتماد به عليكم »

فتجمعت نواظرهم عليهِ وقال شيبان « وما الذي تريدهُ ؟ »

قال لا بد لنا من تمهيدالسبيل لجمع كلة هؤلاء اليمنية معنا بحيث اذا قتل اميرهم انحازوا الينا وتم الامر لنا »

فقال شيبان « وهل نفعل ذلك قبل مقتل الرجل او بعده ؟ »

قال « يجب ان نمهد السبيل قبلاً خوفاً من الفشل ٠٠ وأرى ان يكون ذلك بمخاطبة كبار الامراء سرًّا ٠٠ ولولا اشتغالي في ما هو اهم من ذلك لما تكلفت في تبغيض ابي مسلم الى اليمنية اكثر من اطلاعهم على حيلته في القاء الفتنة بينهم وبين المضرية وهو الرأي الذي كنت عرضته عليه يوم وصوله كما تعلمون — فاذا اطلعوا على هذا السر مع مافي قلوبهم من الكره الطبيعي للفرس اتحدوا معنا لا محالة فما قولكم ؟ »

فلم يتمالكوا ان صاحوا بصوت واحد « هذا هو الرأي الاعلى »

فوقف شبيب وهو يتوكأ على كتف الامير شيبان ويقول « دعوني اذهب الآ ن ٠٠ »

فصاح شيبان « الى اين ؟ »

قال « الى ابي مسلم »

قال « الى ابي مسلم ؟ ولماذا »

قال « لأُعيد اليه خاتمه فقد فارقته على ذلك فيجب ان اصدقه لتتم لنا الحيلة ولكي استمهله ريثما اقتل ذلك المغرور »

الفصل التاسع والثلاثون

رد الخاتم

فوقف شبيب ووقف سائر الامراء فلم يمهلهم الالحظة وخرج مسرعاً ولم يقل شيئاً ٠ فلما خرج عادوا الى مجالسهم وهم معجبون بتدبيره ودهائه ولبثوا هنيهة يتداولون في ذلك الموضوع وقد انشرحت صدورهم واطمأنت نفوسهم وأيقنوا بنجاح مسعاهم ٠ ثم انتبهوا لما كانوا فيه من سماع القصاص ونقره فصفق الامير شيبان فدخل احد الغلمان فصاح فيه «اليّ بالقصاص ٠٠ اين هو ؟ »

قال « تركته مع رفيقه الضرير في خيمة الاعوان وقد تربصا ريثما يؤذن لهما بالانشاد »

قال « اليّ بهما »

فخرج الغلام ثم عاد وهو يقول « لم أجدهما يا مولاي .. يظهر انهما ذهبا الى الرقاد لأني آنست فيهما نعاساً شديداً بعد ان أُمرا بالسكوت حتى رأيتهما ناما والناس جلوس فتركوهما نائمين وخرجوا فذهبت اليهما الآن فلم أجدهما فالظاهر انهما استبطأا الامير في دعوتهما فانصرفا »

فقال « لا اظنهما ينصرفان قبل ان يأخذا الجائزة ابحث عنهما جيداً حول هذه الفساطيط فقد اطربانا فيجب علينا اكرامهما »

فخرج الغلام وعاد بعد برهة ولم يعثر عليهما فاسف الامير لذهابهما بلا جائزة وأوصى الغلام ان يتحرى شأنهما في الغد لئلا ينسبا الامير الى البخل . ثم ارفضت الجلسة وذهب الامراء الى الرقاد وظل الامير شيبان وحده يدبر الوسائل لمخابرة الامراء اليمنية في الغد

اما شبيب فلما بعد عن معسكر الخوارج اختلى في مكان غيّر فيه ثيابه حتى عاد الى ما كان فيه من مظهر المجون وسار توًّا الى معسكر ابي مسلم . فوصل المعسكر وقد مضى معظم الليل ثم اقبل على المنزل الذي فارق ابا مسلم فيه ولم يستغرب وجوده مستيقظاً الى تلك الساعة لعلمه بسهره على مصلحته وتيقظه في مراعاة مشروعه . ولم يلق الضحاك معارضة من احد فلما وقف بالباب دخل به الحارس على ابي مسلم فاذا هو لا يزال بلباس النهار فلما دخل احتفل ابو مسلم بدخوله وبش له وناداه قائلاً « اهلاً بالضحاك .. ارجو ان تكون قد وفيت بالوعد »

فمدّ الضحاك يده وتقدم نحو ابي مسلم باحترام والخاتم بين ابهامه والسبابة وقال « هذا هو الخاتم يامولاي فقد أدى مهمته ... شكراً لهُ ولصاحبه »

فمدّ ابو مسلم يده وتناول الخاتم وهو يقول « بل الشكر لك ايها الهمام .. هل ارسلت الرجل الى خوارزم ؟ » وكانت عادته اذا اراد قتل رجل قال « ارسلوه الى خوارزم » يكني بخوارزم عن الموت

قال « لم استطع ارساله الليلة لاني وجدت الدهقانة مترددة في انفاذ الحكم لانها لم تتعوّد مثل هذه الاوامر المستعجلة » وضحك

فسايره ابو مسلم في الضحك وقال « لا بأس من الانتظار ولكن هل استوثقت من قيامها بالامر غداً أو بعد غد ؟ »

قال « نعم لانها لما شاهدت هذا الخاتم هان عليها كل صعب في سبيل مرضاة صاحبه »

فاظهر ابو مسلم الاستحسان والاعجاب واشار الى الضحاك ان يجلس وقال « اذا توفقت الى ما نقول وفتحنا مرو كان لك عندنا مقام رفيع ورتبة عالية »

فاثنى الضحاك على ذلك التلطف ولم يجلس وقال « ان اسمى ما تتوق اليه نفسي من الرتب ان اكون حائزًا على رضى مولاي .. واذا اذنت لي بالانصراف الآن ذهبت لاتمام امرك »

قال « لا ينبغي ان تعجل في الامر على هذه الصورة لئلا يفسد علينا تدبيرنا ولا اظن الدهقانة تتوفق الى تنفيذ ذلك قبل جلسة أُخرى تقنعها فيها بلباقة ومهارة وهي الآن لاشك نائمة فالاحسن ان تبيت الليلة عندي فاذا طلع النهار ذهبت في هذه المهمة »

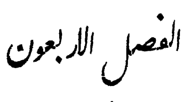
فاظهر الطاعة وهو يفضل الذهاب لاتمام ما ابرمهُ مع شيبان فوقف لم يحر جوابًا وسكت ابو مسلم واخذ يخطر في الغرفة ذهابًا وايابًا فعلم الضحاك انه يعمل فكرته في امر هام فظل ساكتًا لعل ابا مسلم يعدل عن استبقائه عنده . وبعد برهة وقف ابو مسلم بجانب الضحاك بغتة والقى يده على كتفه بلطف فاستأنس الضحاك بهذا التحبب واصاخ بسمعه لما سيقوله ابو مسلم فاذا هو يتفرس في عينيه تفرس مستطلع ثم قال بعبارة رقيقة ناعمة « هل انت مشعر حقيقة بمنزلتك عندي وعظم ثقتي بك .. »

وكان الضحاك قد خاف ذلك التفرس لما يعتقدهُ من سوء قصده ولما يعلمهُ من صدق فراسة ابي مسلم — ويكاد المريب يقول خذوني — فلما سمع منه ذلك التلطف سري عنه واجاب « كيف لا اشعر بذلك وقد سلمتني خاتمك وعهدت اليَّ باسرارك »

قال « لايزال عندي سرٌّ آخر هل اكاشفك به »

قال « لك الامر فيما تريد اما انا فاني طوع ارادتك »

قال « اجلس اذًا واصغ » قال ذلك واجلسهُ ويده على كتفه . فجلس الضحاك وهو يتطاول بعنقه ليسمع ذلك السر الجديد لعله يساعدهُ على غرضه



الفصل الاربعون

سرٌّ جديد

فلما جلسا قال ابو مسلم بصوت منخفض « انت تعلم كم معي من رجال خراسان وهم طوع ارادتي . ولكنني لااثق الا ببعضهم ولا اسلم سرّي الى احد منهم وقد خطر لي في هذه الساعة خاطر اردت ان استشيرك فيه لما انستهُ من اخلاصك وصدق خدمتك

ودهائك ــ وان كنت تتظاهر بالبله والمجون فانت اهل للمراتب العالية . فاعلم ان تواطؤنا على قتل ابن الكرماني لا يعلم بهِ احد من رجالي حتى ولا خالد بن برمك ولا سليمان ابن كثير مخافة ان يطرأ ما يفسد علينا تدبيرنا وقد خطر لي الآن امر زادني خوفاً من الفشل »

قال « وما هو يامولاي ؟ »

قال « اذا نحن قتلنا ابن الكرماني من يضمن لنا انصياع رجالهِ الينا وهم عربٌ ونحن فرس ألا تظنهم ينحازون الى غيرنا ؟ »

فتجاهل الضحاك وقال « والى من تعني يامولاي ؟ اما انحيازهم الى نصر فأمر بعيد لانه قتل اميرهم الكبير . . »

فقطع ابو مسلم كلامه قائلاً « انا اعلم انهم لا يحبون نصرًا ولكنهم قد ينحازون الى جند الخوارج المعسكرين هنا . . اصدقني لانك عربي وتعرف اغراض العرب الا تظن امراء اليمنية يفضلون أُولئك العرب علينا ؟ »

فاطرق الضحاك وقد وقع في حيرة لا يدري بماذا يجيب واستغرب هذا السؤال ولكنهُ تجلد وتظاهر بالسذاجة وقال « اظنهم يفضلون العرب طبعاً »

قال « يخطر لي خاطر استنصحك فيه فاما ان توافقني عليهِ أو ندفنهُ هنا ولا يعلم بهِ احدٌ »

قال « اني طوع امرك يامولاي »

قال « قد علمت من اصحاب الخبر الذين بثثتهم في معسكر الخوارج منذ قدومي الى هذا المكان انهم ينوون محالفة نصر بن سيار صاحب مرو على حربنا وحرب ابن الكرماني فيخطر لي الآن ان احالف هؤلاء الخوارج على نصر وابن الكرماني فاذا قتلنا هذا جعلنا قيادة العرب اليمنية كافة الى الامير شيبان بشرط ان يكون حليفنا على نصر لان الغرض الاصلي الذي قمنا لاجله بدعوة الامام انما هو اخراج الخلافة من بني امية وليس الغرض ان نفتح مروا وغيرها من مدن خراسان . . وهذا سرٌّ عميق لو علمتُ ان طائرًا تنسم ريحه قتلتك وانت تعلم اني اقتل على التهمة بامر الامام . . . »

فتوسم الضحاك من وراء هذا السرّ خيرًا كبيرًا لمشروعه الاصلي فاقبل نحو ابي مسلم بكليته وهش له وقال « اني استغرب تهديدك اياي وسوء ظنك بي وقد أُوتيت فراسة تخترق بها الصدور وتطلع على اسرار القلوب فاذا كنت ترتاب في صدق نيتي اقتلني حالاً »،

فابتسم ابو مسلم وقال « قد علمت مكنونات قلبك ولكنني ازداد اختباراً . فاعلم اننا لو فتحنا مرو في هذه الساعة فانما قصدنا من فتحها اخراجها من سلطان بني امية ثم لا يهمنا من يتولاها بعدهم واعترف لك اني خائف من اولئك الخوارج واتحادهم مع رجال ابن الكرماني بعد قتله فاذا كانوا ضدنا اتعبونا وخصوصاً اذا حالفوا نصراً صاحب مرو فهل من سبيل الى اميرهم شيبان ... هل تعرفه او تعرف احداً يستطيع التوسط بيننا وبينه لنبرم اتفاقاً يقينا شرّ ما نخافه ؟ »

فلما سمع الضحاك قوله استبشر بالفوز وايقن بنجاح مسعاه على اهون سبيل فقال « اما الامير شيبان فاني اعرفه وهب اني لا اعرفه فلا اعدم وسيلة في مخابرته .. »

قال « صدقت ان من كان في مثل تعقلك ودهائك لا يعدم وسيلة في ذلك لكنني استشيرك اذ خاف ان اكون واهماً في تصوري وقد استودعتك سرّي وجعلتك ثقتي فانصحني »

قال « اذا جاز لمثلي ان يبدي رأياً بين يدي صاحب دعوة الامام ابراهيم فاني اهنئك على هذا الرأي السديد وخصوصاً بعد ان علمتُ الغرض الاصلي من القيام بهذه الدعوة لان هؤلاء الخوارج لا يطمعون باكثر من الاستيلاء على مرو . واذا كان استيلاؤهم عليها برضاك كانوا عوناً كبيراً لك في سائر الفتوح ولا يخفى عليك انهم يكرهون المضرية اكثر من كرههم الفرس فاذا حالفتهم خدموك ونصروك »

فاظهر ابو مسلم الارتياح الى نصيحة الضحاك وقال « فعلينا اذاً ان نخابر الامير شيبان ولا اثق باحد سواك .. فهل اعهد هذا الامر اليك ؟ »

قال « اذا كنت واثقاً بقولي فاني اطوع لك من بنانك »

قال « لا اثق بسواك فامكث عندنا الليلة فازوّدك في الغد رسالة تذهب بها الى الامير شيبان واترك الى فطنتك اسلوب ابلاغها بحيث يكون النجاح مضموناً »

فقال « كن في راحة من هذا القبيل »

قال « فاذهب الآن الى رقادك في هذه الغرفة (واشار الى غرفة بالقرب من المكان) وفي صباح الغد اهيئ لك الكتاب »

فاشار مطيعاً وذهب الى فراشه وهو لا يصدق بما توفق اليه من اسباب السعادة ولم يستطع رقاداً من شدة الفرح الا قبيل الفجر فان النعاس غلب عليه فنام . واستيقظ في الصباح فنهض وتهيأ للذهاب وهو يخاف ان يعدل ابو مسلم عن عزمه فاذا ببعض الغلمان

يدعوه اليه فهرول حتي وقف بين يديه فدفع اليه كتاباً مختوماً وقال له «ضع هذا الكتاب في مكان سرّي فاني لا اريد ان يطلع عليه احدٌ من رجالي واذهب من هذا الطريق (واشار الى طريق غير الذي تعود المجيء منه) واذا علمتُ ان احداً من رجالي اطلع عليه او علم به فانت تعرف جزاءك»

الفصل الحادي والاربعون

فتح مبين

فتناول الكتاب وخبأه في جيبه وودع ابامسلم وخرج وهو في لباس المجون من الجبة والعمامة المنحرفة والنعل في رجليه ومشى من وراء الخيم حتى توارى عن ابي مسلم ثم عرج ليدور من وراء المعسكر وهو يسرع في خطواته فرأى بضعة فرسان عرف من لباسهم انهم من رجال ابي مسلم فتحول ليبعد عنهم مخافة ان يسألوه عما يحمله فاذا هم يركضون افراسهم نحوه فظل مسرعاً فاسرعوا هم نحوه حتى احدقوا به واشار احدهم الى رفاقه فانقضوا عليه وضايقوه فوقف وسألهم عما يريدون فابتدره رجل منهم ملثم وقال له «من الرجل ؟»

فتحير ولم يدر بماذا يجيب ثم قال «اني عابر سبيل»

فقال له «ليس هذا سبيل للعبور قل لنا من انت وما غرضك ؟»

قال «لا شان لكم بغرضي فاني سائر في مهمة ..» ولم يجسر ان يخبرهم عن مهمته فتحوّل بضعة منهم وفي ايديهم الحبال واوثقوه وقيدوه وهم يقولون «اما ان تخبرنا عن غرضك والاّ فانك اسيرٌ عندنا»

«قال سيروا بي الى الامير ابي مسلم فتعلمون من انا»

قال «لا نسير بك اليه ما لم تخبرنا»

فصاح فيهم «اذا لم تسرعوا بي اليه فانكم نادمون»

فقالوا «اذا كنت رسولاً فاين الكتاب الذي انت ذاهب به والاّ فانك عدوّنا»

وطال الجدال بينه وبينهم وهو لا يجسر ان يخبرهم بالكتاب الذي يحمله فاطاعهم خوفاً على حياته وهو يهددهم بما سيلاقونهم من غضب ابي مسلم اذا لم يطلقوه فاجابه الفارس الملثم قائلاً «سارسل فارساً يخبر الامير بامرك فاذا امر باطلاقك اطلقناك»

فرضي الضحاك بذلك واذعن لهم فساقوه الى خيمة على اكمة تشرف على معسكر ابي مسلم فوقفوا به هناك حيناً وهو يتوقع رجوع الرسول حالاً فشاعت عيناه وهو ينظر الى المعسكر وقد توارى الرسول عن بصره وراء التلال والخيام واذا هو يرى حركة في معسكر الخراسانيين ثم سمع قرع الطبول ونفخ الابواق فتطلع فرأى الخراسانيين على خيولهم وقد شرعوا الاسنة وساروا والاعلام السود تتقدمهم يعلوها لواء الامام ورايته وكانا بارزين صعداً بضعة اذرع فوق سائر الاعلام . فايقن ان الخراسانيين سائرون لمهاجمة مرو ثم وقفوا تجاه المدينة فاستغرب وقوفهم وارسل بصره حول مرو فراى اعلام ابن الكرماني تخفق بين يدي الفرسان اليمنية وقد ركب رجال الكرماني وقرعوا طبولهم وشرعوا اسنتهم واقبلوا على مرو من جانب آخر . فظن لاول وهلة ان رجال الكرماني قادمون لصد الخراسانيين ثم ما لبث ان رآهم يسيرون نحو المدينة بعزم ثابت والسهام تتطاير فوق رؤوسهم . ولم تمض ساعة حتى دخلوها من احد جوانبها . واذا بابي مسلم ورجاله قد دخلوها من الجانب الآخر فاستغرب الضحاك ذلك وزاد استغرابه لما راى اللواء والراية قد غرسا بباب قصر الامارة في وسط مرو فعلم ان ابا مسلم قد دخلها . ثم راى حامية المدينة يخرجون منها خروج الفارّين وقد عرف من اعلامهم البيض انهم جند بني امية وراى في جملة الهاربين جماعة من الفرسان عرف من قيافتهم انهم من كبار القوم واذا باحد الفرسان الواقفين الى بجانبه يهتف قائلاً « هذا نصر بن يسار قد خرج هارباً »

فالتفت الضحاك فرأى شيخاً جليلاً عليه عمامة بيضاء كبيرة وقد انبسطت لحيته البيضاء على صدره وهو يهمز جواده طلباً للفرار وحوله بضعة من فرسانه فتذكر انه يعرفه ثم تحقق انه نصر بن سيار ومعه أولاده وأهله — ولم يفر نصر الا وهو لا يرى حيلة في استبقاء المدينة — فلما رأى الضحاك ذلك كله دهش ونسي اسره واعمل فكرته في ما كان يتوقعه من اتحاد اليمنية والخوارج على ابي مسلم واستغرب عجلة ابي مسلم في الفتح على حين انهما كانا على موعد من مقتل ابن الكرماني قبل الفتح . فظل الضحاك واقفاً وهو مشرف على مرو كانها بين يديه يراعي حركات الجند فما لبث ان رأى رجال الكرماني يخرجون من مرو الى معسكرهم ومعهم ابن الكرماني نفسه عرفه من رايته فاستغرب رجوعه بعد تمام الفتح وتذكر جلنار للحال وعلم انها في خوف ليس على حياتها ولكنها تخاف ان يفي ابن الكرماني بوعده ان لا يتزوجها الا بعد فتح مرو وقد فتحت ودخلها ابن الكرماني وهان الامر . ثم تذكر ما تواطأ هو وأبو مسلم عليه من مقتل ابن

الكرماني وضم رجاله الى رجال شيبان وتبادر الى ذهنه سوء الظن في أبي مسلم وخاف ان يكون قد خدعه بذلك الوعد على انه لم ير مسوغاً لسوء الظن

وهم في ذلك اذ رأوا فارساً مقبلاً على عجل من جهة مرو فعرف الضحاك انه الرسول الذي كان قد ارسله لمخابرة أبي مسلم بشأنه عند القبض عليه وحال وصوله ترجل عن فرسه وتقدم نحو الضحاك مهرولاً وهو يقول « لقد أخطأنا اليك والى الامير » وأخذ في حل وثاقه وهو يخاطب رفاقه الفرسان قائلاً « ان الامير لما علم بالقبض على هذا العربي غضب غضباً شديداً لانه كان قد انفذه في مهمة ذات بال وهو يقول لكم اكرموه وسيروا به اليه الآن في قصر الامارة »

الفصل الثاني والاربعون

قصر الامارة والبيعة

فاطمأن الضحاك وعلم انهم قبضوا عليه خطأً فاركبوه فرساً وساروا به الى مرو فدخلوها من باب بالين فشاهدوا الناس في حركة واكثرهم فرحون بذلك الفتح لان جمهور اهلها من الفرس وكانوا يقاسون العذاب في سلطة العرب المضرية وكان نصر قد أراد اصلاح ما أفسده اسلافه فلم يستطع وذهب سعيهُ عبثاً وخرجت مرو من يده رغم ارادته • وكان الخراسانيون قد ملوا حكومة العرب منذ تولاهم بنو أمية لانهم كانوا يسومونهم سوء العذاب يولون عليهم العمال ويوصونهم بجمع المال بأي وسيلة كانت • وكان أهل مرو قبل الاسلام مجوساً وعليهم الجزية فرغبوا في الاسلام غير مرة وأسلم كثيرون منهم فكان بعض العمال يعدُّون اسلامهم حيلة للتخلص من الجزية فلا يرفعونها عنهم فيطالبونهم بالجزية وهم مسلمون فيرجعون عن الاسلام وقد فعلوا ذلك غير مرة حتى تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز وكان مسلماً حقاً فبعث الى عماله ان يضعوا الجزية عمن اسلم • ومن اقواله من كتاب كتبهُ الى الجراح عامله على خراسان وقد شكوا انه يأخذ الجزية ممن اسلم « انظر من صلى قبلك فضع عنه الجزية » فسارع الناس الى الاسلام فقلت الجزية فكتب الجراح الى عمر بذلك فاجابه « ان الله بعث نبيهُ محمداً داعياً ولم يرسله جابياً »

على ان هذه النعمة لم تدم على اهل خراسان لقصر خلافة عمر فاما قتلوه وولوا

من خلفه عادت الاحوال الى ماكانت عليه واهل خراسان وخصوصاً مرو يودون التخلص من حكومتهم ولذلك كان فرحهم بابي مسلم عظيماً وتهافتوا اليه يهنئونه ويبايعونه

فوصل الضحاك الى قصر الامارة والناس قد تزاحموا عند بابه وفيهم الدهاقين والتجار والمشائخ والعلماء والصناع وغيرهم وقد تزاحمت الافراس وعلت الضوضاء • فلما رأوا فرسان أبي مسلم عرفوهم من قياقهم فوسعوا لهم فترجلوا ودخل اثنان ومعهما الضحاك حتى قطعوا صحن الدار الى الباب الداخلي الكبير فرأوا الناس يتسابقون اليه والحرس يوقفونهم وبالباب حرسي من رجال ابي مسلم فحالما رأى الرجلين وسع لهما وأدخلهما ومعهما الضحاك

فلما وقف الضحاك بالباب اذا هو في قاعة واسعة جلس في صدرها ابو مسلم وفوق رأسه راية سوداء وعليه عمامة سوداء وثياب سود والى جانبه خالد بن رمك في مثل لباسه وبين يديه اثنا عشر اميراً باللباس الاسود عرف منهم سليمان بن كثير وطلحة بن رزيق وعلم انهم النقباء الاثني عشر الذين اختارهم الامام من السبعين نقيباً الذين قاموا بالدعوة العباسية في أوائلها • فلما دخل الضحاك وقع نظر ابي مسلم عليه فابتسم له وأشار اليه ان يدخل ويجلس على كرسي في بعض جوانب القاعة فدخل وحده وانصرف الحرسيان فشاهد في بعض جوانب القاعة وهو داخل ركاماً من البرابط والعيدان وآنية الخمر والمزامير تركها الامويون في ذلك القصر عند قرارهم فقال الضحاك في نفسه « تلك آثار الترف الذي يذهب باهله الى الدمار »

وكان ابو مسلم في مفاوضة مع نقبائه ثم أشار اليهم فتنحوا وجلسوا الى جانب الاّ واحداً هو طلحة بن رزيق النقيب فظل واقفاً بين يدي ابي مسلم وعليه قباء اسود وعمامة سوداء وأشار الى صاحب الباب ان يدخل الناس لاخذ البيعة ازواجاً فدخل اولاً الفقهاء والعلماء ثم القواد والكتاب والاعيان والدهاقين وغيرهم فرآهم الضحاك يدخل أحدهم حتى يقف بين يدي ابي مسلم فيسلم عليه بالامارة قائلاً « السلام عليك ايها الامير ورحمة الله وبركاته » ثم ينادي باعلى صوته ويقول وطلحة يقول معهُ وهو نص البيعة « أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من اهل بيت رسول الله وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي الى بيت الله الحرام وعلى ان لا تسألوا رزقاً ولا طعماً حتى يبتدئكم به ولاتكم » [1]

---

(١) ابن الاثير ج ٥

فاذا فرغ من نص البيعة وقالها معه طلحة رجع وتقدم سواه • وكانوا يتسابقون الى ذلك وامارات البشر على وجوههم فتعجب الضحاك من ذلك وتنغص في سره لما رآه من ترحاب اهل مرو بالخراسانيين واصبح على يقين ان صاحبه شيبان لا يستطيع دخولها بعد ذلك الاّ باتحاده مع ابي مسلم وهذا لا يكون الا بقتل ابن الكرماني

مضى معظم النهار في اخذ البيعة ثم وقف ابو مسلم واشار الى طلحة ان ياخذ البيعة عنه بين يدي خالد بن برمك وتنحى الى بعض الغرف واومأ الى الضحاك فتبعهُ . فلما خلوا قال ابو مسلم « لقد ساءني ما اصابك من التاخير بسبب جهل احد رجالي وقد كنت عازماً على الانتقام منه بين يديك لولم يتفق لنا ما يسرّنا في هذا النهار على غير انتظار ٠٠ ولعلك تستغرب فتح هذه المدينة بمثل هذه السرعة على حين انني كنت عازماً على التاجيل بضعة ايام ريثما نتم اتفاقنا مع الامير شيبان كما افترقنا بالامس ٠٠ ولكن سنحت لي في هذا الصباح فرصة خفت ضياعها فاغتنمتها وقد نجحت فيها ٠٠ » قال ذلك وتنحنح وتشاغل بقبض ذقنهِ

وكان الضحاك جالساً على ركبتيه احتراماً لابي مسلم ومع ما آنسه من انعطافه واقباله نحوه في اثناء الحديث فان هيبته مازالت غالبة عليهِ ولكنهُ كان يظهر اصغاءة واهتمامه بمراعاة حركة فمه لانه لم يكن يستطيع التفرس في عينيه لحدّتهما ولما ينبعث من نورهما الباهر وقوتهما الغالبة على الابصار والعقول . فلما تشاغل ابو مسلم بالنحنحة اظهر الضحاك رغبته في استتمام الحديث فقال ابو مسلم « اما سبب هذه العجلة فان ابن الكرماني بعث اليّ في صباح هذا اليوم بعد ذهابك مع رسول مستعجل يقول لي « لقد آن فتح مرو فادخل انت ورجالك من ناحية وادخل انا ورجالي من ناحية اخرى فنستلم المدينة على اهون سبيل » فظننته يقول ذلك مخادعة فبعثت اليه « لست آمن ان تجتمع يدك ويد نصر بن سيار على محاربتي ولكن ادخل انت فانشب الحرب مع اصحاب نصر ثم ادخل انا » وقلت في نفسي اذا كان قد فعل ذلك حيلة فلا يطيعني والاّ فليكن الخطر عليه فنهض برجاله وانشب الحرب فارسلت انا بعض رجالي دخلوا المدينة من ناحية اخرى ففتح علينا فدخلت هذا القصر وامرت ابن الكرماني ورجاله بالخروج منها الى معسكرهم لكي نتمكن من مشروعنا الذي تعلمهُ »

فذهل الضحاك لشدة ذلك الرجل ودهائه ونسي ما كان يتكلفه من الضحك في اثناء تماجنه ثم انتبه لذلك وخاف ان يشك ابو مسلم في شانه فتضاحك وقال « ان المشروع يامولاي عظيم الاهمية فهل انت مصرٌّ عليه »

قال « اين كتابي الى شيبان ؟ »

فمد يده واستخرجه ودفعه اليه فقال ابو مسلم « اني لا ازال مصرًّا على ذلك وربما زاد اصراري الآن بعد فتح مرو على يد ابن الكرماني لانه ارتفع في عيني نفسه فربما توهم له الفضل علينا فتحدثه نفسه ان يغلبنا ولذلك فاني لا آمنه ولابد من قتله لئلا يكون حجر عثرة لنا ... وقتله هين عليك بواسطة تلك الفتاة المفتونة ... فاذا قتلته خلسة سعينا في ضم رجاله الى رجال الامير شيبان ثم اسلم اليه قيادة هذه المدينة وامضي في عملي ... الاّ اذا كنت لاتثق بهذا الحروري وتخاف ان يخوننا اذا سلمنا الامر اليه .. »

قال « لاخوف منهُ فاذا عاهد وفى وخصوصاً بعد ان ملكت ناصية الامر وبايعك الناس .. »

فقطع ابو مسلم كلامه وقال « وهل لحظت ان البيعة لاهل بيت النبي عامة وليست لبني العباس لان الناس لم يعرفوا لبني العباس الحق في الخلافة بعد وانما هم يعرفونه لآل ابي طالب ولذلك جعلنا البيعة مشتركة فمن فاز من الرهطين كانت الخلافة لهم ... فلا اظن ذلك يؤخر الامير شيبان عن القبول بمحالفتنا .. »

قال « كلاّ يامولاي .. »

فقال « فعلينا اذن ان نبدأ بقتل ذلك الاعور كما وعدتني ولا تظن احداً ينال من المقام في امرنا ماستناله انت وساطلع الامام على فضلك »

قال « اني لم افعل غير مايجب عليَّ ولا اتوقع منك جزاءً غير رضاك »

قال « هل نقتله الليلة ؟ »

قال « ابذل جهدي في ذلك »

قال « انت تعلم طبعاً ان قتلهُ يجب ان يكون سرًّا فلا يدري رجاله الاّ انه مات موتاً طبيعيًّا .... »

قال « كن مطمئناً يامولاي » قال ذلك ونهض وحيّا ابا مسلم متأدباً وهمَّ بالخروج فوقف ابو مسلم لوداعه وقال لهُ « عرج بابراهيم الخازن لعلهُ ينفعك في هذه المهمة .. » فلما سمع اسمه تذكر الليلة التي لقيهُ بها في بيت الدهقان وهو يعلم مكرهُ وضعف ذمامهُ فقال « اين هو » فاشار الى مكانه في غرفة اخرى فسار الضحاك اليه على ان يتعاونا في الامر

الفصل الثالث والاربعون

اول الحيلة

فلنرجع الى جلنار فقد تركناها مع ريحانة بعد ذهاب الضحاك في مساء الامس وهي جالسة في فراشها ملتفة بالمطرف غارقة في لجج الهواجس فلما خرج الضحاك ظلت برهة ساكتة مطرقة تفكر بما سمعته منهُ وكلما تصوّرت اقدامها على قتل خطيبها ترتعد فرائصها ويقشعر بدنها . وكانت ريحانة تلاحظ اضطرابها ولا تلومها لعلمها بعظم ذلك الامر على فتاة لم تتعود مثله . وبعد ان تعبت من التفكير توسدت الفراش تلتمس الرقاد فظلت ريحانة جالسة بقربها حتى تحققت انها نامت فذهبت الى الرقاد

وما افاقت جلنار في الصباح الاَّ على قرع الطبول ونفخ الابواق فذعرت ونادت ريحانة فاستفهمت عما تسمعهُ . فقالت « رأيت الجند يتأهبون للهجوم على مرو » فخفق قلبها وتوكأت على ريحانة حتى اطلت من باب الخباء فشاهدت مثل ما شاهدته المرة الماضية وكانت قد أَلفت هذا المنظر فلم يكن خوفها مثلهُ في تلك المرة . ثم مالبثت ان رأت خطيبها يسوق جواده نحوها وهو مدجج بالسلاح وسيفه مجرد بيده فلما راتهُ مقبلاً توارت حياءً فناداها فاطلت فصاح والسيف مشهر بيمينه « ابشري ايتها الدهقانة اننا فاتحون مرو اليوم وسنبيت الليلة في قصر الامارة ان شاء الله »

فخجلت من قوله وساءتها تلك البشارة فتراجعت واستترت وراء ريحانة فاجابت ريحانة عنها قائلة « نصرك الله على اعدائك و بلغك مرادك »

فاكتفى عليٌّ بذلك وهجم ورجالهُ في اثره فلما بعدوا قالت ريحانة لسيدتها بالفارسية « اني ارى الخراسانيين ايضاً هاجمين » فاطربها ذكر الخراسانيين لان ابا مسلم فيهم وتقدمت بحيث ترى ذلك الجند فاذاهم يزحفون على مرو من الجهة الاخرى فقالت « اذا فتحوا مرو فانما يفتحونها ببسالة ابي مسلم . . . اين هو ياترى ؟ »

فتطاولت ريحانة وجعلت تتفرس في الفرسان حتى وقع بصرها على الراية واللواء وهما يناطحان السحاب بارتفاعهما فقالت « ينبغي ان يكون ابو مسلم هناك » فحدقت جلنار ببصرها في تلك الناحية فرات ابا مسلم وقد عرفته من طوله ولون فرسه ولباسه الاسود .فتهلل

وجهها فرحاً برؤيته ولكنها مالبثت ان اوجست خيفة عليه من النبال المتساقطة وسلمت امرها الى الله

ثم رات علياً دخل مرو من تلك الناحية ودخل ابو مسلم من الناحية الاخرى فتحققت فوزهم فلم تدرِ أتفرح بذلك الفتح ام تحزن لانها تذكرت وعد ابن الكرماني انهُ لايتزوَّج بها الا اذا فتح المدينة وتذكرت قول ريحانة انهُ لايستطيع فتحها فالتفتت اليها وقالت « كم قلتِ انه لا يقوى على فتح هذه المدينة وها قد فتحها .. و يلاه لقد دنا اوان الخطر » قالت ذلك ورجعت الى غرفتها وجلست على الفراش وغلب عليها البكاء وتبعتها ريحانة واخذت تخفف عنها عبثاً فقالت جلنار « اين هو الضحاك ياترى ؟ لعله يقدر على تخفيف مابنا »

فقالت ريحانة « لايلبث ان ياتي وعنده الدواء الناجع لهذه المصيبة ... »

فادركت جلنار تعريضها بقتل ابن الكرماني فقالت « ولكنه دواء امرُّ من العلقم ولا يمكني شربهُ ... كيف اقتل رجلاً يحبني وان كنت لا احبه »

وآن وقت الغداء فتناولتاه وهما تتوقعان ان يبعث عليٌّ اليهما بالانتقال الى قصر الامارة واذاهما تسمعان دبدبة وصهيلاً وضوضاء ثم علمتا ان جند الكرماني رجع عن مرو بعد فتحها وظلت لابي مسلم وحده ولم تفهما السرّ في ذلك فمكثتا تنتظران مايكون وجلنار خائفة من ذلك الفتح ثم نهضتا معاً وجلنار لم تعد تصبر عن ريحانة لاستئناسها بها في تلك الشدة حتى جلستا في غرفة الرقاد وجلنار تشكو وتخوف . فلما رات ريحانة قلقها قالت « لا ادري لماذا تكرهين ابن الكرماني وهو يستهلك في هواك ويجلُّ مقامك ويحترمك وخصوصاً بعد الذي أُوتيه من النصر بفتح هذه المدينة وقد انتقم لابيه .. »

فاسرعت جلنار ووضعت يدها على فم ريحانة كأنها تمنعها من الكلام اشمئزازاً من الحديث واكتفت بذلك جواباً • فادركت ريحانة انها لا تود الخوض في هذا الموضوع فسكتت وقد أخذتها الحيرة لا تدري كيف تنقذ سيدتها من ذلك المشكل • فتركتها في الغرفة وخرجت لتستطلع حال المعسكر بعد فتح مرو فوجدت الخيام لا تزال في اماكنها وقد أعيدت الخيول الى مرابطها وغرست الاعلام في مغارسها وتطلعت الى فسطاط الامير علي فاذا هو لا يزال كما كان والراية منصوبة ببابه وقد تزاحم وفود المهنئين والمنشدين • وسرها عود ابن الكرماني لانها كانت تظنه يبقى مع ابي مسلم في قصر الامارة فاطمأن بالها من هذا القبيل • وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب فالتفتت نحو مرو فرأت جماعات من الباعة خرجوا منها وفيهم من يحمل فاكهة او طعاماً او العاباً ليتكسبوا

بيعها في ذلك المعسكر بعد ان زال الحصار عن المدينة وكفت الحرب وشاهدت في جملة الخارجين رجلاً طويلاً قادماً نحو الخباء فما لبثت ان عرفت انه الضحاك فاستبشرت بقدومه وأرادت ان تسرع الى سيدتها فاشار اليها ان تقف فوقفت حتى اذا دنا منها اومأ اليها فدخلت معه الخباء بحيث لا يراهما احد فقالت « ما وراءك »

قال « هل من حيلة لنا في النجاة من ابن الكرماني غير قتله وقد فتح مرو وحق له الزواج الا اذا كانت مولاتنا تفضل الاقتران به وهذا يرجع الى خاطرها »

قالت « قد عرفت في هذه الساعة انها لا تستطيع ذكر الاقتران به »

قال « فاذاً ؟ »

قال « ولا تتصور الاقدام على قتله ٠٠ »

قال « وانت ايضاً جبانة مثلها ؟ »

قالت « اتريد ان أقدم انا على قتله وكيف اقتله ؟ »

فضحك وتماجن وقال « وهل القتل صياغة او تطريز ٠٠ ؟ ليس اهون منه على الانسان ولا يخيل لك ان المراد قتله بالمبارزة او المطاعنة وانما هي حسوة او لقمة وقضي الامر »

فسكتت ريحانة ولم تدر بماذا تجيبه ولكنها صعدت كتفيها كانها تقول « لا يعنيني ٠٠ »

فقال الضحاك والاهتمام بادٍ في وجهه « لا ينبغي لنا ان نطاوع مولاتنا الدهقانة في ضعفها فانها لا تعلم شيئاً من امور هذه الدنيا وهي مع ذلك تريد الوصول الى ابي مسلم والوصول اليه لا يكون الاّ بالخلاص من ابن الكرماني وقد اتيتها بخاتمه شهادة على ارادته فهي الآن احوج من ابي مسلم الى قتله لانهُ خطيبها وكنا قيدناه بعهده ان لا يقربها الاّ بعد فتح مرو وقد فتحت وهو الذي فتحها وتوافد عليه الشعراء والمهنئون وبلغ قمة مجده فهل من سبيل الى دفعه بغير الموت ولا يتم لنا ذلك الاّ بقتله سرًّا ٠٠٠ » ثم سكت وحكّ ذقنه بسبابته ثم حك وراء اذنه وقال « طيب ٠٠ انا لا اكلفك ولا اكلف الدهقانة ان تتوليا هذا الامر مباشرة ٠٠٠ فانا ادبر الحيلة ولكن ينبغي ان يكون ذلك بوجودكما وانا اسقيه ذلك الكاس باسلوب لطيف والاحسن ان لا تطلعي الدهقانة على هذا العزم انما اطلب اليك ان تسهلي الوصول اليه بحيث لا يعلم احد من العالمين بقصدي ٠٠٠ ايه ؟ »

فظلت ساكتة ولم تعلم بماذا تجيبه ولكنها كانت في كل حال اصبر على هذا الامر من جلنار وقد عاشرت الدنيا طويلاً على انها ما زالت مرتبكة لا تدري هل توافق الضحاك بغير استئذان سيدتها ٠ فلما رآها الضحاك ساكتة علم انها مرتبكة فقال لها « قد فهمت ما يجول

في خاطرك .. لا تخافي سيجري كل شيء ولا يشعر به أحد فاكتمي هـذا الامر عن الدهقانة وسترين كيف اعمل عملي بلباقة وخفة ... » قال ذلك وتحول وهو يقول «سأعود اليكم قريباً واحذري ان تبيحي بذلك الى احد »

فعادت ريحانة الى سيدتها وهي تفكر في ماذا عسى ان تكون حيلة الضحاك واسلوبه . فدخلت على سيدتها فسألتها عما كانت تعمله فاخبرتها بما شاهدته من بقاء معسكر ابن الكرماني على حاله بمرابطه وفساطيطه وسائر احواله وان علياً في فسطاطه كالعادة . وحدثتها نفسها ان تبيح لها بما قاله الضحاك فتمالكت وسكتت لترى ما يكون

الفصل الرابع والاربعون

الدب لرقاص

اما ابن الكرماني فبعد ان فتحت مرو عاد الى معسكره باشارة ابي مسلم وعاد معـه الامراء اليمنية وقد سرّهم الفتح بعد ان ابلوا بلاءً حسناً . وعاد ابن الكرماني توًّا الى فسطاطه ليبدل ثيابه ويستقبل المهنئين وكان في خاطره ان يذهب حالاً الى جلنار ليريهـا نفسه عائداً من ذلك الفتح ويخبرها انه انتقم لوالده كما وعدها بالامس . ولكنه أجل ذهابه الى ما بعد استقبال المهنئين والمنشدين في فسطاطه لئلا يتبعوهُ الى هناك . فجلس في صدر الخيمة وجلس أمراؤه بين يديه وهم يطنبون ببسالته وكل منهم يذكر ما لاقاه في اثنـاء المعركة من الوقائع الغريبة . ثم أذن للشعراء فدخلوا وأنشد كل منهم ما جادت به قريحته فاذا فرغ احدهم من الانشاد يشير الامير الى كاتبه ان يدفع اليه الجائزة على جاري العادة وفيهم من ينشد قصيدته على الانغام الموقعة على الطنبور او العود او الدف — قضوا في ذلك بقية يومهم الى قبل الغروب وقد طربوا جميعاً الاَّ علياً فقد نغصه غياب جلنار عن تلك الجلسة وود لو انها هناك لتسمع ما قيل فيه من المدائح

وهو في ذلك اذ سمع ضجيجاً يتخلله دفٌّ ينقرون عليه نقراً خاصاً بالرقص . ثم دخل غلامٌ يستأذن الامير في راقص مضحك معه دبٌّ غريب الشكل وكان الغلام يستأذن الامير ولا يتمالك عن الضحك كان اخرجه الاعجاب عن حدّ الاحتشام في حضرة الامراء

فقال الامير « يدخل .. »

فدخل رجل طويل القامة عرف الامراء كلهم انه الضحاك خادم الدهقانة وكانوا يستخفون دمه و يضحكون من مجرد رؤيته فلما دخل القى التحية وتماجن فلم يتمالك الامير عن الضحك وصاح فيه و يلك « اي متى صرت رقاصاً »

قال « حالما فتح مولاي الامير مرو عاصمة خراسان فقد نذرت منذ صرت من اتباعه ان ارقص يوم الفتح وقد جئت لافي نذري »

فضحك الامير وقد سرَّهُ ان يسمع ذلك الاطناب من رجل ينتمي الى الدهقانة لانه انما يهمُّه اعجابها هي — فكم من بطل خاض المعامع واستقبل النبال وعرض نفسه لاشد الاهوال التماساً لابتسامة حبيب يحبه . تلك هي لذة النصر في اعلى درجاتها — واراد عليٌّ ان يسأل عن الدهقانة فاحتشم بين يدي الامراء ولكنه استأنس بالضحاك كثيرًا وقال له « هل انت الرقاص حقيقة »

قال « كلاَّ يامولاي ولكن معي دبًّا يرقص رقصاً غريباً »

قال « اين هو »

قال « هو بالباب » وصاح « ادخل يا مبارك »

فتوجهت انظار الجميع نحو الباب فسمعوا خشخشة الجلاجل والاجراس ثم دخل الغلام وهو يقود رجلاً بحبل في عنقه وعلى الرجل جلد دبٍّ يكسو صدره وظهره وساقيه الى القدمين و يغطي ساعديه الى الكتفين وقد ستر وجههُ بوجه دبٍّ حتى لا يشك الناظر اليه انهُ دبٌّ حقيقي وشدَّ برجليه و يديه اجراساً وجعل حول عنقه جلاجل

فلما دخل الغلام سلَّم المقود الى الضحاك فتناوله وجرَّ ذلك الدبَّ بعنف فدخل واخذ في الرقص وهو يزمجر و يثب كما يفعل الدب تماماً . فلم يبق احدٌ من الجلوس الاَّ اغرب في الضحك والضحاك يتفنن في اساليب المجون . فلما تمكن الطرب من الامير احتال الضحاك في الدنو منه وقال بحيث لا يسمعه سواه « ان هذا المجلس لا ينقصه غير الدهقانة »

فلم يتمالك الامير عند سماعه ذلك ان صاح « يا ضحاك خذ هذا الدب وارقصه في الخباء وانا قادم اليكم » قال ذلك ووقف وقد استخفه السرور وهاجت عواطفه واسكره النصر فوقف سائر الامراء احتراماً له . فمشى حتى خرج من الفسطاط والضحاك يسير بالدب امامه وقد اقبل الظلام ولم يجسر احدٌ من رجال ابن الكرماني ان يتبعه الى الخباء

فمشى وحده وقد التف بعباءة من حرير وعلى راسه عمامة صغيرة مزركشة زركشة جميلة وسار هو يتبختر بمشيته تيهاً حتى اذا اقبل على الخباء تنحى الضحاك ودبّه لمرور الامير فدخل وهو يقول « اين عروسنا الدهقانة »

فتقدمت ريحانة وجلنار الى جانبها وعليها مطرفها وقد غطت راسها بخمار من نسيج كشمير وردي اللون وعيناها تتلألآن من خلال الخمار والحياء يغالبها ويزيدها رونقاً · فلما وقع بصره عليها حياها بالانحناء وهو يقول « لقد جئتك ضاحكاً لاني انتقمت لابي وغلبت صاحب مرو على مدينته ففرّ فرار الانذال وسوف اقتله باذن الله »

فاجابته ريحانة وهي تبتسم قائلة « لقد كنا على يقين من فوز الامير على عدوه لما نعلمه من بسالته وشدة بطشه فنحمد الله على فوزه »

ثم اشار الامير الى الدهقانة بالجلوس وهو يقول « وغداً ندخل قصر الامارة حسب الوعد »

الفصل الخامس والاربعون

النبيذ

فجلست جلنار وهي مطرقة ولم تتكلم فكان سكوتها افصح من الكلام · وظلت ريحانة واقفة فجلس الامير واشار اليها ان تجلس فتنحت وارادت الجلوس في بعض جوانب الغرفة فامرها ان تجلس بالقرب من سيدتها · ثم صفق ونادى الضحاك فدخل وهو يقود الدب وراءه فلما رأت ريحانة الدب لم تتمالك عن الضحك لغرابة منظره فوقف الضحاك والدب الى جانبه فامره عليّ ان يرقصه فجره بالمقود فلم ينتقل من مكانه فصاح فيه « ارقص ولا تخجلنا بين يدي الامير »

فلم يتحرك

فضحك الضحاك حتى كاد يستلقي ولما فرغ من ضحكه التفت الى الدب وهو يقول له « كأنك تستحي ان ترقص امام النساء »

فلم يبق احد هناك لم يغرب في الضحك وخصوصاً ابن الكرماني فانه قهقه قهقهة عظيمة فتظاهر الضحاك بالغضب من الدب وشده ثانية فظل واقفاً كانه صخر فتقدم نحوه

ووضع اذنه على فمه كانه يتلقى اوامره سرًّا وصبر هنيهة ثم تراجع وهو يضحك ويقول « لم أكن اعلم ان الدب يشرب الخمر قبل الآن . . »

فالتفت ابن الكرماني الى الضحاك وقال « يظهر انه تعود المسكر من عشرة رجال بني امية في مرو فقد رأينا في قصورهم مئات من آنية الخمر على انواعها واما نحن فلا نشرب غير النبيذ فاسأله هل يريد نبيذاً »

فعاد الضحاك الى مسارّة الدب ثم عاد عنهُ وقال « لقد رضي بالنبيذ . . . أليس ذلك غريباً ؟ واغرب منه انه لم يطلب النبيذ الاّ وهو في الخباء . . » وضحك

فقال ابن الكرماني « يظهران دبَّك الطف ذوقاً منك وليس النبيذ محرماً وخصوصاً في مثل هذا المجلس . . . هات النبيذ يا غلام »

ولم تمضِ هنيهة حتى جاء الغلمان وهم يحملون مائدة عليها اصنافٌ من نبيذ التمر والتفاح وغيرهما في اباريق الرصاص وحولها الاقداح من الزجاج الصافي الملوّن واوعز ابن الكرماني الى الساقي ان يدير الاقداح على الحضور . فجاء غلام ممنطق بمئزر من حرير وتناول قدحاً اراق فيه نبيذاً وقدمه الى الامير فتناوله وقدمه الى الدهقانة فاعتذرت عن شربه فعزم عليها فشربت بعضه واعادته اليه فشربه وامر الساقي ان يصب ويسقي الضحاك ودبَّهُ ففعل . ولما تقدم بالقدح نحو الدب اعرض الدب عنه فتقدم الضحاك وهو يقول « لقد بالغ دبنا بالدلال الليلة . . . هات القدح فاخذه من الساقي وقدمه الى الدب فتناوله بكفه الغليظة وشربه واعاد القدح الى المائدة بيده وهو يخطو بخطوات الدب المعروفة والجميع يضحكون . ثم عاد الى مكانه واخذ في الرقص من تلقاء نفسه واجاد وابدع والضحاك يطاوعه في تنقله كانه يرقص معه . ثم وقف الدب بغتة فقال الضحاك « لا ينبغي لنا ان نغفل عن مراد صاحبنا » واسرع الى قدح ملأه نبيذاً وقدمه اليه فتراجع ولم يمد يده فصاح الضحاك فيه « ما الذي تريدهُ لقد اتعبتنا بدلالك »

فتقدم الدب نحو المائدة ومدَّ يده الى الابريق فقبض عليه وجعل يصب في الاقداح حتى ملأها والناس ينظرون اليه وقلوبهم تدق خوفاً على المائدة وما فوقها من «لباقة» الدب فاذا هو قد ملأ الاقداح ولم يخطىء بواحد منها . ثم أخذها قدحاً قدحاً وقدمها الى الحضور فشربوا وهم مسرورون وشرب هو أيضاً واستحسنوا لباقة هذا الساقي . فصاروا يطلبون منهُ ان يسقيهم فسقاهم مراراً وجلنار لا تشرب الاّ قليلاً ثم امسكت عن الشرب . فظل الشرب قاصراً على الامير والضحاك والدب فانقضى هزيع من الليل وهم في ذلك وقد

أخذ الطرب من الامير مأخذاً عظيماً • وعند ذلك تظاهر الدب بالسكر وأفلت من يد الضحاك وخرج من الخباء والقدح بيده فتبعه الضحاك وتظاهر بمغاضبته وارجعهُ الى الخباء والقدح لا يزال في يده وتقدم نحو الامير فدفعهُ اليه وأخذ في الرقص • فتناول الامير القدح وشربهُ كالعادة ثم صبَّ الدب قدحاً وقدمهُ الى الضحاك فتناولهُ وشربهُ ثم صاح فيه « ويلك لقد اكثرتُ من الشرب واصبحتُ خائفاً على نفسي منك •• وأخاف ان لا يكون الامير متعوداً الشرب الكثير فيضرهُ ••• لاني مع تعودي النبيذ أعواماً اراني أشعر بدوار شديد » قال ذلك وتظاهر بالسقوط الى الارض وان الدوَّار غلب عليه وأحسَّ بالميل الى القيء فتنحى وخرج من الخباء وتقايأ ثم تقيأ كل ما في جوفه عنوة والامير يضحك منه ويقول « اني لا أشعر بالدوار مطاقاً »

وكان الضحاك قد ترك المقود عند خروجه فافلت الدب وخرج من الخباء وطاب الفرار • فازداد الامير ضحكاً وقهقهة ثم دخل الضحاك دخول المبغوت وصاح « اين ذلك الدب الملعون يظهر انه فرَّ فوالله لادركنه وأذيقه العذاب » قال ذلك وقهقه وأشار الى ريحانة اشارة خفية وخرج

فادركت ريحانة ان الضحاك قد انفذ حيلته وسقى الامير سماً فنهضت وتظاهرت بالدوار وقالت للامير « أرى مولاتي الدهقانة قد تأذت من الشرب ايضاً » وأمسكتها بيدها وهي تقول « الافضل لها ان تذهب الى الفراش••• هل يأمر لها مولاي بالانصراف »

فنهض وهو مشعر بالدوار ايضاً ولكنه تجلد وتظاهر بالقوة ووقف وهو يقول « فلننصرف جميعاً »

وصفق فجاءه الغلمان وأسندوه وخرجوا به من الخباء يطلبون فسطاطه • وذهبت ريحانة بالدهقانة الى غرفة الرقاد واشتغل الخدم في نقل آنية النبيذ من الخباء فلم تمض ساعة حتى خلا الخباء من الامير وغلمانه

فلما خلت ريحانة بسيدتها ظهر عليها الاضطراب فاستغربت جلنار ذلك منها فقالت وهي تتوسد الفراش « مالي أراك مضطربة يا ريحانة »

قالت بالفارسية وهي ترتعد من التأثر وتحاول خفض صوتها « اظنهم سموه يامولاتي »

فبغتت جلنار وجلست وهي تقول « سموه ••• قتلوه ؟ • »

قالت « نعم ••• الم تري الدب خرج بحيلة السكر الى خارج الخباء ثم عاد والقدح في يده ؟ »

قالت « بلى »

قالت « أظنهُ خرج ليضع السم في ذلك القدح •• وفي صباح الغد يظهر فعلهُ ونسمع بموت ابن الكرماني »

فاقشعر بدن جلنار وصارت ترتجف من البغتة والخوف ووقعت في حيرة فابتدرتها ريحانة قائلة « لا ينبغي ان تستسلمي الى الضعف •• فان هذا أوان التعقل والدهاء وقد قضي الامر الذي كنا نخافهُ •• »

فارتبكت جلنار في أمرها وأعظمت الجريمة على انها كانت وهي في معظم الاضطراب تشعر بفرح داخلي عميق لتخلصها من ابن الكرماني وتقربها من حبيبها

فأخذت ريحانة تخفف عنها وتمنيها بقرب الاجتماع بحبيبها حتى سكن روعها وتظاهرت بالرقاد ولكنها لم تستطع نوماً (١).

الفصل السادس والثلاثون

ارسلهُ الى خوارزم

اما ابو مسلم فكان ساهرًا في قصر الامارة ينتظر نتيجة ما دبره على ابن الكرماني والضحاك معاً بواسطة ابراهيم الخازن . فقد رأيت انهُ أوعز الى الضحاك ان يستعين بابراهيم المذكور على قتل ابن الكرماني فسار اليهِ واتفقا ان يلبس ابراهيم جلد دبة ليتمكن من دس السم في القدح على ما تقدم. ولكن ابا مسلم أوصى ابراهيم ان يقتل الضحاك ايضاً بالسم . وكان قد كلفهُ قبلاً كشف حقيقة الضحاك ليلة ذهابه الى شيبان فرافق ذلك القصاص وحمل

---

(١) وفي التاريخ ان أبا مسلم قتل علياً وعثمان ابني الكرماني بعد فتح مرو بالتفريق بينهما فارسل عثمان عاملاً على بلخ واوعز الى بعض اصحابه ان يقتلوه فامتنع ذلك عليهم. ثم احتال ابا مسلم على علي فسار به الى نيسابور لحرب اقتضت ذلك واتفق هو وأحد رجاله على ان يقتل ابو مسلم علياً ويقتل ذاك عثمان فقتلاهما غيلة • ولم يكتف ابو مسلم بقتلهما بل طلب من عليّ اسماء خاصته ليوليهم الولايات ويأمر لهم بالجوائز ويعطيهم الكسوات فلما سماهم امر ابو مسلم بقتلهم فقتلوهم جميعاً ولا ذنب لهم الاَّ خوف ابي مسلم من سطوتهم لئلاَّ يقفوا في سبيل مشروعه — تلك كانت سنتهُ في تأييد دعوتهِ

الطنبور وتظاهر بالرمد واسدل طرف العمامة على عينيه لئلا يفطن له احد . ولما كان شيبان وشبيب يتساران كان ابراهيم وراء خيمة شيبان يتظاهر بالنعاس وقد سمع كل مادار بينهما ونقله الى ابي مسلم في تلك الليلة . فلما عاد الضحاك ليلئذ خادعه ابو مسلم برغبته في محالفة شيبان ريثما يتمكن من قتل ابن الكرماني على يده ثم يقتله . ولما أوصاه باصطحاب ابراهيم تلك الليلة امر ابراهيم بقتله كما تقدم فسقاه السم في قدحه كما فعل بابن الكرماني . ولكن الضحاك ساقه طول اجله الى استفراغ معدته وهو انما فعل ذلك لتنطلي حيلته على ابن الكرماني و يدفع التهمة عنه فنفعه ذلك اذ اخرج السم من جوفه قبل ان يؤثر في معدته . اما ابراهيم فظن انه قام بمهمته وامات الاثنين فهرول مسرعاً وطرح عنه جلد الدب وجاء ابا مسلم ليبشره بذلك فوجده ساهراً في انتظاره فاخبره بما كان فسر ابو مسلم واثنى عليه ووعده خيراً

واما الضحاك فقد كان متفقاً مع ابراهيم على دس السم في قدح ابن الكرماني وان يخرجا فيلتقيان في طرف المعسكر ثم يذهبان معاً الى ابي مسلم فلما رأى ابراهيم افلت ظنه فعل ذلك عمداً على ان ينتظره في الموعد فاسرع في اثره فشعر في اثناء الطريق بطعم غريب في فيه واحس بانحطاط في قواه فنسب ذلك الى تأثير الشرب وخطر له انه ربما اصابه شيء من السم غلطاً فعوّل على الاستفهام من ابراهيم . فوصل الموعد فلم يجده فساء الظن فيه ووقف هناك واطرق مفكراً في مامرَّ به في هذين اليومين فانتبه لنفسه فترجح عنده ان ابامسلم خدعه وسايره حتى نال مراده بقتل ابن الكرماني ثم اراد قتله هو ليتخلص منه . لكنه لم يرَ سبباً يدعو الى ذلك لزعمه ان ابا مسلم لا يعلم انه من امراء الخوارج . فراى ان يذهب الى ابي مسلم و يلاقيه على حذر فسار الى قصر الامارة حتى اذا اقبل على باب القاعة سال الحارس عن الامير فقيل له انه في غرفته فاراد ان يستأذن في الدخول عليه ثم توقف ليعمل فكرته وكان الحارس قد عرفه من الامس ورأى ما كان من احتفاء ابي مسلم به بمجلس الضحاك اليه واخذ يضاحكه و يسايره حتى اطمأن اليه فساله عن الامير ومن عنده قال « عنده خازنه اليهودي»

قال « وهل هو يهودي حتى الآن ؟ »

قال « يتظاهر بالاسلام والاسلام بريء منه فان هؤلاء اليهود قد فرحوا بالاسلام لانه نجاهم من ظلم الاكاسرة والقياصرة واكسبهم الاموال من دولة العرب لانهم يعدون انفسهم من اقاربهم »

قال « وهل ابراهيم مع ابي مسلم الآن ام خرج من عنده »

قال « اظنه لا يزال عنده اذ لم يمض على دخوله زمن طويل »

قال « فاذاً هو مشغول الآن »

قال « وهل تريد مقابلته ؟ »

قال « كلاً . ولكنني لما جئت لمقابلته في اثناء النهار فبعد ان جلست في القاعة حيناً دخل بي الى غرفة أخرى ثم اخرجني من باب آخر كما علمت وقد نسيت في القاعة كتاباً كان معي فوضعته قرب مجلسي ولما نهضت نسيته فهل تظنه لا يزال مكانه »

قال « ينبغي ان يبقى هناك .. هل ابحث لك عنه ؟ »

قال « لا يجوز لك وانت حارس ان تترك هذا الباب اما اذا اذنت لي دخلت وبحثت عنه لحظة ثم اعود لاني اعلم بمكانه منك »

قال « تفضل واحذر ان تحدث صوتاً يشعر به الامير لئلا يغضب »

قال « كن مطمئناً » وخلع نعليه فتأبطهما ودخل القاعة وهي مظلمة فمشى وهو يتلمس الحائط نحو الغرفة التي علم ان ابا مسلم فيها مع ابراهيم فلما دنا من بابها سمع ابا مسلم يقول « هل انت على يقين من ارسالهما الى خوارزم »

قال ابراهيم « قد ارسلتهما حسب امر الامير واظنهما الآن في عالم الاموات »

قال « اخشى ان تكون أخطأت الرسالة ونسيت ذلك الحروري الذي يزعم انه يخادعنا ... عليه لعنة الله ... بقي عليّ ان اعهد اليك بأمر يهمني ولك منه نفع كبير وكسب كثير .. »

وكان الضحاك واقفاً بالباب يمسك انفاسه لئلا يسمع صوت تنفسه ويوشك اعظم اضطرابه ان يسمع دقات قلبه في أذنه فتجلد وأحس بارتعاش قدميه فقعد القرفصاء واصاخ بسمعه فاذا ابراهيم يقول « يأمر مولاي بما يريد »

فقال « بقي عليّ ان اتخلص من شيبان امير الخوارج فاذا قتلناه تبعثر جند العرب وخلصت الدولة لنا ... »

قال « رأيك هو الصواب .. هل تريد ان أرسله الى خوارزم كما أرسلت ابن الكرماني وشبيباً المامون ؟ »

قال « أخاف ان لا تنطلي عليه الحيلة اذ ليس لنا في داره فتاة مثل الدهقانة تهون علينا العمل والاحسن ان نستقدم شيبان الينا بحيلة المحالفة او المخابرة ونقتله ويخلو لنا الجو .. »

قال « ذلك هين عليّ اذ شئت فعلته »

وساد السكوت لحظة نخاف الضحاك ان يكون ابو مسلم عازماً على الخروج فاصاخ باذنيه فلم يسمع حركة فعلم انه يفكر ثم سمعه يقول « امض الآن وسأخبرك ماذا ينبغي ان تفعل »

فعلم الضحاك انهما سيخرجان فهرول القهقرى وودع الحاجب وهو يثني عليه وما صدق انه نجا وسار مسرعاً حتى خرج من مرو ومشى نحو معسكر الخوارج وهو يلعن ذلك اليهودي الذي كان سبباً في فشله . فمرّ في طريقه بمعسكر ابن الكرماني فخطر بباله خاطر انشرح له صدره لما توهمه فيه من السداد — ذلك انه قال في نفسه « لاذهبن الى امراء اليمنية اصحاب الكرماني واطلعهم على مكيدة ابي مسلم وانه قتل اميرهم غيلة وأحرضهم على الاتحاد معنا » فلما خطر له ذلك اختاج قلبهُ فرحاً فبدل ثيابه وأسرع يطلب فسطاط امير من اليمنية كان يعرفه فلما وصل الفسطاط اعترضه احد الخفراء فسأله عن الامير فقال « انه دخل مرو منذ ساعة »

قال « ولماذا ؟ »

قال « لان ابا مسلم دعا امراء اليمنية جميعهم اليه »

قال « وهل ذهبوا جميعاً ؟ »

قال « نعم »

فبهت الضحاك لذلك الدهاء وتحقق ان ابا مسلم بعث اليهم ليكونوا في قبضته فاذا اصبح الصباح وعلموا بموت ابن الكرماني كان هو في مأمن من عصيانهم فاحسّ بعظم دهاء ذلك الخراساني وسهره على مصلحته ووقف برهة يفكر في ما ذا يجب ان يفعله فلم ير له حيلة غير الفرار بالخوارج ريثما يجد سبيلاً للانتقام فأسرع نحو معسكرهم وهو يخاف ان يكون ابو مسلم قد دبر عليهم حيلة وقد غلب على وهمه ان هذا الرجل قادر على كل شيء فسار الى شيبان حتى اذا اقبل على فسطاطه دخل اليه وقصّ عليه ما وقع وقال له « لم يبق لنا فائدة من البقاء هنا فانصرف برجالك الى مكان نتربص فيه ريثما ندبر حيلة أخرى »

فتردد شيبان في الامر مدة ثم اقتنع بوجوب التنحي فامر بالاقلاع وطلب من الضحاك ان يصحبه فقال « دعني اتدبر الامر فاني غير تارك هذا الخراساني حتى انتقم منه شر انتقام » قال ذلك وخرج وأخذ شيبان في الاستعداد للرحيل

الفصل السابع والاربعون

الرحيل

أماجلنار فقد تركناها في غرفتها تحاول الرقاد ولا تستطيعه لهول ما شاهدته تلك الليلة من الامر العظيم وريحانة الى جانبها تخفف عنها وتفكر في الورطة التي وقعتا فيها وتبحث عن حيلة تنجوان بها من ذلك المعسكر قبل ان يصحح الامراء ويعلموا بموت ابن الكرماني فلا تدري كيف تخلص منهم • فتذكرت الضحاك فقالت لسيدتها « الآن وقت الضحاك قبحه الله انه لا يغيب عنا الا في وقت الحاجة اليه »

فقالت جلنار « واين هو يا ترى ؟ •• لا أظنه يتركنا الليلة وهو يعلم حالنا وما نحن فيه ولا بدّ من مجيئه عاجلاً »

فقالت ريحانة « واذا لم يأت ؟ »

قالت « اذا لم يأت •• الا ترين ان نحتال في الذهاب الى ابي مسلم في مرو ؟ »

فأطرقت ريحانة هنيهة ثم قالت « وما قولك بالرجوع الى بيت سيدي الدهقان فنقصُّ عليه ما وقع وهو لا شك اذا علم بفوز ابي مسلم وموت ابن الكرماني يرضى به بعلاً لك فتزفين اليه مكرمة معززة »

فشق على جلنار ان تعود الى بيت والدها وتبعد عن مقر حبيبها فقالت « ولماذا ذلك ؟ ألسنا على مقربة من مرو •• ؟ وقد كان ابو مسلم يؤجل امرنا حتى يقتل ابن الكرماني ويفتح مرو وقد تم له ما أراد فهل تظنين عنده سبباً آخر يدعو الى التأخير »

قالت « لا اعلم يا سيدي •• ولكن لو كان هذا هو قصده وهو يعلم بمقتل ابن الكرماني لوجب ان يرسل اليك من يحملك اليه الآن • » قالت ذلك واطرقت

فرفعت جلنار نظرها الى ريحانة وتفرست في وجهها لعلها تفهم شيئاً مستتراً وراء تلك العبارة فرأت ريحانة مطرقة وفي وجهها ملامح الارتياب فقالت لها « وماذا تعنين بذلك ؟ »

قالت « لا اعني شيئاً ولكنني اقول ما يجول بخاطري وانت تعلمين اني ارغب الناس في حفظ كرامتك • وعلى كل حال ان زفاف الفتاة من بيت ابيها احفظ لكرامتها • غير اني لا أشك بمقاصد ابي مسلم بشأنك ولكنني أحسبه مشتغلاً الآن بتدبير شؤونه بعد هذا

الفتح • فذهابك الى بيت أبيك والتربص ريثما يفرغ ابو مسلم من مهام الدولة لا يقلل شيئًا من حبه لك او رغبته فيك •• »

وبينما هما في ذلك سمعتا نحنحة في وسط الخباء فاجفلتا ثم عرفتا انها نحنحة الضحاك فهرولت ريحانة وهي تتعثر باذيالها من البغتة والفرح وظلت جلنار جالسة في الفراش وقلبها يكاد يطير من شدة الخفقان ثم رأت ريحانة عائدة ورجل يتبعها بقيافة غير قيافة الضحاك فبغتت لكنها ما لبثت ان علمت انه الضحاك وقد تنكر بثوب آخر هو عبارة عن قلنسوة طويلة بدون عمامة وجبة سوداء طويلة مثل زي اهل خراسان وقد قص لحيته وأحفى شاربيه وقص اطراف حاجبيه وقطبهما فذهبت من وجهه امارات المجون وابطل التضاحك بحيث لا يراه أحد الا أنكره • فلما عرفته جلنار هشت له كما تهش لاقرب الناس اليها وابتسمت وهي تقول « لقد صدق ظني انك لا تتركنا ونحن في هذه الحال ••؟ ما الذي اصاب ذلك الرجل ؟ هل تظنه يموت ؟ »

قال « اظنهُ مات لاني رأيت اهل فسطاطه في هرج واضطراب »

قالت « فما العمل الآن ؟ »

قال « ارى ان ترجعي الى بيت سيدي الدهقان »

فلما سمعت ريحانة قوله التفتت الى سيدتها ولسان حالها يقول « ألم أقل لك ذلك »

فقالت جلنار « وكيف نذهب ؟ »

قال « نذهب بأخف ما عندنا وانا أدبر ذلك ولكنني اتقدم اليك منذ الآن ان تكتمي أمري عن كل انسان »

فاستغربت طلبه وقالت « وماذا تعني ؟ »

قال « اعني اني رهين اشارتك ولا ازال عبدك وخادمك بكل ما تامرين ولكنني لا احب ان يعلم احدٌ في الدنيا اني لا ازال حياً ولا تسأليني عن السبب الآن ... اما اسمي الجديد فهو صالح »

فقالت « سأفعل ذلك ... فما العمل يا صالح ؟ »

قال « سأُعدُّ كل شيء حتى تتمكن من الرحيل في الصباح باكرًا والناس في شاغل عنَّا »

قالت « ألا ترى ان نصبر الى الغد لعلَّ ابا مسلم يبعث بمن يستقدمنا اليه »

قال « الامر راجع اليكِ اذا شئتِ بقينا ولكنني لا ارى ابا مسلم يبعث اليكِ غداً ولا بعد غدٍ .. »

فلم تستغرب قوله لانها سمعت مثلهُ من ريحانة ولكنهُ لم يعجبها فقالت « وكيف لا يبعث اليّ وانت قلت لي انهُ انما أخر اجتماعنا ريثما يفرغ من الحرب ويقتل هذا المسكين على يدنا فأطعناه فهل من سبب آخر للتأجيل ؟ »

فقال « لا .. ولكن ابا مسلم اليوم في شاغل عظيم من امر هؤلاء اليمنية بعد مقتل اميرهم فاذا لم يتلاف امرهم خاف عصيانهم او انحيازهم الى الخوارج ... ومهما يكن من الامر فان الذهاب الى بيت ابيك احفظ لكرامتك وليس ثمة ما يمنع ابا مسلم ان يطلبك من مولاي الدهقان فتزفين اليه معززة مكرمة .. »

فلم ترَ جلنار بدًّا من طاعته فاذعنت واشارت اليه ان يفعل ما يشاء

فقال لها « مري الخدم ان يطيعوني ولا تقولي لهم اني الضحاك »

فاشارت الى ريحانة ان تفعل ما قالهُ فخرجت ريحانة وقالت لقيمة الخباء « ان هذا الرجل بعث بهِ مولانا الدهقان الليلة ليرجع بنا اليه في الصباح فاعملوا باشارته » فاخذ الضحاك في تدبير ما يلزم استعداداً للمسير

الفصل الثامن والاربعون

عريس جديد

اما الدهقان فقد علمت انه انما زوّج ابنته بابن الكرماني طمعاً بالكسب على يده لاعتقاده بقوة الكرماني وكثرة رجاله ولاستخفافه بابي مسلم لقلة رجاله وصغر سنه واضمر في باطن سره انهُ اذا انقلبت الآية ورجحت كفة ابي مسلم تقرب اليه بالاموال والرجال. فكان لا يغفل عن استطلاع احوال الجنود المعسكرة حول مرو وكانت الاخبار تاتيه تباعا وكلها تدل على نجاح الخراسانيين وتغلبهم. حتى اذا جاءه الخبر بدخول ابي مسلم مرو بمساعدة ابن الكرماني مع بقاء هذا في معسكره تحقق فوز الخراسانيين ولبث يتوقع فرصة يتقرب بها من ابي مسلم وهو يظنه غير عالم بزفاف جلنار الى ابن الكرماني. فلما وصله الخبر بدخول ابي مسلم مرو بعث اليه بالهدايا والاموال وكتب اليه يهنئه بالنصر وانهُ باذل جهده في جمع كلمة الدهاقين على نصرته — كل ذلك وهو لا يعلم بموت ابن الكرماني فما عتم ان جاءه الخبر بقدوم ابنتهِ فخرج لاستقبالها وقبلها ورحب بها وبالغ بالترحاب وهو يستغرب قدومها .

ولما سألها عن سبب مجيئها لم تتمالك عن البكاء فاجابت ريحانة انها ستخبره عن السبب في خلوة فاخرج من في حضرته من الناس فقالت ريحانة « ان مولاتي الدهقانة تبكي حرقةً على سوء حظها »

قال « ولماذا ؟ . . ماذا جرى ؟ »

قالت « ان خطيبها توفي في هذا الصباح بغتة »

قال « علي بن الكرماني مات ؟ »

قالت « نعم ياسيدي مات بغتة على غير انتظار »

فاطرق وهو يحكُّ ذقنه ويعمل فكرته وقد ثبت عنده انتصار الخراسانيين وفشل العرب فذهبت بقية آماله ونظر الى جلنار فاذا هي مطرقة تبكي فظنها تبكي على عريسها وهي انما تبكي شوقاً لحبيبها وخوفاً من ضياع آمالها لانها كانت تتوقع ان ترى منه اهتماماً بامرها ولم تكن تنتظر اشتغاله عنها الى هذا الحد . فلما رآها الدهقان تبكي حنَّ لها وقال « لا تبكي ياجلنار ولا باس عليك . . » ثم وجه خطابه الى ريحانة وقال « سمعتك تسمين ابن الكرماني خطيباً وانت تعلمين انا عقدنا له عليها وزففناها اليه . . »

قالت « نعم ولكنه لم يتزوَّجها بعد » واحكت له ما كان من اشتراطه على نفسه فتح مرو قبل الاقتران وانهُ مات في الغد بغتةً

فلما علم بذلك انقشعت غياهب الفشل عن قلبه ورأى في عود جلنار اليه على تلك الصورة باباً جديداً للتقرب من ابي مسلم لاعتقاده ان ابا مسلم يرغب في مصاهرته . فنظر الى جلنار وهو يبتسم تخفيفاً لاضطرابها وقال « لا باس عليك ياولداه اني ساعوض عليك من ابن الكرماني من هو خير منهُ واقرب الينا وطناً ولغةً ومشرباً »

فادركت جلنار انه يشير الى ابي مسلم فانشرح صدرها وعادت آمالها الى الانتعاش لان اباها اصبح عوناً لها في الوصول الى حبيبها وامنت من الجهة الاخرى اذا تزوَّجت ابا مسلم بغير علمه ان يغضب عليها ويعدَّ عملها خروجاً عن طاعته . فلما سمعت قولهُ قالت « انك تعزيتي الوحيدة يا والدي ومن كان لها اب مثلك لا باس عليها وانت تعلم اني طوع ارادتك بكل ما تريد »

ثم اشار اليها ان تذهب الى غرفتها للراحة من عذاب السفر فنهضت وريحانة تسير بجانبها فاذا بوالدها يقول « واين الضحاك اني لا اراه معكم »

قالت ريحانة « لاندري ما اصابهُ فقد ذهب بالامس ونحن في معسكر الكرماني

ثم لم نرهُ ... »

قال « وكأني رأيت معكم رجلاً عليه القلنسوة والجبة فمن هو هذا »

قالت « هو رجل من اهل مرو اسمه صالح جاءنا به ابن الكرماني يوم الفتح واضافهُ الى الخدم بدلاً من الضحاك ولا بأس به »

ومشى الدهقان والدهقانة وسار كل منهما الى غرفته وفي نفسه انه خدع صاحبه لمصلحته . واخذ الدهقان يفكر في السبيل المؤدي الى نيل الحظوة في عيني ابي مسلم بعد ان اصبح صاحب الامر والنهي في خراسان فصمم بعد طول التفكير ان يهديه الهدايا و يزوجه ابنتهُ ولكنه تربص في انتظار جوابهِ على تهنئته التي كتب بها اليه يوم الفتح

لبث في الانتظار يومين وفي اليوم التالث جاءه رسول ابي مسلم ومعهُ كتاب يثني به عليه و يستقدمه اليه ليقيم بين يديه . فلما تلا الكتاب لم يتمالك ان اسرع الى جلنار واطلعها عليه فكان سرورها اعظم من سروره ولكنها احبت ان تتوثق من امر مسيرها معه فقالت « وهل انت عازم على المسير الى مرو ؟ »

قال « وهل استطيع غير ذلك . »

قالت « ومتى تذهب ؟ »

قال « ربما ذهبت غداً »

قالت « ألا تحمل اليه الهدايا والاموال ؟ »

قال « لابدَّ من ذلك لان الرجل اصبح ملك خراسان واظن دعوته ناجحة لا محالة فيجب ان نبذل كل جهدنا في التقرب منهُ .. وارجو ان تساعديني على ذلك »

قالت « اذا كنت استطيع مساعدةً فاني فتاتك ورهينة اشارتك »

قال « وابو مسلم اذا اطعتني فيه لم يبق شك في فوزنا على يدهِ لان النصر تقرَّر لهُ وقد اخبرني الرسول حامل الكتاب ان الخوارج اجلوا عن مرو ورجال الكرماني الذي بقوا احياء بعد موت قائدهم انضموا الى جند ابي مسلم وهو الآن زعيم القوم وامير مرو ولا يلبث ان تذعن لهُ سائر بلاد خراسان وما وراءها لان رجالهُ لم ينفكوا وهو محاصرٌ مرو يفتحون البلاد و يضمون اليهم العباد يبايعون لاهل البيت و يلبسون السواد ... فالتقرب منهُ مفيد فلا اظنك تخالفينني فيهِ »

فادركت بانه يعرض بامر زواجها بهِ فقالت وقد اشرق وجهها سروراً رغم ما تكلفته من السذاجة « اذا كنتُ لم اخالفك في ابن الكرماني وهو بعيد عنا جنسا ولغة فكيف

برجل خراساني وهو كما وصفته .. فاذا امرتني اطعتك »
قال « بورك فيك من ابنة مطيعة حكيمة » وضمها الى صدره وقبلها ثم قال « فانا ذاهب في الغد وسأغتنم اول فرصة لمخاطبته بشانك ثم ابعث اليك فتاتي بموكب يليق بمقامنا »
فعلمت انهُ لا ينوي اصطحابها فرضيت بما اراده وانتعشت آمالها فاظهرت الارتياح الى رايهِ ولكنها كانت تفضل الذهاب معهُ فقالت « وما يضرُّك لو سرت معك فادخل مرو واتفرج بمناظرها ريثما يتم لك ما تريده »
فاطرق لحظة ثم قال « لا باس من ذهابك معي فانزلك عند صديق لي من دهاقين مرو اعهدهُ يقيم في قصره بجوار دار الامارة »
ففرحت جلنار بذلك وظهر الفرح في وجهها فامر الدهقان خازنهُ ان يعدَّ الاموال ليحملها معهُ الى مرو وان يعدُّوا الهدايا من الرقيق والثياب وغير ذلك

الفصل التاسع والاربعون

مجلس ابي مسلم

وفي صباح اليوم التالي ركب في كوكبة من الفرسان وحمل الهدايا في حملة تسير في أثره ومعها هودج جلنار وريحانة ومشى صالح مع الخدم . وفي الضحى وصل الموكب الى مرو يتقدمه رسول ابي مسلم . فدخلوا المدينة وساروا حتى اقبلوا على دار الامارة فامر الدهقان ان ينزلوا جلنار في قصر صديقه بقرب تلك الدار فانزلوها وترجل هو ورجال حاشيته يمشون بين يديه وعليهم الالبسة الفاخرة وبمناطقهم السيوف المحلاة بالذهب كما يسار بين يدي الملوك فمشوا على هذه الصورة في فناء الدار والناس يوسعون لهم حتى أقبلوا الى باب القصر وعليه الخفراء فاستأذنوا للدهقان بالدخول فاذن له ان يدخل وحده وان يحول رجال حاشيته الى دار الاضياف فدخل الدهقان وعليه قانسوة حولها عمامة موشاة بالذهب وقد تزمل بجبة من الخز فوقها مطرف من الحرير المزركش يساوي مالاً كثيراً . وكان قد نزع سيفه وسلمه الى بعض الخدم السائرين بين يديه
دخل القصر ومشى في الصحن الداخلي حتى وصل الى القاعة التي ينعقد فيها مجلس ابي مسلم ومعه نقباؤه وقواده فدخل الدهقان القاعة وفي صدرها ابو مسلم على كرسي

والى جانبه خالد بن برمك وسليمان بن كثير وجماعة من النقبا فلما اقبل على ابي مسلم رحب به فحيَّاهُ وتقدم فأمر له بالجلوس بين يديه فجلس متصدراً وأعاد التحية فقال له ابو مسلم بالفارسية « نشكرك على هداياك ايها الدهقان »

قال « اني لم أهد شيئاً وانما قدمت ما يجب عليّ لان المصلحة واحدة »

قال ابو مسلم « بل انت تفضلت ... ولا ننسى ضيافتك يوم نزلنا عندك »

فانشرح صدر الدهقان لذلك الاطراء وقال « كل ذلك واجب وقد فعلته لان الدعوة التي قمتم بها ينبغي على كل خراساني او فارسي ان ينصرها لانها عبارة عن نقمة الفرس على العرب »

فنظر ابو مسلم الى خالد فرآه ينظر اليه ثم حولا نظرهما معاً الى الدهقان فاذا هو يزداد تصدراً ويده في لحيته يمشطها بانامله فقال له ابو مسلم « هل كنت عالماً بذلك قبل الآن ؟ »

فاستغرب الدهقان هذا السؤال وأوجس خيفة منه لعلمه ان ابا مسلم قليل الكلام كثير المعاني فقال « كيف لم اكن اعرفه ؟ ألا تذكر مجلسنا تلك الليلة يوم تلوت علينا وصية الامام وتعاقدنا على نصرة هذه الدعوة لانها دعوة يجب على كل فارسي نصرتها »

قال « اتذكر نص تلك الوصية ؟ »

قال « اذكر فحواها »

قال « وما هو فحواها ؟ »

فتعجب الدهقان من تدقيقه وازداد خوفاً مماوراء ذلك ولكنه تظاهر بالاستخفاف وقال « اذكر انه يوصيك ان لا تبقي في خراسان لساناً عربياً وان تقتل من شككت فيه »

فنظر ابو مسلم في الدهقان نظر المتفرس فلم يطق الدهقان صبراً على تلك النظرة خوفاً من عواقبها فاطرق فقال له ابو مسلم « وهل عملت بهذه الوصية ؟ هل سعيت معنا على العرب أعدائنا ... ؟ » قال ذلك بغنة المرتاب وتجاهل العارف

فتجلد الدهقان وقال « كيف لا وانا لم ادخر وسعاً في بذل الاموال واستنهاض الدهاقين لنصرة هذه الدعوة » وكان الدهقان يظن ابا مسلم غير عالم بزفاف جلنار الى ابن الكرماني كما تقدم

فقال ابو مسلم « أَمن نصرة العجم على العرب ان تزف ابنتك الى ابن الكرماني ومعها الهدايا من الرقيق والمال ؟ »

فوقع الرعب في قلب الدهقان ولم يعلم بماذا يجيب وبدت البغتة في وجهه ورقصت لحيته وارتعشت انامله ولكنه تجلد وقال وهو يتضاحك « ان زفاف ابنتي الى ذلك العربي انما كان قبل الاجتماع المذكور »

فقال « الا تذكر ان الفتاة كانت في بيتك ليلة ذلك الاجتماع وقد جالستنا ؟ »

فارتبك الدهقان في أمره واخذ يتشاغل باصلاح قلنسوته ومطرفه ويبلع ريقه ويتنحنح وقد امتقع لونه ولم يسعه السكوت فقال « اعني اننا عقدنا عقدها قبل تلك الليلة ورأيت من الفتاة ميلا الى ابن الكرماني فسايرتها في ما ترضاهُ لانها وحيدتي »

قال « اصحيح ما تقوله . . ؟ »

قال « هذا هو الصحيح ورأس الامير »

فقال « واذا كنت كاذباً »

فلما سمع الدهقان ذلك زاد رعدة حتى صار ينتفض والتفت الى من حوله من القواد والنقباء لعله يجد بينهم من ينصره فرآهم مطرقين لا يستطيع احدٌ منهم ان يفوه بكلمة فلم ير بدًّا من الجواب لان السكوت اقرار بالكذب ولم يكن يخطر له ان ابا مسلم مطلع على سرّ ابنته فقال « حاشا لي ان اكذب بين يدي الامير »

فقال ابو مسلم « ان العقد لم يتم الاَّ بعد زيارتنا وابنتك لم تكن راضية بذلك العربي وانما انت رضيته لها استخفافاً منك بدعوتنا وتزلفاً الى العرب وقد جادلتك هي بشأنهِ في الليلة التي كنا فيها عندك وانت مصرٌّ على تزويجها به »

فلم يبق أحد من الحضور حتى خالد بن برمك الاَّ وقد دهش لاطلاع ابي مسلم على هذه التفاصيل مع اشتغاله بمهام القيادة العامة وتدبير شؤون تلك الدعوة وجعلوا يتلفتون بعضهم الى بعض والدهقان يكاد يموت خوفاً وقد جمد الدم في عروقهِ وودّ لو خسفت الارض وابتلعته في تلك اللحظة ولم يحر جواباً . واستولى السكوت على تلك الجلسة هنيهة والكل هادئون لا يتحركون كان على رؤوسهم الطير لو داهم احدهم السعال بلع ريقه تسكيناً لما يحتك في أعلى الصدر . ثم قطع ابو مسلم السكوت وقال وقد وجه خطابه الى النقباء « فما قولكم بهذا الخراساني الذي سمع وصية الامام بابادة العرب فنصرهم وصاهرهم ثم هو يقول انه ينصرنا ؟ »

فلم يجب احدٌ منهم بكلمة لعلمهم انه لا يستشيرهم وانما هو يهدد الدهقان ثم قال لهُ « فانت اذاً لم تحفظ وصية الامام فبدلاً من ان تنصر الخراسانيين نصرت العرب وقد نصرتهم

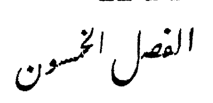
وهم أعداؤنا . اما انا فلا يمكنني الا حفظ تلك الوصية وخصوصاً آخر فقرة منها اتعلم ما هي ؟ »

فادرك الجميع مراد ابي مسلم حتى الدهقان نفسه وفهموا انه يشير الى قول الامام « من شككت فيه فاقتله » فنظر الدهقان الى ابي مسلم نظر المستغيث . فقال ابو مسلم « ان طاعة الامام أولى من طاعة كل انسان وهو اوصاني ان اقتل من أشك فيه وقد شككت فيك فلا يمكنني غير قتلك » ثم نظر نحو الباب فدخل اربعة على كل منهم دراعة من الجلد الى اسفل الركبة عليها رشاش من الدم وعلى رأسه قلنسوة طويلة ذات شعبتين عليها شيء من آثار الدماء وحول الدراعة منطقة من جلد فيها سيف . فلما دخلوا علم الدهقان أنهم الجلادون وسمع ابا مسلم يقول لهم « خذوا هذا الخائن الى خوارزم »

فعلم الدهقان انه يأمرهم بقتله فنهض وترامى على قدمي ابي مسلم وجعل يتضرع ويتوسل وهو يبكي ويقول « اصفح يا مولاي عن ذنبي فاعطيك كل ما أملك .. »

فاجابه ابو مسلم وهو ينظر الى سقف القاعة وقال بصوت ضعيف « أن مالك لنا قتلت او بقيت حياً » فاما لم يرَ الدهقان اصغاءً من ابي مسلم تحوّل الى خالد بن برمك وترامى عند قدميه واستشفعه فرقّ خالد ولم يكن احد يجسر على مراجعة ابي مسلم في شيء غيره فهمس في أذنه كلاماً فقال ابو مسلم « قد اجلنا قتله الآن خذوه الى السجن لننظر في امره »

فتقدم الاربعة وساقوا الدهقان بين ايديهم حتى خرجوا به من باب سري يؤدي الى غرفة مظلمة جعلوه فيها ولا سبيل لاحد اليه



الفصل الخمسون

الشفاعة

أما جلنار فانها نزلت في قصر ذلك الدهقان بجوار دار الامارة وقد استأنست بقرب الحبيب . فانزلها صاحب القصر بين نسائه فلاقت عندهن كل اكرام واحتفاء وخصوصاً من الدهقانة صاحبة المنزل لانها كانت تعرفها وتعرف والدتها قبلها على ان جلنار كانت لا تستأنس

باحد لاشتغال خاطرها بابي مسلم وماذا عسى ان يدور بينه وبين والدها بشأنها وكانت تختلس الفرص لتخلو بريحانة وتحادثها بما يهمها من الشؤون ريثما يعود والدها من تلك الزيارة . فاقبل الظهر واهل البيت ينتظرون مجيء الدهقان ليأكلوا معاً فلما أبطأ ظنوه اكل على مائدة الامير فتغدوا وجلنار اكثرهم قلقاً على غيابه ليس خوفاً على حياته لان ذلك لم يخطر ببالها بل حباً بمعرفة ما يدور من الحديث بشأنها

قضت بقية ذلك النهار وهي على مثل الجمر وريحانة تعدها وتمنيها حتى امسى المساء فلاحظت في اهل القصر تغيراً ورأتهم يجتمعون ويتسارون واذا لقوها تظاهروا بالمجاملة والمحاسنة فاشتغل خاطرها وشكت ذلك الى ريحانة فقالت لها « وانا لحظت ذلك فيهم »

فقالت جلنار « لا بدّ من امر حدث لوالدي .. »

وما اتمت كلامها حتى جاء بعض الخدم يقول لجلنار « ان أحد خدمكم بالباب » فنهضت ريحانة وتبعتها جلنار حتى اقبلتا على الباب فاذا هناك صالح (او الضحاك) وفي وجهه أثر البغتة فقالت ريحانة « ما وراءك ؟ »

قال « ادخلاني الى مكان لا يسمعني منه احد سواكما »

فدخلتا به الى غرفة واقفلتا الباب فجلس وجلنار يتعاظم قلقها وقلبها يخفق خفقان متسارعاً حتى بدأ صالح بالكلام فقال لها « هل سمعتِ بما حدث اليوم في مجلس ابي مسلم »

قالت « كلاَّ »

فقصَّ عليها ما دار بين ابي مسلم ووالدها كانه كان حاضراً حتى بلغ الى امر ابي مسلم بقتل والدها فاقشعر بدنها وامتقع لونها ثم اخبرها بتوسط خالد في العفو عنه وانهم اجلوا قتله وحبسوه فلما سمعت ذلك استغربته وظنت نفسها في حلم وقالت « حكم على والدي بالقتل ! ولماذا ؟ »

قال « لانه زفك الى ابن الكرماني ورغب في مصاهرته وهو عربيٌّ وكان مولاي الدهقان يتظاهر بحزبه الفارسي وابو مسلم يقتل على الشك كما لا يخفى عليك .. »

فاطرقت ثم التفتت الى ريحانة كانها تستطلع رأيها فرأتها أشد حيرة منها فنظرت الى صالح وقالت « هذا أوان المروءة وصدق الخدمة » وترقرق الدمع في عينيها

فوقف صالح وقال « اني رهين امرك يا مولاتي والذي أراه . » وسكت فازدادت جلنار قلقاً لتردده فقالت « قل ما الذي تراه »

قال « لا أرى أحداً يقدر على التوسط في ذلك سواك »

فجاء قوله موافقاً لما في خاطرها لانها طالما تمنت مقابلة ذلك الحبيب وقد جرى ما جرى بينه وبينها ولم يتخاطبا ولا تشاكيا مع اعتقادها انه يحبها . وكانت في اول سماعها الحكم على والدها قد عزمت على الذهاب بنفسها لمخاطبته بشأنه اذ لا بدّ من ان يجرهما الحديث الى التشاكي فيطمئن خاطرها وتستوثق من حبه . فلما اشار صالح بذهابها انبسطت نفسها وبان البشر على وجهها ووقفت بغتة بدون ارادتها فقال لها صالح « اتذهبين الآن ؟ »

قالت « لا بدّ من ذلك لان الفرصة قصيرة واخاف ان يعجل الامير بقتل والدي قبل الغد »

فقال « حسناً تفعلين وانا استأذن لك بالدخول على يد الحاجب فقد عرفته وهو الذي قصّ عليّ حديث اليوم ... انهضي غير مامورة وتخمَّري ريثما اعود اليك بالاذن » وخرج

فتحولت جلنار الى حجلة هناك يصلح اهل القصر شعورهنّ فيها واصلحت من شانها اصلاحاً بسيطاً والتفّت بالمطرف المزركش ولفّت راسها بشال موشّى فقالت ريحانة « هل اذهب معك يا مولاتي ؟ »

قالت « لا اظن ذهابك معي موافقاً اذ ربما لا ياذن لنا بالدخول معاً وانا احب ان اخاطبه على انفراد »

ثم جاء صالح وهو يقول « قومي يا مولاتي قد اذن الامير بمقابلتك »

فنهضت وقد تسارع خفقان قلبها وتصاعد الدم الى وجهها ومشت مع صالح والليل قد سدل نقابه فخرجت من باب القصر ولم تمشِ خطوات قليلة حتى اطلت على باب القاعة وصالح يمشي بجانبها . فلما دخلت الى هناك قال « لا يخلو دخولك على هذا الامير من باعث على الحذر فكوني على يقين اذا شعرت بضيق اني آتيك كما تاتي المردة ولكن احذري ان تناديني باسمي القديم .. »

فاوجست من هذا التحذير خوفاً ولكنها شغلت عن التفكير به بما هاج في خاطرها من مقابلة ابي مسلم وهي اول مرة ستخاطبه بها في خلوة مع ما في قلبها من لواعج الحب له وعوامل الاعجاب به . فاوصلها صالح الى الباب واشار الى الحاجب فوقف لها وادخلها القاعة وقد وسع لها ستر الباب بيده فرأت قاعة كبيرة في بعض اركانها مشمعة عليها شموع منيرة . وفي صدر القاعة رجل متكئ على وسادة وعليه ثياب الامارة كانه في مجلس الحكم . فسبقها الحاجب حتى وقف بين يدي الرجل وقال « قد اتت الفتاة التي استاذنت

في الدخول على الامير»

« فقال ابو مسلم « اين هي » واشار بيده الى الحاجب فخرج ومشت جلنار وهي تخطو اثويتا ورجلاها لا تساعدانها على السرعة لما داهمها من الرعشة لدخولها وحدها على ابي مسلم والرجال الاشداء يرتعدون في حضرته فكيف بفتاة مفتونة وقد قاست الصعاب في سبيل الحصول على رضاه — والفتاة ترتعد بين يدي حبيبها وهو مستهلك بها فكيف بمن يخشى الناس غضبه واذا شكّ قتل

الفصل الحادي والخمسون

الحديث

وكان ابو مسلم متكئاً على وسادة فلما اقبلت جلنار جلس وعليه العمامة السوداء والجبة السوداء وقال لها بالعربية « اهلاً بالدهقانة »

فاجابته بالفارسية « لست دهقانة وانما انا أمتك »

فاشار اليها ان تقعد فقعدت على وسادة بين يديه وقد احست بالخلوة المطلقة مع رجل تحبه وتعتقد انه يحبها فغلب عليها الحياء تمازجه رعشة الحب ثم تذكرت والدها وانها اتت من اجله فلبثت تنتظر ما يقوله ابو مسلم فقال لها بالفارسية « اراكم لا تحبون من الفرس الا لغتهم واما في ما خلا ذلك فانتم عرب »

فادركت انه يعرّض بالسبب الذي حكم على والدها من اجله فرفعت بصرها اليه فلم تستطع التفرس في وجهه واحست كان سهاماً ترشق من عينيه الى عينها وكانّ نوراً باهراً يسطع من حدقتيه فيبهر الناظر اليها . فقالت وهي تنظر في البساط « وكيف نكون عرباً وقد بذلنا النفس والنفيس في سبيل الفرس .. ؟ على اننا لو اردنا ان نكون عرباً ما استطعنا الى ذلك سبيلاً »

قال « وانت ايضاً تتعمدين خداعي ؟ »

فلما سمعت ما في كلامه من الجفاء رأت غير ما غرسه الضحاك في ذهنها من حبه لها على انها حملت ذلك منه على شدة غضبه من والدها فقالت « حاشا لله ان اخادعك وما

انت ممن يخدعون لأنك تخترق اعماق القلوب بعينيك وتكشف غوامض الاسرار بذكائك فانى لفتاة حقيرة مثلي ان تتجاسر على خداعك ولكنني اقول لك الواقع »

فقطع ابو مسلم كلامها وقال « الواقع ان اباك قد خدعنا فاظهر التقرب منا والنصرة لنا على حين انه كان يخابر ابن الكرماني ليصاهره وقد زفَّ ابنته اليه . هل تنكرين ذلك ؟ »

فلم تستطع جلنار ردًّا على هذا القول فرأت ان تاتيه من باب الاستعطاف بالحب فقالت « لاريب ان والدي ارتكب خطأً كبيرًا بزفافي الى ذلك العربي ولوعلم ما في قلبي . . . » قالت ذلك وتنهدت « لمـا رضي به . . ومع ذلك فان ذلك العربي المسكين لم ينل من آماله غير الفشل . . »

فقال « يكفي ان اباكِ خادعنا واوجب الشك فيه فحلَّ لنا قتله عملاً بوصية الامام صاحب هذه الدعوة »

فصاحت « العفو يامولاي اعف عن والدي وان كان ذنبهُ كبيرًا . . . اعفُ عنه لان تلك المصاهرة كانت سببًا في تعجيل امر العرب بمقتل اميرهم . وهب ان والدي فعل ذلك رغبة عن ابي مسلم فان في هذا القلب (واشارت الى صدرها) من الحب لهُ ما لو تفرق في عشيرة لكان كل منهم عاشقًا » وشعرت بعد الفراغ من قولها انها تسرَّعت ولكنها لم تستطع صبرًا وقد ارادت ان تستطلع ما في قلبهِ ليطمئن بالها

اما هو فلما سمع تصريحها بحبه استغربه منها وعدَّه تهورًا فاغضى عنهُ وقال « اني اشكركِ على حبك ايتها الدهقانة ولا انكر انك خدمتِ مصلحة الخراسانيين غير ان ذلك لايبرر والدك من ذنبه »

فاستغربت جوابه البارد على خطابها الحار وقالت « ألا تزال تذكر ذنب والدي في جانب استهلاكي في حبك . . ؟ »

قال « لا تقولي حبي بل قولي حب دعوتي ومصلحة خراسان »

فزاد استغرابها لتنصله من الحب الى هذا الحد وشعرت انها تتكلم في وادٍ وهو في واد فقالت « بل في حبك ايها الامير »

قال « وما الباعث الى ذلك والحب في مثل هذه الحال ينتهي بالزواج وانا لا مأرب لي في النساء على الاطلاق بل انا اعدُّ الزواج جنونًا وقد تزوَّجت امرأة ويكفي للانسان ان يجنَّ في زمانه مرة واحدة . واعلمي ياجلنار اني لو كنت ممن يتفرغون للنساء ما استطعت

القيام بالدعوة التي انا قائم بها ..» (١)

وكانت جلنار تسمع كلامه وقلبها يكاد يتمزّق من الغيظ وخيبة الامل لكنها تجلدت وقالت وصوتها يرتجف « الم تكن تحبني من قبلُ ؟ »

قال « لم احبك ولا احببت سواك من النساء ولا اريد ان احب امرأةً »

قالت « الم تقل لرسولي انك احببتني منذ رأيتني وانك تؤجل الزواج الى مابعد الفراغ من الحرب »

قال « اظنك تعنين ذلك المهزار المنافق فقد قتلتهُ جزاءَ خيانته وهل تصدقين قولهُ ؟ »

فتذكرت جلنار وصية الضحاك انهُ لا يريد ان يعلم احد ببقائه حيًّا فسكتت عن ذكره ولكنها مازالت مقتنعة بصدقه لاختبارها اياه من قبل ولانها رأت غيرتهُ عليها وتفانيه في خدمتها فترجح عندها غدر ابي مسلم وانه استخدمها واستخدم الضحاك في تنفيذ غرضه لقتل ابن الكرماني ثم قتل الضحاك فخافت اذا جادلتهُ ان يغضب و يامر بقتلها وليس اهون عليه من القتل . فاستجمعت رشدها وعمدت الى الملاينة ربما تنقذ والدها فقالت « لا تغضب ايها الامير فاني لم احبك من اجل الزواج ولكنني احببت مناقبك وسجاياك .. »

فادرك ابو مسلم انها تخادعه خوفًا من غضبه فخادعها وقال لها « وانا احببت مناقبك وشكرت غيرتك ونصرتك »

فلما سمعت تلك المجاملة منهُ وتحققت انه لا يحبها اخذت تشعر بانقلاب حبها الى بغض ولكنها لم ترَ بدًّا من استعطافه لانقاذ والدها فقالت « فانقدم اليك ان تهبني ذنب والدي وان تعفو عنهُ وتستبقيه »

قال « ذنب والدك لا يغفر لانهُ يعدُّ خيانة »

فقالت « هب انه خيانة فاجعلهُ في مقابل خيانتي ابن الكرماني في سبيل نصرتك وهو زوجي .. »

قال « انك لم تقتليه في سبيل دعوتي بل قتلتهِ رغبة في زواجي »

قالت « وهل تعدُّ ذلك ذنبًا لي ؟ وفي كل حال فقد ساعدتكم على قتل الرجل مع انه زوجي افلا تكافئني على قتله بالعفو عن والدي ؟ »

قال « اتعدين ذلك فضيلة فيك وهي خيانة ثم تتوقعين ان اتزوَّجك ومن يضمن لي انك لا تقتلينني . اما والدك فلا تتعبي نفسك بشانهِ ولو اردت ان اطاوعك في العفو عنهُ

---

(١) ابن الاثير ٥ وابن خلكان ١

ولا سبيل الى ذلك وقد سبق السيف العزل »

فنهضت ثم جثت بين يديه وهمت بتقبيل ركبته واذرفت الدمع وهي تقول « استحلفك بالامام ابراهيم صاحب هذه الدعوة ان تعفو عن والدي لاني اصبحتُ بعد جفائك لا كفيل لي سواه » قالت ذلك وصوتها يتقطع وتكاد تشرق بدموعها

فدفعها بيده وحول وجهه عنها وهو يقول « قلت لك قد سبق السيف العزل ولا سبيل الى حياة والدك »

فاجفلت وتراجعت وقالت « ماذا تعني ؟ .. لا سبيل الى حياته ؟ هل قتلته . »

قال « نعم »

فصاحت « قتلته ! لا لم تقتله لانك أجلت النظر في امره الى الغد ... بالله الا صدقتني الا شفقت على شبابي وابقيت على والدي ... انا المسكينة .. » واغرقت في البكاء حتى كاد يغمى عليها

ولم يكن ذلك ليغير شيئاً من قلب ذلك الرجل الشديد ولم يجبها على بكائها الا بقوله « قلت لك انه قد سبق السيف العزل ... واذا كنت لا تصدقين فاريك اباك مرأى العين » ثم صفق فدخل غلام فقال « ائتني بالدهقان »

فلما سمعتهُ يقول ذلك انتعشت آمالها وتوهمت انه لا يزال حياً فاتبعت الغلام بنظرها فرأته دخل دهليزاً في جانب القاعة ثم عاد وفي يده طبق كبير فوقه غطاء وتقدم به حتى وضعه بين يديها وكشف الغطاء فرأت رأس ابيها في قاع الطبق وقد تجمد الدم حوله وتلطخت لحيته وشارباه واشتبك شعر رأسه وتلوث بالدم وعيناه لا تزالان مفتوحتين واتفق اتجاههما نحوها كانهما تنظران اليها . فلما وقع نظرها عليه لم تتمالك ان صاحت « ووالداه ! والتفتت الى ابي مسلم وقد غاب رشدها ولم تعد تفقه ما تقول ولطمت خديها وصاحت « قتلته يا ظالم !! ويلاه ووالداه .. » وأخذت في البكاء حتى دوت القاعة بصوت نواحها

فقال لها ابو مسلم « اسكتي او ارسلك الى خوارزم حالاً »

فادركت انه يهددها بالقتل ولكنها لم تكن تبالي بالموت لفرط حزنها فقالت « ارسلني الى حيث شئت .. لم يبق للحياة عندي قيمة بعد خيانة حبيبي ومقتل والدي » وعادت الى البكاء بصوت عال

فصاح ابو مسلم بالحاجب فجاءه فقال « خذ هذه الفتاة الى سجن النساء ولولا خوفي ان يقال اني قتلت امرأة لامرت بقتلها »

الفصل الثاني والخمسون

الفرار

فمشت جلنار مع الحاجب وهي تصيح « واولداه » وتبكي حتى اذا دنت من باب القاعة سمعت الحاجب يكلمها همساً ويقول « لا تخافي يا سيدتي لا بأس عليك »

فعرفت انه صوت صالح فنظرت في ثيابه فاذا هي ثياب الحاجب فاستغربت وصوله الى تلك الحيلة ولكنها كانت لا تزال في شاغل من امر والدها ولا تزال صورة رأسه الماطخ بالدم نصب عينيها . فلما خرج بها من الباب رأت في الدهليز شبحاً نائماً وبقربه ثياب فالتقط صالح الثياب بخفة ودفعها الى جلنار وقال لها « البسي » فاذا هي جبته وقلنسوته فلبستهما بسرعة ومرّا في الدهليز وليس فيه احد حتى بلغا الى الباب الخارجي خرجا ولم يعترضهما الخفراء لاعتقادهم انهما الحاجب وأحد الخدم . فلما خرجا من دار الامارة مشى بها صالح في ازقة ضيقة قلما يسلكها الناس حتى وصلا الى خان عند باب المدينة يعرفه صالح فنزلا في حجرة يصعد اليها بسلم وقد قطعا الطريق ولم يفه احد منهما بكلمة

فلما نزلا الخان ودخلا تلك الحجرة اخذ صالح في تخفيف الامر على جلنار فقال لها « ألم الح لك غير مرة انه خائن غادر . قد سمعته ينكر ما قاله لي عن حبه لك وافتتانه بجمالك ولكن أنى لي ان اكذبه وهو صاحب السيف ولا شفقة عنده ولا عهد له ولم اكن اعلم انه فعل ذلك خداعاً حتى يستخدمنا في قتل ذلك الرجل المسكين ثم يقتلنا وقد أراد قتلي معه فاوصى الرجل الذي أرسله معي لقتل ابن الكرماني ان يدس السم في قدحي ايضاً ففعل ولو لم تساعدني الاقدار ويغلب عليّ التقيؤ سريعاً لكنت الآن في عالم الاموات وهو يعتقد اني قتلت وقد قال لك ذلك الليلة على اني لم اكن أظنه يتعمد أذيتك او اذية مولاي الدهقان . ولو علمت انه يرتكب هذه الفظيعة وينكر حبك لمنعتك من الذهاب اليه — وان كنت لا أظنك تعباين مشورتي بالامتناع عن زيارته لما غرس في قلبك من الحب له وحسن الظن به . ومع ذلك فقد أوجست خيفة

وهيأت ما يلزم للفرار بك عند الحاجة فاغريت الحاجب حتى اسكرته ولبست ثيابه وتزييتُ بزيه لأتمكن من انقاذك وقد توفقت الى ذلك بحول الله »

وكانت جلنار تسمع كلامه كانها في حلم لما مرَّ بها تلك الليلة من الغرائب — رأت رأس ابيها في طبق وقد تلطخ بالدماء وسمعت جفاء حبيبها فانقطع رجاؤها من الحب وذهبت آمالها ادراج الرياح فاستغرقت في التأمل وصالح جالس بين يديها ثم قال لها « اتأذنين لي ان اذهب لاستقدام ريحانة »

فانتبهت وقالت لا بدّ من ذلك ... اذهب حفظك الله ... »

فقال لها « اعطني جبتي وقلنسوتي ... »

فخلعتهما فلبسهما وهو يقول « امكثي في هذه الحجرة ولا تخرجي منها حتى أعود » وخرج وأغلق الباب وراءهُ

فجلست وقد خلت بنفسها في تلك الحجرة الحقيرة . فتلفتت فلم تجد حولها الا جدراناً عارية عليها رفوف من الخشب قد سمرت فيها وعلى الارض حصير بال فوقه فراش قذر والمكان على اجماله موحش يزيده ضعف نور السراج وحشة . وتصورت قصر والدها وما كانت فيه من النعيم وما قد بنته من قصور الآمال وكيف أضاعت تلك النعم وتهدمت تلك القصور في ساعة فقتل والدها وخانها حبيبها وخرجت هاربة تائهة لا تعرف مقرها .. وفكرت في أسباب ذلك الشقاء فلم تجد اللوم يقع على غير ابي مسلم وتصورت ما كان له من الحب في قلبها وكيف قابلها بالجفاء وهددها بالقتل بعد ان فتك بوالدها . فانقلب حبها الى بغض شديد واصبحت لا تستطيع تصوره — تلك هي العادة في مثل هذه الحال فان المحب اذا رأى من حبيبه غدراً او خيانة انقلب حبه بغضاً شديداً وأصبح من اكره الناس لهُ فكيف بجلنار وقد انتهرها حبيبها وخانها وقتل والدها وان كان في الحقيقة لم يخن حبها لانه لم يعاهدها ولا اظهر لها الحب ولكنها كانت تعتقد ذلك بناءً على شهادة الضحاك . وان كنا لا نبرىء ابا مسلم من الشدة والقسوة ولعل عذره انه كان يكره النساء ويعدُّ الزواج جنوناً بل هو لا يعرف عواطف المحبين لانه لم يكن يحب ولا يشعر بالحب . وذلك نادر في الناس والحمد لله لان الحب يدمث الاخلاق ويلطف الطباع وهو ابو الشفقة وشقيق الحنان ولولاه لأكل الناس بعضهم بعضاً . لان الذي لا يحب لا يرحم ولا يشفق فيذهب الضعفاء ضياعاً لتسلط القوة الحيوانية . وانما تصلح هذه الخصلة في رجال الحرب وخصوصاً في ذلك العصر عصر الشدة والبطش وقد كانت في ابي مسلم بأعلى درجاتها

لانهُ كان لا يبالي ان يقتل أخاه أو أباه اذا وقف في سبيل مقاصده فلما علم بتلاعب الدهقان بادر الى قتله ليتخلص مما قد يخطر له من الخيانة او نحوها ولو كان في صدر ابي مسلم قلب يحبُّ ما صم أذنه عن استغاثة جلنار ولا خطر له ان يكافئها على حبها له بعرض رأس والدها في طبق بين يديها

قضت جلنار في مثل هذه الهواجس حيناً واستغرقت في ذلك حتى نسيت نفسها ثم انتبهت لانفرادها في تلك الحجرة لا تسمع الاَّ شخير الخيل او صهيلها وضرب الارض بالحوافر وقد غلبت رائحة الدواب على كل طيب — وكفى برائحة الخان مثلاً للقذارة والنتانة • وتذكرت بيت ابيها ومقتل والدها فغلب عليها الحزن فعادت الى البكاء ولم ترَ ما يفرج كربها سواه • فبكت حتى بلت ثيابها وهي تحاذر ان يعلو صوتها لئلا يسمعها احد فيأتي اليها وهي منفردة على هذه الصورة فتعاظم امرها عندها والمصيبة العظمى تظهر ساعة وقوعها صغيرة في عيني صاحبها ثم تنجلي له فتتعاظم عندهُ حتى تبدو كما هي فاذا طال صبره عليها تصاغرت حتى تزول — وكذلك جلنار فانها لم تدرك عظم مصيبتها لاول وهلة فلما خلت بنفسها واطلقت العنان لتصوراتها اخذت مصيبتها تنجلي لها وتتعاظم عندها وابو مسلم السبب الرئيسي في كل ذلك وكانت الى تلك الساعة اذا ذكرته احست بشيء كالانعطاف دو فيه دلك الحب الصادق على ان دلك الشعور لم يكن يمكث الا كلمح البصر ثم يزول ويخلفهُ الغضب وحب الانتقام

الفصل الثالث والخمسون

البغتة

على انها تعبت من تلك الهواجس مع ما كانت فيه على اثر تلك الصدمة فغلب عليها النعاس فغمضت عينيها لحظات قليلة رأت في اثنائها حلماً طويلاً ظهر فيه ابو مسلم بصورة الحبيب كما شاهدته للمرة الاولى في بيت والدها وانهُ جاملها ولاطفها فتشاكيا وتعاتبا وتذكرت وهو يلاطفها ما كان من جفائه بقتل والدها وخيانة عهدها فتوهمت ان ذلك الجفاء كان في الحلم وانها عادت الى اليقظة فرأت حبيبها على عهده ثم مالبثت ان

استيقظت فرأت حلمها يقظة و يقظتها حلماً . ولكن شبح ابي مسلم كان لايزال مرسوماً امامها بصورة الحبيب فجعلت تخاطبهُ وتعاتبهُ قائلة « اهذه شروط المحبة عندك ياقاسي القلب ؟ . . نقتل ابي وتخون عهدي ثم تهددني بالقتل حتى اقنع بالفرار سالمة تحت خطر القتال . . »

وهي تناجي نفسها على تلك الصورة اذ سمعت خشخشة وصئياً ورأت شيئاً مرَّ بين يديها مرور السهم فاجفلت ووقفت رغم ارادتها ونظرت فاذا هو جرذ دخل الحجرة من ثقب في الحائط تحت الباب وانصرف الى ثقب تحت بعض الجدران فقفَّ شعرها وأصبحت تخاف الجلوس على ذلك الحصير فوقفت وكان لوقوفها حركة عظيمة لانها افزعت جرذاً كان كامناً وراء الفراش فنفر وكان لعدوه على الحصير خشخشة عظيمة شغلت جلنار عن هواجسها ومصائبها واصبح همها تجنب الجرذان وغيرها مخافة ان تمس يدها أو رجلها . وحدثتها نفسها ان تخرج من الحجرة ولكنها لم تتجاسر على ذلك لانها لاتعرف احداً في الخان . فاستبطأت صالحاً وخافت ان يكون لابطائه سبب يبعث على الخطر فضاقت الدنيا في عينيها . واذا هي بنحنحة صالح في فناء الخان فخفق قلبها سروراً وتهيأت لملاقاته واصغت لتسمع وقع قدميه على السلَّم وتتبع وصوله الى تلك الحجرة فلم تسمع شيئاً فاستغربت ذلك وتوهمت انها سمعت هتاف بعض الارواح من الجان فاقشعر بدنها وجمد الدم في عروقها وظلت واقفة في مكانها لاتجسر على المشي ولا على القعود وقد أمسكت تنفسها مبالغة في الاصغاء . فمضت عدة دقائق وهي لاتسمع غير دقدقة حوافر الدواب واصوات شخيرها ثم سمعت صوتاً لم تشك انهُ صوت صالح وهو يقول « اعدد كل شيء ريثما اعود . . » ثم سمعت خفق نعالهِ على السلَّم فاطمأَنَّ خاطرها واسرعت نحو الباب وفتحتهُ فرأت صالحاً وحده والبغتة ظاهرة على وجهه فقالت « اين ريحانة . . »

قال « هي هنا . . هيَّا بنا سريعاً للخروج من هذه المدينة قبل اقفال ابوابها علينا . . وهذه الخيول معدة في فناء الخان » قال ذلك واخذ يبحث عن جبة الحاجب وقلنسوته وكان قد تركها هناك عند ذهابه فخلع قلنسوته وجبته ولبس تلك باسرع من لمح البصر ثم مشى بين يدي جلنار

فتبعتهُ على السلم وهي تتعثر باذيالها من البغتة فضلاً عن اختلال الدرجات وليس فيها درجة مثل صاحبتها ولما وصلا الى فناء الخان رات جلنار ثلاثة افراس مسرجة وريحانة واقفة بجانب واحد منها فقال صالح « اركبي يامولاتي على هذا الفرس » واشار الى ريحانة فركبت فرساً وركب هو فرسهُ واشار الى صاحب الخان فامر رجلاً ان يسير في ركابهم ليعود

بالخيول . فساق صالح فرسه اولاً وهو يقول لجلنار « تثبتي على فرسك يامولاتي واتبعينا » واوصى الرجل ان يبقى الى جانبها ليساعدها عند الحاجة

مشى الركب على هذه الصورة وكلهم سكوت وجلنار تصبر نفسها عن استطلاع السبب الذي اوجب هذه العجلة . وبعد قليل وصلوا الى باب المدينة فوجدوه موصداً على جاري العادة من ايصاده عند الغروب فصاح صالح بالبواب صيحة رجل له سلطان فبغت البواب واسرع فقال له صالح « مابال بابك لا يزال مقفلاً ألعلك كنت نائماً عند ما جاءتك الاوامر بفتحه منذ ساعة ؟ . »

فلما رآه البواب يخاطبه بهذه الجسارة وعليه ثياب الحجاب صدقه وخاف شكواه لانه بالحقيقة كان عند العشاء غائبا وقد ذهب ليتناول الطعام في منزله ولم يخطر له ان يرسل الامير من يامره بفتح الباب . فلما هدده صالح ظن الامر جاءه في اثناء غيابه وخاف الشكوى لعلمه بشدة ابي مسلم فهم بالاعتذار فقطع صالح كلامه قائلاً « لاباس الآن اسرع وافتح الباب لان مهمتنا مستعجلة كثيراً ولا وقت لنا لاستماع الاعذار »

فاسرع الرجل وفتح الباب وما صدقوا انهم اصبحوا خارج المدينة وساقوا خيولهم وصالح دليلهم وكلما قطع مسافة تفقد جلنار وريحانة والليل مظلم ولكنه كان خبيراً بتلك الارض يعرف الطرق السهلة والصعبة والجهات الماهولة وغير الماهولة . فلما بعدوا عن مرو امسك عنان جواده حتى حاذى جواد جلنار وسالها هل احست بالتعب فقالت « نعم تعبت ولكنني لم افهم سبب هذه العجلة . . »

قال « ساخبرك عند وصولنا القصر . . »

قالت « واي قصر . . »

قال « قصر مولاي الدهقان فاننا على مقربة منه . . »

فاطمان بالها لقربها من بيت ابيها وبعد قليل اطلوا على القصر فاسرع صالح حتى اتى الباب فطرقه وصاح بالبواب « افتح ان الدهقانة قادمة فبغت البواب ولم يصدق حتى سمع صوتها تناديه ففتح لهم فدخلوا بالافراس وترجلوا في الحديقة ومدّ صالح يده وناول الغلام كيساً وامره بالرجوع فركب احد الافراس وساق الفرسين وراءه ورجع الى مرو

وكان اهل القصر نياماً فامرت الدهقانة البواب ان لا يوقظ احداً منهم الى الصباح ودخلت وصالح وريحانة معها الى القاعة والدها وهي على مثل الجمر لاستطلاع الخبر . فلما دخلوا قالت « قل ما وراءك ياصالح لقد اقلقت بالي . . »

قال « ان الذي ستسمعينهُ اعظم من ذلك ··· اذ لا ينبغي لنا ان نبيت هنا ولذلك اسمحي لي ان آمر باعداد الخيول من مرابط والدك للسفر باسرع ممكن ·· »

قالت « افعل » فخرج وهو يعرف مرابط الخيل فايقظ السياس وامرهم ان يعدوا ثلاثة من جياد الخيل السهلة القيادة وعاد الى القاعة وجلنار وريحانة في انتظاره على مثل الجمر فلما دخل جلس جاثياً وقال « اعلمي يامولاتي اني لما رجعت لاستقدام ريحانة مررت بدار الامارة فرايت الناس في هرج ومرج ثم علمتُ ان ابا مسلم علم بفرارك فامر بالبحث عنك في غرف الدار وما يجاورها وانهم اذا لم يجدوكِ بعثوا من يامر بوابي المدينة بمنع الناس من المرور الا من عرفوه او اتاهم بجواز فهرولت الى قصر صاحبكم الدهقان وناديت ريحانة واتيت بها من طرق خفية حتى وصلت الى الخان فتنحنحت حتى تشعري بقدومي ثم امرت صاحب الخان باسراج الافراس وذهبت لاستقدامك فركبنا وجئنا الى هنا كما ترين »

فاعجبت بدهائه وغيرته وقالت « وما هو الباعث على سرعة خروجنا من هذا القصر »

قال السبب ياسيدتي ان ابا مسلم سيبعث في صباح الغد من يقبض هذا القصر وما فيه وقد سمعته يقول ذلك وهو يهدد المرحوم والدك بالقتل وخصوصاً بعد ما يعلم بفرارك ولا يجدك بمرو فلا بد من ان يبحث عنك في هذا القصر وهل في وسعك الوقوف في وجهه وهو صاحب السلطان وليس في قلبه شفقة ولا حنان »

فزادت مصيبتها بذلك الخبر ضخامة لانها كانت تظن نفسها اذا يئست من الدنيا أوت الى بيت ابيها فتقيم فيهِ وتعيش عيشة الملوك وتتناسى مقتل والدها بالزواج من احد الدهاقين فلما سمعت كلام صالح غصت بريقها ولم تتمالك عن البكاء وقالت « الا يكفي هذا الظالم قتل والدي وخيانة عهدي حتى يضع يده على اموالنا وضياعنا » · قالت ذلك واوغلت في البكاء وشاركتها ريحانة في ذلك فقال صالح « ان البكاء لا ينفعنا يامولاتي بل هو يزيد المصيبة ضخامة وليست هذه الحطام مما يطمع فيه بعد ذهاب صاحبها دعي ابا مسلم يفعل ما يريد وسترينهُ نائلاً جزاءه باذن الله ··· سوف ننتقم منه انتقاما ينسيك كل هذا العذاب »

فلما سمعت الوعد بالانتقام ارتاحت نفسها اليه — ولا يشفي قلب الموتور الا الانتقام وقد سرّها ان صالحاً بدأ بذكر الانتقام ووعدها بهِ فقالت « انتقم لي منه ··· »

قال « انتقم لك ولي ·· الم يامر بقتلي ولولا التقادير لذهبت مع ابن الكرماني في ساعة واحدة ولكن الله ابقاني لانتقم لك »

فقطعت جلنار كلامه وقالت « ان الاقدار دبرت ذلك لحسن حظي لاني لولاك ما عرفت كيف يكون مصيري .. فالآن كيف العمل ؟ »

قال « ينبغي لنا قبل كل شيء ان نحمل ما في هذا القصر من خفيف الحمل وغالي الثمن ... اعهدي اليّ بذلك وانا اهتم بتدبيره »

فالتفتت جلنار الى ريحانة وقالت « ريحانة تعرف كل شيء »

فقال لها « اخبريني عن اماكن النقود والحلي واذهبي واتيني بها . وانا باقٍ هنـا في انتظارك .. »

فنهضت ونظرت الى جلنار فقالت لها « لا تتركي شيئاً من الحلي ولا النقود ولا تنسي ثيابي .. اختاري منها أحسنها وامري الخازن ان يعطيك مفتاح خزانة والدي لعله ابقى فيها شيئاً لم يحمله الى ذلك الخائن ... »

فقالت ريحانة « ان هذه الاموال تحتاج الى دابة او دابتين لحملها »

قال « مري السياس ان يعدّوا بغلين مع الافراس التي امرتهم باعدادها »

الفصل الرابع والخمسون

الوسيلة

فخرجت ريحانة وظل صالح مع جلنار فقال لها « اريد منك يا مولاتي ان تتخلقي باخلاق الرجال وتخلعي عنك ضعف النساء فاننا مقبلون على عمل عظيم يقتضي لهُ صبرٌ ودهاءٌ فاذا كنتِ لا تصبرين على التعب او لا تريدين الانتقام اخبريني منذ الآن ولا تتعبي نفسك بالاسفار .. »

فقالت « اذا كنت لا اريد الانتقام فما الحيلة وانا لا استطيع الاقامة في هذه الديار وكيف لا احب الانتقام من رجل سلبني اهلي ومالي واخرجني من بيت ابي طريدة شريدة وخان عهدي وهددني بالقتل فاذا كنت انت تريد الانتقام لانه اراد قتلك فكيف وانا موتورة بقتل والدي .. ولا تحسب خيانة العهد اخف وقعاً في نفسي من اليتم ...

ولا لوم عليَّ اذا اردت قتله وانا فتاة فهو الذي علمني قتل الرجال وانت تعلم كم ترددت يوم اقترح علينا قتل ابن الكرماني وكم استعظمت تلك الجريمة ثم ارتكبتها التماساً لقربه وضحية لحبه فكافأني بالخيانة والغدر فلا غرو اذا انقلبت عاقبة سعيه عليه . . »

قال « اذا كنتِ مصممة على ذلك فانا طوع ارادتك في كل ما ترين فيه مصلحة وسنتباحث في الطرق اللازمة . واما الآن فلا بدَّ لنا من معرفة الخطة التي يجب علينا اتخاذها في العمل لاننا لا نقدر على هذا الرجل بالسيف وهو صاحب القوة ولا نقدر عليه بالدهاء والبطش وهو ادهى الناس واشدّهم بطشاً . . . فلا بدَّ من حيلة نحتال بها عليه »

فاحست جلنار بقصر باعها في هذا الشان وبان الارتباك في وجهها

فابتسم صالح وقال « لا تقنطي يا مولاتي ولا تظني اني اسالك لقلة الوسائل عندي ولكنني استطلع رايك »

فانبسطت نفسها وقالت « كيف اعرف الوسائل وانا لم اخرج من بيت والدي قبل تلك الخرجة المشؤومة فدبر انت ما تراه وانا اسير معك . . »

قال « ذلك ما كنت ارجوه من تعقلك وحزمك . . فاعلمي يا مولاتي اننا لا نقدر على الكيد لابي مسلم الاَّ في الشام عند الامويين فهم اعداؤه الالداء وهم الذين ينتقمون لنا منه »

قالت « وكيف ينتقمون لنا ؟ هل يجردون عسكراً لمحاربة عنا وهب انهم يفعلون ذلك فهل تضمن انهم يفلحون والرجل تحصنٌ في مرو ؟ »

قال « لا اعني ان يجردوا جيشاً لحربه لانهم كما قلتِ لا يفعلون ذلك من اجلنا واذا فعلوه لا يفلحون ولكنني اهديهم الى جذر الشجرة فاذا قطعوه سقطت الشجرة ميتة . . »

فلم تفهم جلنار مراده فقالت « واي شجرة تعني . . »

قال « اعني صاحب هذه الدعوة الذي قام ابو مسلم واصحابه يدعون الناس اليها باسمه . . . »

قالت « اظنك تعني ابراهيم الامام »

قال « اياه اعني »

قالت « وكيف تتوصل الى ذلك الجذر واين هو ؟ »

قال « هو في جهات الشام في مكان لا يعرفه الاَّ نفر قليلون »

قالت « وهل تعرفه انت ؟ واين هو ؟ »

قال « نعم . انهُ في الحميمة في ارض البلقاء بالشام . »

قالت « وما الذي جاء بهِ الى هناك وكيف اصل حكايته ؟ »

فقال « ان الوقت قصير لا يأذن لي بسرد الحكاية مطولة ولكنني اقول بالاختصار ان النبي لما مات لم يوص بالخلافة لاحد فاختلف اصحابه عليها وكانوا فئتين المهاجرين والانصار . فالمهاجرون هم الذين هاجروا معه من مكة الى المدينة يوم هاجر فراراً من ظلم اهلها والانصار هم الذين نصروه لما جاء المدينة . وبعد جدال طويل اقروا على ان الحق في الخلافة للمهاجرين فتولاّها واحد منهم ثم الثاني والثالث بالانتخاب فيما بينهم ولم يكونوا يعرفون توريث الملك كما كان الفرس يفعلون . ولكن اهل النبي الاقربين كانوا يرون التوريث و يعدون خروج الخلافة من ايديهم حيفاً وظلماً واقرب الاقربين من النبي عمه العباس وابن عمه علي ابن ابي طالب . فبعد الخلفاء الثلاثة تولاها عليٌّ ابن عمه لكنها لم تتواصل في نسله فاخذها منهُ بنو امية بالدهاء والعصبية وتوارثوها نحو مئة سنة الى مروان بن محمد الذي يحاربه ابو مسلم الآن . وكان اولاد علي واولاد العباس في اثناء هذه المدة يسعون في استرجاع الخلافة لهم وهم الذين يعبرون عنهم باهل البيت وكل منهم يطلبها لنفسهِ آل علي يريدونها لانفسهم وآل العباس يزعمون انهم احق بها من سواهم . ثم ان آل علي الذين يطالبون بالخلافة فئتان احداها نسل ولدهِ من امرأته فاطمة بنت النبي والثانية نسل ابنه من امرأة اخرى واسمه محمد بن الحنفية . وكان كل من هؤلاء ايضاً يطلبها لنفسه . فاتفق ان ابن محمد بن الحنفية هذا واسمهُ ابو هاشم جاء دمشق وافداً على سليمان بن عبد الملك الاموي فرأى سليمان منه فصاحة وقوة فخافهُ فاوعز الى رجل سمَّه بلبن فاحسَّ ابو هشام بقرب الوفاة وهو راجع الى المدينة فخاف ان يموت قبل ان يعهد بالخلافة لاحد من اهلهِ ولم يكن احد منهم معهُ لكي يبايع لهُ فعرج الى بلد في البلقاء يقال لها الحميمة كان بنو العباس يقيمون فيها و يدعون الناس الى انفسهم سرًّا . وكان صاحب الدعوة منهم يومئذ محمد ابن علي بن عبد الله بن عباس فنزل عنده ابو هشام واوصى اليه وكان معهُ جماعة من شيعتهِ سلمهم اليهِ واوصاه بهم ثم مات . فاخذ محمد المذكور في بث الدعاة ثم مات وخلف اولاداً كثيرين من جملتهم ابراهيم الذي يسمونهُ الامام فاقام ابراهيم بعد ابيه بالامر واستكثر من بث الدعاة الى الاطراف وخصوصاً خراسان لان الشيعة كانوا اشد وثوقاً باهل خراسان من غيرهم . . » .. ...

فقطعت جلنار كلامه وقالت « لماذا لم يسعوا في غير هذه البلاد »

قال « لان اهل الشام ومصر هواهم مع بني امية وفيهما اهل الدولة واما الحجاز فاهله قليلون لا يستطيعون القيام بالدعوة وأما أهل البصرة والكوفة فكان اهل البيت مذعورين منهم لأنهم خانوهم غير مرة . وزد على ذلك ان اهل خراسان كانوا ناقمين على بني أمية لاحتقارهم اياهم وعسفهم فيهم كما تعلمين فرأوا منهم أذناً صاغية . وكان اهل خراسان من قبل يبايعون لآل علي ضد بني أمية وتوفق ابراهيم الامام الى ابي مسلم هذا فبعثه قائداً لدعاته ونقبائه فتمكن بدهائه وشدته وقسوته الى فتح مرو كما رأيت وهو يتظاهر بالمبايعة لاهل البيت على العموم اي اهل بيت النبي . فالناس يبايعون الآن لابراهيم الامام باسم اهل بيت النبي على ان يتناوبها العباسيون والعلويون . ولكنني لا اظن العباسيين سيخرجونها من ايديهم . والخلاصة ان ابراهيم الامام هو مركز الدائرة التي تدور عليها هذه الدعوة وهو مقيم في الحميمة ولا يعلم به مروان بن محمد صاحب دولة بني أمية فالذي اراه ان نسعى في كشف هذا السر لمروان فيبعث من يقبض عليه بسهولة ومتى حبسه اوقتله ذهبت مساعي ابي مسلم هدراً فيشتد امر بني أمية وهذا أشد انتقام نقدر عليه »

فلما سمعت جلنار قوله احست بارتياح لرأيه وقالت « انه رأي صواب وكيف نفعل »

قال « لا بدّ لنا من مغادرة هذا المكان سريعاً بما خفّ حملهُ وغلا ثمنه ثم نسافر الى العراق فالشام ونسعى في الامر .. »

فقالت « لمن نترك هذا القصر وهذه الجنائن ؟ »

قال « نتركها لذلك الظالم .... الذي بيده السلطة الآن وهو يطلب حياتنا فاذا نجونا بها غلبناه ولا يغنيه البنيان ولا الاشجار شيئاً عما سندبره لهلاكه باذن الله .. »

الفصل الخامس والخمسون

الرحيل

وفيما هما في الحديث جاءت ريحانة مسرعة وهي تقول « قد اعددت ما يلزم وجمعت كل الحلى والنقود والثياب وهي كثيرة تحتاج الى عدة بغال لحملها وأوصيت السائس ان يعدّ الافراس والبغال .. »

فقال صالح « هلم بنا يا مولاتي ... »

فنهضت وخرجت من القاعة حتى اطلت على الحديقة فسمعت صهيل الافراس ورأت البغال وعليها الاحمال وتصورت انها خارجة من البيت الذي ولدت فيه وربيت بين اشجاره وجدرانه في عز ونعيم وحولها الجواري والحشم كأنها سلطانة في مملكة فكيف تخرج منه هاربة الى ديار غريبة لم تطأها من قبل وفي مشروع عظيم يقصر عنه كبار الرجال فغلب عليها ضعف النساء فدمعت عيناها . وكان صالح يراقب حركاتها ويخاف ضعفها فلما لحظ ذلك فيها ابتدرها قائلاً « لابد لنا من السرعة قبل ان يدركنا ذلك الظالم برجاله ويقبض علينا جميعاً فينال منا مرامه وتذهب مساعينا ادراج الرياح واختاري من خدمك اثنين او ثلاثة تثقين بهم يكونون معنا لخدمتك او لمهام أخرى ... ؟ »

فلما سمعت تهديده هان عليها الخروج وقنعت بالنجاة والتفتت الى ريحانة وقالت « من ترين ان نصطحب من الخدم الامناء »

فاجابتها على الفور « نصطحب سعيداً الصقلبي فانه امين ونبيه فيكون في خدمتك خاصة ونأخذ معنا أبا العينين لان أصله من العراق ويعرف عادات البلاد وطرقها فيكون لنا عوناً ودليلاً وهو مع ذلك نشيط امين واذا شئت خادماً ثالثاً فسليمان الحلبي لا بأس منه لان اصله من الشام .. »

فاستحسنت جلنار رأيها وقالت لها « ابعثي اليهم وأتينا بهم سريعاً » فذهبت ريحانة كما امرتها ووقفت جلنار في انتظارها وفكرت في امرها ومصير ذلك القصر واهله فقالت في نفسها « ان اهل هذا القصر لا يزالون سعداء لانهم لم يعلموا بما أصاب مولاهم ولا بما يهددهم من الخطر في الغد » ثم نظرت الى صالح وقالت له « أ نترك اهل هذا القصر تحت خطر القتل والاسر ونحن نعلم بما يهددهم ألا ترى ان نخبرهم بما اصاب والدي ونحذرهم »

قال « لا بد من ذلك ولكن بعد خروجنا ونجاتنا بما معنا »

فعلمت انه لم يفته شيء من التدبير فسكتت ثم جاءت ريحانة وجاء الخدم الثلاثة فسعيد الصقلبي اصله من سبي الاندلس لما فتحها موسى بن نصر سنة ٩٢ هـ اذ جمع من السبي شيئاً كثيراً وفيهم الغلمان والنساء وكان سعيد يومئذ في الخامسة من عمره فوقع في سهم بعض الجند فباعه لبعض النخاسين الذين يتجرون بالخصيان البيض فخصاه وضمه الى من كان عنده وسماه سعيداً . ثم انتقل سعيد بالبيع الى دهقان مرو وعاش في منزله مدة طويلة وكان يتكلم العربية والفارسية ونسي لغة بلده . وقد سموه صقبلياً لبياضه

وكان طويل القامة طويل الساقين صغير العينين صوته كصوت النساء وجهه قليـل الشعر واما ابو العينين فقد لقب بذلك لكبر عينيهِ وجحوظهما وأصله من انباط العراق ودخل في خدمة الدهقان من صغره بلا شراء وانقطع اليه وهو يعدّ نفسه من رقيقهِ • واما سليمان الحلبي فسمي بذلك لانه مجلوب من جهات حلب وليس حلبي الاصل بل هو رومي وقع أسيراً في بعض المواقع بين الروم والعرب وبيع كما كانت تباع الاسرى في تلك الايام ولم يتوفق لمن يفتديه حتى دخل في حوزة الدهقان وصار من عبيده • فاعجب الدهقان حسن خلقه ورأى فيه مروءة فاعتقه فاصبح من مواليه فاطلق سراحه وخيره بين البقاء عنده كبعض اولاده او الذهاب الى بلده ففضل البقاء عنده لانه ألف المكان ولم يعد يعرف مصير اهله وكان الدهقان يحبه ويثق به • فريحانة قد اصابت المرمى باختيارها وجاء هؤلاء الثلاثة وقد استعدوا للرحيل ولا يعرفون الغرض من ذلك • وجاؤوهم بالدواب لركوبهم ودبروا كل شيء وكان الفجر قد دنا فاشار صالح بالركوب فركبوا وركب هو في مقدمتهم وقال للبواب وغيره من اهل القصر انه عائد اليهم بعد قليـل فاطاعوا وهم يستغربون ما رأوه لانهم لم يعلموا بقتل دهقانهم ولا ما ينويه ابو مسلم من الفتك بهم

سار الركب والليل يهمّ بالفرار وقد اقبل الفجر مبشراً بقدوم الشمس سلطانة النهار • ولما بعدوا عن المحلة اوقفهم صالح في خلوة واخبرهم انهم ذاهبون في خدمة الدهقانة جلنار الى الحج وان ذهابها سريٌّ فلا ينبغي ان يعلم به احد فاذا سئلوا عن المكان الذي اتوا منه فليقولوا انهم من مدينة بلخ وقد خرجوا يريدون اللحاق بقافلة تقدمتهم منذ يومين قاصدة بيت الله الحرام • واوصاهم ان لا يذكروا اسم الدهقانة ولا الدهقان وانه سيخبرهم بالسبب بعد قليل • ثم تقدم الى الدهقانة وقال لها « اني راجع الى القصر لاخبرهم بالواقع واعود فامكثوا في انتظاري »

قالت « سر بحراسة الله وافعل ما تشاء »

فقال « اعطيني رجلاً من اتباعك يزكي شهادتي او يؤيد قولي »

فامرت سعيداً الصقلبي ان يرافقه فسار معه وهو لم يفهم القصد ولكنه سار طوعاً لامر مولاته فاسرَّ له صالح حقيقة الامر واوصاه ان يساعده في تلك المهمة وساقا جواديهما نحو القصر • فلما وصلا اليه رأيا اهله في هرج وقد استيقظوا من رقادهم وعلموا بسير مولاتهم على تلك الصورة فدعا صالح قيم الدار واخبره على انفراد بقتل الدهقان وان ابا مسلم سيرسل من يستولي على القصر بما فيه واوصاه • ان يتدبر بالامر وان الدهقان قبل ان

بموت اعتق عبيده وجواريه جميع وان القصر بما فيه صار ملكاً حلالاً لهم الى ان قال « فتدبر انت بحكمتك حتى لا يظفر ذلك القاتل بكم واسرع لانه لا يلبث ان يبعث من يقبض عليكم »

فسأله عن الدهقانة فقال « انها انتقلت الى بعض اهلها في نيسابور وانها هي التي بعثت الى اهل القصر بالعتق والحرية ووهبتهم كل ما فيه » الى ان قال « وهذا سعيد رسولها اليكم »

فوافق سعيد على قوله واكد له ان الدهقانة توصيه باهل القصر خيراً وان ينقذهم بحكمته ، وبحسن تدبيره و يوافيها بعد ذلك الى نيسابور لانها تكون هناك بعد بضعة ايام فصدقهما واخذ في التدبير

الفصل السادس والخمسون

سليمان بن كثير

اما صالح فانه عاد مع سعيد الى الدهقانة وخدمها وكانوا في انتظارها واخذوا في جد السير حتى انتصف النهار وقد بعدوا عن مرو فحطوا رحالهم ونصبوا خيامهم بجانب عين ماء في ظل الاشجار ومكثوا للاستراحة . فاغتنم صالح تلك الفرصة وذهب الى الدهقانة وعندها ريحانة وقال لها « ينبغي لنا ان نطلع خدمك الخصوصيين على سرّ الامر ونكتمه عن سائر الخدم الآخرين الذين هم في خدمة الدواب كالسياس ونحوهم »

فقالت « افعل ما تراه فاني لا أفقه ما اعمل »

فخاف ضعفها فقال لها « اراك قد ضجرت ونحن لا نزال في اول الطريق . »

قالت « لم اضجر ولكنني لا ازال احسب نفسي في حلم من هول ما رايته بالامس وانا لم اذق رقاداً »

قال « نحن هنا في مأمن فنامي واستريحي لان سفرنا طويل واما انا فلا انام حتى ادبر الامر الآخر . . »

فقالت « واي امر تعني ؟ »

قال « اتظنين صالحاً يغفل عن فرصة يغتنمها في سبيل ذلك . . . » ثم حك لحيته واصلح قلنسوته وقال « نحن ساعون في قطع الشجرة من جذرها ولكنني سادبر حيله

التي بها الشقاق بين فروعها اي بين ابي مسلم ونقبائه »

قالت « وكيف ذلك واي النقباء تعني »

قال « اتعرفين سليمان بن كثير ؟ »

قالت « انت اخبرتني انه كبير النقباء وانهُ قديم في هذه الدعوة »

قال « هو اقدم من ابي مسلم فيها ولكنه كان يدعو اهل خراسان لولد علي بن ابي طالب وكان هو زعيم هذه الدعوة فلما توفي صاحب الدعوة العلوية وتحوَّلت الى بني العباس كما ذكرت لك ارسل الامام ابراهيم ابا مسلم من قبله وجعله رئيساً على سائر النقباء وفي جملتهم سليمان ابن كثير وهو شيخ جليل وابو مسلم كما تعلمين شاب . فشق ذلك على سليمان في بادىء الرأي ولم يقبل ان يكون تحت قيادته ثم قبل رغم ارادته . على ان ابا مسلم غير صورة الدعوة فجعلها باسم « آل محمد » اي اهل النبي وهو اسم يشمل العباسيين والعلويين لان الاولين من نسل العباس عم النبي والآخرين من نسل علي ابن عمه . والذي اراه ان ابا مسلم انما فعل ذلك استعداداً لنقل الدعوة الى آل العباس وانا اعلم ان سليمان بن كثير لا يريد ذلك بل هو يفضل بقاءها لآل علي لان هذا هو مشروعه الاصلي وبه فخرهُ . وفي نيتي ان اكتب الى سليمان كتاباً استحثه فيه على حفظ البيعة لاولاد علي وابين لهُ طمع ابي مسلم ونحو ذلك مما يهيج الضغائن بين هذين الرجلين وهما دعامة هذا الدعوة فاذا اختلفا اختلَّ نظامها . . »

فاعجبت جلنار بسهر صالح على هذا الامر وتجددت قواها وآمالها وازدادت تسليما لهُ فقالت « بورك فيه افعل ما تراه وهل بعد هذا السهر والاهتمام من حاجة الى اهتمامي ومع ذلك فان السفر والتعب قد اثرا فيَّ كثيراً وانا لم اتعوَّد ذلك »

فنهض وحيَّا ووجه كلامه الى ريحانة قائلاً « وانت ايضاً نعسانة على ما اظن فاذهبي الى منامك ودعي مولاتنا . . وانا ذاهب الى شاني » قال ذلك ومضى الى خلوة وقد اعدَّ ورقاً ومداداً وكتب كتاباً هذا نصه :

« من دهقان يخاف ان يذكر اسمهُ الى سليمان بن كثير

« اما بعد فانك جئتنا منذ بضع سنين تدعونا الى بيعة اهل بيت النبي لانهم اقرب للتقوى والعدل — ولا يكون اهل النبي الاّ كذلك — فاطعناك وبايعناك لنتخلص من ظلم بني امية لانهم يكلفوننا دفع الاموال بغير حق ويعاملون غير العرب بالاحتقار فحمدنا الله على قرب نجاتنا من ذلك الظلم على يدك وانت شيخ عاقل حكيم . ثم ما لبثنا ان رأينا الامر تحوَّل واصبحت انت وسائر النقباء في قبضة غلام لا يعرف لهُ اصل ولا نسب

فاستبدَّ بكم وتطاول عليكم ونحن نحسب طاعتكم لهُ عن حكمة او حسن سياسة لان المسلمين انما يتفاضلون بالتقوى · ثم علمنا انهُ لايمتاز عنكم الاَّ بسفك الدماء والقسوة وحب الاثرة وانهُ انما يستخدمكم لمطامعهِ ولا يبالي ان يقتل ايًّا كان التماسًا للسلطة فيستخدم الناس لغرضه ثم يقتلهم كما فعل بالكرماني وابنه وكما فعل بدهقان مرو بعد ان بذل مابذله لهُ من المال فقتله شرَّ قتلة · وهو يزعم انهُ يفعل ذلك بامر الامام واي امام يامر بالقتل على الشك فقد عرفنا الائمة يحاسبون انفسهم على حشرة يقتلونها فكيف بقتل الناس بل كيف بقتل كبار المسلمين الذين نصروا الدين باموالهم وانفسهم ولا سيما الدهاقين الذين هم عمدتكم في هذه النهضة لان خراسان في قبضتهم وقد نصروكم وايدوا دعوتكم فكيف يقتلهم هذا الظالم بلا سبب غير الشك فاصبح سائر دهاقين خراسان تحت خطر القتل وانا منهم ولذلك لم اجسر على ذكر اسمي · على ان الخطر يشمل كل من ينصر هذا الغلام من النقباء وانت في مقدمتهم فلا بد من ان ياتي يوم يقتلك فيه وهو لايحتاج في تحليل قتلك الى اكثر من الشك فيك — وما اسرع الشك الى قلب الانسان · ولا جناح على احد سواك لانك جررت البلاء على نفسك بيدك · كنت رئيسًا على اهل الهدى تدعو الناس الى بيعة خليفة يامر بالمعروف وينهى عن المنكر لايقتل المسلمين ولا يظلمهم فجعلت نفسك عبدًا لغلام يزعم ان امامهُ امرهُ بقتل الناس على الشك · واراه يتلاعب بكم جميعًا فبعد ان كانت البيعة باسم ابناء علي جعلها باسم اهل البيت اجمالاً تمهيدًا لاخراجها من العلويين الى بني العباس ليستقلَّ بها صاحبهُ ومولاه الامام ابراهيم وتذهب مساعي العلويين ونقبائهم هباءً منثورًا فاذا كنتم لاتزال فيكم بقية عقل وحمية استدركوا الامر قبل استفحاله وارجعوا البيعة لاصحابها الانقياء · واعلموا انكم اذا فعلتم ذلك كان كل دهاقين خراسان وسائر اهل فارس من نصرائكم · فبادر يا ابن كثير الى استدراك ما فات وارجع البيعة لاصحابها وانقذ المسلمين من اناس يقتلون على الشك لا يستثنون مسلمًا ولو كان نصيرًا او نقيبًا او امامًا والاَّ فان العاقبة تعود عليك وانت اول من تقع النقمة على راسه · وهذا انذارٌ لك ولسائر النقباء الذين استسلموا لذلك الغلام والسلام »

ولما فرغ من كتابة الكتاب لفهُ وجعله في انبوب من القصب الفارسي واقفل عليهِ وحمل الانبوب وخرج الى خيمة الخدم فلقي سعيدًا في الطريق عائدًا من خيمة جلنار فناداه فوقف فقال صالح « كيف فارقت الدهقانة »

قال « تركتها مستغرقة في النوم من شدة التعب »

قال « عندي كتاب اريد ارسالهُ الى مرو فهل تثق باحد من اولئك الناس نبعثه في هذه المهمة على ان يحفظ ذلك سرًّا »

قال « عندنا سائس ابكم سريع الفهم »

قال « ان البكم نافع في هذه المهمة ولكن الابكم يكون اصم ايضاً فكيف نفهمه مرادنا »

قال « ان هذا الابكم غير أصم فيسمع ولكنه لا يقدر على الكلام وقد عرض له البكم من عقدة في لسانه »

قال « وهل امتحنت امانته »

قال « انا على يقين من امانته »

قال « اين هو »

فصاح سعيد ببعض السياس وأشار اليه فاتى نحوه واذا هو قصير القامة اسمر اللون ممتلىء الجسم ودلائل الصحة بادية في استدارة وجهه وغلظ عنقه واتساع صدره وكان جذعه عارياً الى الحقوين فبان الشعر كثيثاً على صدره وكتفيه . وذراعاه مستديرتان ممتلئتان وكذلك ساقاه وقدماه وليس عليه من الكساء الا سراويل قصيرة تغطي فخذيه الى اعلى الركبة فوقف وأشار برأسه اشارة التحية فقال له صالح « اتعرف مرو ؟ »

فاشار برأسه ان « نعم »

قال « اتعرف اميراً اسمه سليمان بن كثير »

فاشار بيديه وأصابعه انه عرفه منذ نزل ابو مسلم عند الدهقان المرة الاخيرة . وتحقق صالح من اشارات أخرى انه عرف الرجل حقيقة فقال له « خذ هذه القصبة (واستخرج له الانبوب) وامضي سريعاً الى مرو واذهب توًّا الى دار الامارة فتجد الرجل هناك فادفع اليه هذه القصبة واسرع راجعاً واذا سألك لا تجبه والافضل ان تدفعها اليه وتنجو بنفسك سريعاً وتعود الينا فتجدنا في انتظارك هنا او في المحطة التالية .. خذ دابة اركب عليها الى مرو .. »

فضحك السائس وأشار الى قدميه الغليظتين وقبض يده بشدة كما يعبر الخرس عن القوة يريد « ان رجليه اسرع من الدابة » فربت له صالح على كتفه تحبباً وثناء فلامست انامله الجلد فابتلت من العرق

اما السائس فتناول القصبة وأشار برأسه اشارة الوداع وتحول نحو مرو مسرعاً سرعة الغزال وصالح وسعيد ينظران اليه ويعجبان من سرعته حتى توارى عن ابصارهما . فتحولا

للاستراحة فمضى صالح الى خيمته واستلقى وأخذ يفكر في ما ينبغي له من السعي في مشروعه

الفصل السابع والخمسون

ابو سلمة الخلال

وكانت الشمس قد مالت نحو الاصيل وتذكر انهم لا يزالون على مقربة من مرو بحيث تكاد تمسهم يد ابي مسلم . وتصوّر ان ابا مسلم علم بمكانهم فبعث من يتأثرهم فاقشعر بدنه لاعتقاده بدهاء ذلك الرجل واقتداره العجيب على كشف المخبآت وشدة بطشه فاذا عثر بهم لا يبقي على احد منهم و يالها من خيبة . ولكنهُ رأى نفسهُ عاجزًا عن مواصلة السير في تلك الساعة نظرًا لما تشكوهُ جلنار من التعب بعد المجاهدة العنيفة وشدة حاجتها الى النوم تعزم على السفر حالما تستيقظ ولو في نصف الليل . وبينما هو في تلك الهواجس سمع اجراسًا فطنَّ عن بعد فاختلج قلبهُ ونهض مذعورًا لعلمه انها اجراس قافلة مارة من هناك واصاخ بسمعه ليتحقق جهة المسير فادرك انها قادمة من الشمال فترجح عنده انها من القوافل التي تتردد بين العراق وخراسان . فخرج من خيمته لعله يراها عن بعد فتحقق جهة الصوت ولكنه لم ير القافلة لانها كانت لا تزال متوارية وراء التلال فاسرع الى ثيابه وتنكر بلباس حاجب ابي مسلم وقلنسوته واصلح من شأنه وذهب الى سعيد وابي العينين وسليمان واخبرهم بقدوم القافلة وانه عازم على تسقط الاخبار منها واوصاهم ان يكونوا على حذر لئلا تبدر منهم كلمة او شارة تدلُّ على حالهم . ثم ركب فرسًا وساقه نحو الجهة التي سمع منها الاجراس وبعد قليل اطلَّ على القافلة فاذا هي قطر من الجمال يقودها حمار عليه رجل شيخ كانهُ الدليل والى جانبي القافلة فرسان مدججون بالسلاح لحراسة القافلة . فعلم انهم يحملون اموالاً لابي مسلم فضلاً عن المؤُونة ونحوها . فوقف معارضًا للقافلة كانهُ صاحب الامر والنهي فاسرع اليه احد الفرسان فابتدره صالح قائلاً « لماذا هذا التباطؤُ في المسير ؟ »

فلما سمعهُ الفارس يخاطبه بسلطان ورأى عليه ثياب حجاب ابي مسلم ظنه قادمًا من عنده لاستعجالهم. فقال « اتعدُّون مسيرنا بطيئًا وقد جئنا من الكوفة الى مرو في عشرين يومًا ومعنا هذه الاثقال . . ؟ هل انت قادم لاستعجالنا . . »

« قال اني ذاهب ببشارة لشيعتنا في الكوفة ولكنني سمعت الامير يذكر ابطاءكم

فاسرعوا حفظكم الله »

فلما سمع الفارس قوله انهُ ذاهب ببشارة اشتاق للاطلاع على البشارة فقال « وما هي تلك البشارة ؟ »

قال « الم تعلموها بعد .. الم تروا نصر بن سيار صاحب مرو تائهاً في هذه الاودية .. »

قال « كلاً وهل فتحتم مرو ؟ »

قال « فتحناها منذ بضعة ايام واعلام الحق تخفق الآن فوق دار الامارة ولو عجلتم قليلاً لشهدتم الفتح واشتركتم في الغنيمة . كيف فارقتم شيعتنا في الكوفة »

قال « هم في خير وستشتد قلوبهم بخبر الفتح ولاسيما ابو سلمة رعاه الله »

قال « وكيف ابو سلمة .. »

قال « هو عمدتنا وذخرنا وهذه الاموال كلها من عنده وهو كما تعلم لا يدخر وسعاً بالبذل في سبيل هذه الدعوة .. والحق يقال ان هذه الدعوة انما تقوم بسيف ابي مسلم ومال ابي سلمة الخلال .. » (١)

فتذكر صالح حال ابي سلمة هذا وانهُ من كبار الاغنياء وقد بذل مالهُ في نصرة الشيعة وانهُ كان قبل ظهور ابي مسلم يفعل ذلك في نصرة شيعة علي كما كان سليمان بن كثير فلما تحوّلت الدعوة الى العباسيين وراْسها ابو مسلم اذعن كما اذعن ابن كثير وصار يبذل اموالهُ في نصرتهم . ومرّت القافلة وهما واقفان يتكلمان وصالح ينظر الى الاحمال فاذا هي كثيرة وفيها صناديق الاموال . فلما خطر لهُ امر ابي سلمة الخلال تظاهر بالاسراع وودّع الفارس واوصاه بالعجلة وقال لهُ « واصلوا السير الى مرو ولا تقفوا في هذه المحطة فتصلوا مرو في العشاء »

فاشار الفارس اشارة الطاعة وتفارقا فاظهر صالح انهُ يسير نحو الكوفة حتى اذا توارت القافلة عن بصره رجع الهوينا في اثرها بحيث يرى اطرافها ولا يراه احد من اهلها فرآها عند وصولها الى المحطة لم تقف الأ قليلاً ثم اقلعت فسرّهُ ذلك وسار حتى اتى خيمة الدهقانة فرآها لا تزال نائمة وريحانة جالسة عندها فسال الخدم عن القافلة فقالوا انهم مروا مسرعين ولم يقولوا شيئاً . فذهب الى خيمته وبدل ثيابه وهو يفكر في ابي سلمة الخلال والسبيل الى تحويله عن نصرة ابي مسلم واذا بسعيد الصقلبي قد جاءه مسرعاً وناداه بلهفة فقال لهُ « ماوراءك ؟ »

(١) ابن الاثير ج ٥

قال « ادرك مولاتي الدهقانة فانها افاقت من رقادها وهي تبكي وتنتحب ولا نعلم ما بها »

فعلم انها تبكي لليتم والغربة وقد اخذت تنتبه لمصيبتها وتتبين ضخامتها فاسرع الى خيمتها فلقي ريحانة بالباب وهي تشير اليه ان يسرع . فدخل الخيمة فرأى جلنار جالسة في الفراش وشعرها مرسل على كتفيها وقد احمرت عيناها وتكسرت اهدابهما من كثرة البكاء فلما اطل صالح صاحت به « آه ياصالح بل ياضحاك لان هكذا كنت اناديك في ايام سعادتي واما الآن يتيمة مقهورة شاردة هاربة .. »

فجثا صالح عند فراشها وقال « ما الذي جرى يامولاتي هل حدث شيء جديد ؟ »

قالت وهي لاتملك نفسها من البكاء « آه ياصالح كنت نائمة فرأيت في نومي ان ذلك القسي جاءني وفي يده خنجر وكأنه يهم بقتلي فصحت فيه و بلك ياظالم اهذا جزاء المحبة وو بخته وعنفته وعاتبته عتابًا شديدًا وهو واقف لايتكلم وكان غيظي يتعاظم عليه وحنقي يشتد واشعر مع ذلك بشيء يتحرك في قلبي و ينعطف نحوه وكأن بين ناظريه وعروق قلبي ترابط لا ادري ما هو . فقلت له لا يغرنك ضعف هذا القلب فاني ساغلبه واغلبك وانتقم لوالدي شر انتقام .. »

فقطع صالح كلامها بلهجة المجون وقال « احذري ان تذكري له اسمي او تخبريه اني حدمك في هذا الانتقام لئلا يرسلني الى خوارزم » قال ذلك وضحك كما كان يفعل في ايام مجونه

فلم يسع جلنار الا الضحك رغم مابها ثم امسكت نفسها ونظرت اليه شزرًا فابتدرها قائلاً « لاذنب لي في ذلك فانك ناديتني باسمي القديم وتمنيت ان ارجع اليه فرجعت لان الضحك على كل حال خير من البكاء ... ومع ذلك فلم اكن احسبك تهتمين باضغاث الاحلام وتستسلمين للضعف النسائي وقدطلبت اليك من اول خطوة خطوناها ان تخلعي هذا الضعف وتتخلقي باخلاق الرجال لان الامر الذي نحن ساعون فيه يحتاج الى دهاء وتعقل وسعة صدر .. »

قالت « لا ازال غير قادرة على فكر ولا عمل »

قال « اني لا اكلفك ان تباشري عملاً فقد شرعت بالعمل منذ الآن فكتبت كتابًا الى سليمن ابن كثير (واخبرها فحواه) وانما اطلب اليك الصبر والدعاء واناضامن انك ستنسين كل هذه المتاعب ... اصبري ان الله مع الصابرين »

فاحست جلنار بثقل ازيح عن صدرها وقالت « صدقت لا حيلة لي غير الصبر » ثم مسحت عينيها والتفتت الى ريحانة فرأتها تذرف الدموع بلا بكاء ولا شهيق حتى كادت تختنق من ضيق صدرها وانحباس عواطفها فلما رأت مولاتها تنظر اليها ووجهها منبسط تبسمت والدمع ملء عينيها وقالت « تجلدي يا مولاتي ولا بد من الصبر والفرج قريب باذن الله »

فرأى صالح من الحكمة ان يشغلها عن ذلك الحديث النسائي فقال « اخبريني يا مولاتي الدهقانة هل تعرفين ابا سلمة الخلال ؟ »

فظلت جلنار صامتة مطرقة كأنها تستحث ذاكرتها وهي تتذكر انها سمعت هذا الاسم قبل الآن فبادرت ريحانة الى الجواب قائلة « اظن مولاتي لا تذكره ولكنني اعرف هذا الاسم جيداً فانه لرجل فارسي من اكبر ارباب الثروة في العراق وفارس وكان بينه و بين مولاي رحمه الله علاقات قديمة حتى كثيراً ما كان يزوره و ينزل في داره اياماً وكانت مولاتي الدهقانة لا تزال صغيرة . »

فابتسم صالح وبدا السرور في وجهه وقال « ان هذا الرجل من اكبر دعائم هذه الدعوة فهو يؤيدها بماله كما يؤيدها ابو مسلم بسيفه ودهائه . وحكايته مع ابي مسلم مثل حكاية ابن كثير فان ابا سلمة كان مع ابن كثير يدعوان للعلويين ثم اطاع أبا مسلم في الدعوة الجديدة رغم ارادته فاذا استطعنا تحويل ابي سلمة عن مساعدة هذا المشروع تغلُّ أيديهم عن العمل وخصوصاً بعد القبض على ابراهيم نزيل الحميمة .. »

فقالت جلنار « تذكرت هذا الاسم الآن واذكر ايضاً انه جاءنا مرة ومعه الهدايا والاحمال وفيها الحلى والجواهر وكان والدي رحمه الله يحبه .... »

فقالت ريحانة « وانا اعرف امرأة من نسائه اهلها من مرو بينها وبين والدة مولاتي الدهقانة رحمها الله قرابة عصبية وسيدي الدهقان ازوجه اياها وكنت واسطة بينهما »

فقال صالح « لقد هان الامر الآن فالذي أراه ان نحمل مولاتنا الى الكوفة ننزلها في مكان تقيم فيه بامان ريثما اذهب لقضاء المهمة الاولى في الشام ثم آتيكم الى الكوفة ظافراً غانماً » ثم التفت الى الدهقانة كأنه يستطلع رأيها فرآها صامتة وفي وجهها ملامح الاستسلام فقال لها « كوني مطمئنة اني لا اتركك حتى اتحقق راحتك وسلامتك واترك عندك ريحانة وسعيداً وأبا العينين واصطحب الحلبي فقط لانه يعرف الشام لعلي احتاج اليه في حاجة .. والآن لابدّ لنا من الاسراع في الرحيل لئلا يكتشف ابو مسلم مكاننا فيذهب

كل سعينا عبثاً ولا غرابة في اطلاعه على سرنا وهو يكاد يطلع على خفايا القلوب »
فتنهدت جلنار ولم تجب فادرك صالح انها تتأسف على خيبة املها في ابي مسلم لكنه تجاهل ووقف لتدبير امر السفر الى الكوفة

الفصل الثامن والخمسون

مروان بن محمد والناسك

فلنتركهم في تدبير شؤونهم ولنذهب بالقارىء الى دمشق الفيحاء دار الخلافة الاموية. فان الامويين اغتصبوا الخلافة من اهل البيت كما تقدم ونقلوا عاصمة المسلمين من المدينة الى دمشق لان اهل الحجاز هواهم مع علي واولاده. ودمشق من المدن العظمى التي كان لها شأن كبير في التاريخ القديم فجعلها الامويون مقراً للخلافة ومركزاً لقوة المسلمين حتى حدثتهم انفسهم ان ينقلوا منبر النبي من المدينة اليها ليجعلوا الى عصبيتهم العربية أعظم أثر اسلامي يفاخرهم به أعداؤهم المقيمون في الحجاز. فلم يتيسر لهم ذلك واكتفوا بالعصبية فحكموا المسلمين نحو مئة سنة وامتد سلطانهم على معظم العالم المعمور في ذلك الحين وفي ايامهم بلغ العرب اسمى درجات العز. والدولة الاموية أقوى دول العرب وأشدها بطشاً وهي وحدها (بعد الراشدين) دولة عربية خالية من شوائب العجمة لان امراءها عرب وعمالها عرب وكتابها عرب وهي التي نقلت دواوين الحكومة الى اللغة العربية ونصرت العصبية العربية لكنها بالغت في ذلك واحتقرت غير العرب واستبدت بالفرس وغيرهم ممن دان لسلطانها حتى نقموا عليها وساعدوا اهل البيت على حربها لاخراج البلاد من ايديها

وكان على دست الخلافة في عصر روايتنا هذه مروان بن محمد وهو من أحسن الخلفاء واكثرهم حمية وحزماً وغيرة على الاصلاح ولكنه جاء متأخراً وقد تمكن الفساد من جسم الدولة الاموية واتصل الخلل الى أعضائها الحيوية حتى انقسمت على نفسها وقام من بني امية غير واحد ادعوا الخلافة لانفسهم فتمكن مروان ببسالته وتعقله من التغلب عليهم. وكان الخلفاء الذين تقدموه قد انغمسوا في الترف واقصفوا واكثرهم شربوا الخمر واستكثروا من النساء فلما تولى مروان الخلافة ورأى حالها من الاضطراب عزم على الحزم

والتعفف فحرم الخمر على مجالسه وابتعد عن النساء [١] واهتم في شؤونه اهتمام الرجال ولكن ذلك لم ينفعه شيئاً لان الدعوة العباسية استفحلت في ايامه ورسخت قدمها في خراسان وانتشر دعاتها في انحاء فارس والعراق فارتبك في امره وبذل غاية جهده في دفع أعدائه وكانت ثقته بنصر بن يسار عظيمة ونصر شيخ جليل ادرك الخامسة والثمانين من عمره وقد حنكته الايام وفي طبعه ميل الى الاصلاح فالقى اليه مقاليد خراسان وأوصاه بحمايتها وحفظها من الشيعة ولم يكن يخطر له الخوف عليها لعامه بقلة الشيعة وتسترهم حتى جاءه النذير بسقوط مرو وفرار نصر بن سيار منها باهله وأولاده فاسقط في يده وايقن بخروج خراسان وما وراءها من سلطانه وأصبح خائفاً على سائر مملكته

وكان مروان في تلك السنة قد ادرك الثالثة والستين من عمره وامه كردية الاصل وذلك نادر في الخلفاء على عهد بني أمية لمحافظتهم على العصبية العربية خلافاً لما صارت اليه الحال في ايام بني العباس فان معظم خلفائهم من الهجناء والهجين الذي أبوه عربي وأمه غير عربية • وكان مروان قوي البدن شجاعاً فلقبوه بالحمار وكان ربع القامة ابيض اللون اشهل شديد الشهلة ضخم الهامة كث اللحية ابيضها [٢] وشيبه أكبر من سنه لهول مالاقاه من الامور العظام وخصوصاً بعد ان جاءه النبأ بسقوط مرو وفرار نصر فانه مافتىء يجمع رجاله وقواده ويشاورهم في امره ويتداول معهم في ماصارت اليه حال الدولة من الاضطراب وقد أخذ في اعداد الجنود وهمّ ان ينهض بنفسه لانه رأى من الحزم ان لا يثق بأحد من رجاله في مثل تلك الحال • فكان يقضي نهاره مشاوراً ويقضي معظم ليله مفكراً وربما مضى الليل وهو يخطر في غرفته منفرداً عن الاهل والجواري والسراري

فاتفق في احدى الليالي وهو ساهر على تلك الصورة وقد جاءه الخبر باستفحال امر الشيعة ومضى معظم الليل اذ جاءه الحاجب مهرولاً فظنه جاءه برسول او رسالة وكان من عادتهم ان لا يردوا عن باب الخليفة صاحب خبر في اية ساعة جاء ولو في نصف الليل أو بعده • فلما دخل الحاجب على مروان صاح فيه « ما وراءك »

قال « أن بالباب رجلاً غريب شكل يطلب أن يخاطب امير المؤمنين »

قال « العله صاحب خبر او رسول او من هو »

قال « كلاّ • ولا أدري ما هو ولما أردت تأجيل امره الى الغد قال انه يريد مخاطبة

(١) ابن الاثير ج ٥ (٢) المسعودي ج ٣

امير المؤمنين فى شأن لا يجوز تأجيله لحظة »

فاهتم مروان بالامر وقال « ادخله »

وكان مروان جالساً على سرير فنهض والتف بالعباءة وتمشى في الغرفة وظله يتنقل شمالاً او يميناً حسب موقعه من المشمعة القائمة في جانب الغرفة . ولم تمض لحظات قليلة حتى عاد الحاجب وهو يقول « الرجل بالباب يا مولاي »

قال « ليدخل »

فدخل رجل طويل القامة حاسر الرأس وقد تجعد شعر رأسه ولحيته وتلبد من الوسخ والاهمال وعليه قميص طويل يكسوه الى الركبة وهو حافي القدمين عاري الساقين والزندين والقذارة ظاهرة على يديه وانامله وفي وجهه ولحيته وعلى قميصه وعلى كل شيء فيه مع بله يظهر من خلال قذارته . فحالما رآه مروان ابتدره بالسؤال عما في نفسه فقال بغتة التهديد « الا تدعوني للجلوس .. ؟ كأنك تخاف على هذه الطنافس من جلدي ام غرك ما رأيته من زهدي فان اولياء الله لا يلبسون الحرير والديباج ولا يهتمون بالمشط او الطيب .. »

فلما سمع مروان كلامه هابه ولم يكن شديد الاعتقاد بالولاية لانه كان قد تعلم من الجعد بن ادهم مذهبه في خلق القرآن والقدر[1] وغير ذلك ولكن شدة افتقار المرء الى الشيء يهون عليه تصديق المستحيل وتساعده على التصديق رغبته في الحصول على ذلك الشيء . فكان مروان في حاجة الى من يشير عليه او يرشده الى الصواب فاحتمل جسارة ذلك الرجل ورحب به وامره بالجلوس فجلس على طنفسة وجلس مروان على وسادة تجاهه واصاخ بسمعه فرأى الرجل تمتم بكلام لم يظهر منه لمروان الا حركة الشفتين فظنه يصلي فصبر نفسه وهو على مثل الجمر وطال جلوس الرجل وطالت صلاته ومروان صابر حتى كاد يضجر واذا بالشيخ قد مسح وجهه بيديه واعتدل في مجلسه وقال « اعلم يا مروان اني جئتك برسالة من عالم الغيب جاءتني في الحلم الليلة وقد اوصاني صاحب الرؤيا ان ابادر بابلاغك اياها حالاً واوصيك وصية فهل انت مصدق لما اقوله لك ؟ »

قال « نعم قل »

---

[1] ابن الاثير ج ٥

الفصل التاسع والخمسون

الرؤيا

قال « بدأت رؤياي بصوت ايقظني واذا برجل ينادي « الحميمة الحميمة الحميمة ، فقلت « وما الحميمة » قال في « الحميمة اصل الشرّ ومنبع العداوة » فقلت واي عداوة فزجرني الصوت وقال « اذهب الى امامكم مروان بن محمد في هذه الساعة وقل لهُ ان عدوّه الاكبر ابراهيم في الحميمة وهواصل متاعبه فاذا قبض عليه وقتله فقد قطع رأس الحية فسرْ اليه حالا » واحببت ان استزيده بياناً فاستيقظت من منامي وجئت اليك فبلغت الرسالة وها انا راجع الى معارتي » قال ذلك وهمَّ بالنهوض فاقعده مروان وسألهُ عما يظنهُ من امر هذه الرؤيا فقال « نحن لا نفسر الرؤى وانما ننقلها كما اتتنا فعليك الآن ان تسأل عن الحميمة فاذا كانت بلداً فابعث اليهِ من يبحث عن رجل اسمه ابراهيم »

ففطن مروان للحال ان هذا الاسم هو اسم صاحب الدعوة العباسية ولم يكن يعرف مقرّه فادرك ان المراد بالرؤيا التنبيه الى مقر صاحب تلك الدعوة للقبض عليه وصدق بولاية الشيخ لانها وافقت غرضه وجاءت على مرامهِ والانسان وان انكر السحر وكذب اقوال السحرة فاذا رأى في اقوال احدهم قولا يوافق ما في نفسه مال الى تصديق السحر . حتى الطبيب اذا لم يطمئن اهل المريض و يرجح لهم شفاء مريضهم اتهموه بالجهل بلا برهان وانما يدفعهم الى تلك التهمة كرههم لما يعتقده — وتذكر مروان انه يعرف بلدا بالبلقاء اسمها الحميمة فعزم على ارسال جند يبحثون عن رجل اسمه ابراهيم فاذا كان من نسل العباس كان هو المراد فيقبضون عليه و يزجونه في السجن . اما الشيخ فظلَّ متحفزاً للخروج فقال له مروان « امكث يا شيخ عندنا على الرحب والسعة »

فقال وهو ينفض يديه « اعوذ بالله من هذا الشر اتريد يامروان ان تحجب عني وجه الخالق وتفصل بيني و بين اهل الغيب ؟ »

فقال مروان « اخبرني اذا ماهو اسمك واين مقامك حتى ابعث اليك عند الحاجة »

قال « لا اقدر على ذلك الآن ولا حاجة لك فيَّ اذ لا اقدر على شيء غير ما اراه في الرؤيا او اسمعه من الهاتف فلو سألتني سؤالا من عندك فلا جواب له عندي فاذ شئت

ان تنتفع بي دعني انصرف الى مغارتي ولا تسالني عن اسمي فاذا اتتني رؤيا أُخرى او وجدت مكانًا للقول اتيتك على عجل . وانقدم اليك ان تأمر حاجبك ان لايؤخرني عنك واحذر ان تطلع احدًا على امري فان حفظ هذا السر يحفظ خدمتي لك »

فرأى مروان في كلام الرجل قوّة وكان يودُّ استبقاءه عنده فلما سمع عذره لم يشأ ان يكرههُ على البقاء فقال لهُ « فاصبر اذًا لنأمر لك بالجائزة »

فصاح « الجائزة ! الجائزة ! ولماذا ؟ .. اننا لانأكل من طعامكم ولا نشرب من شرابكم ولا نمس اموالكم كذا أُمرنا فاطلق سراحي يامروان او اقتلني فاني بين يديك ولا ارى سببًا لتاخيري سوى انك تريد تنسي نخذها » قال ذلك بلهجة شديدة فاستغرب مروان غضبهُ بلا سبب وقال في نفسه « يظهر ان هذه هي اخلاق الاولياء واهل الصلاح »

فاخذ يخفف من غضب الشيخ و يسايره وقال لهُ « افعل مابدالك واذا شئت ارسلت معك من يخفرك الى مكانك »

فقال والغضب بادٍ في وجهه وفي صوته « الذي اريده منك يا ابن الكردية ان تطلق سراحي قبل ان تزهق روحي »

فحمل مروان قولهُ هذا ايضًا على البله لاعتزال اولئك النساك عن الناس .وانقطاعهم للعبادة اناء الليل واطراف النهار في مغر لا يرون فيها انيسًا ولا يعاشرون غير الدبابات فقال لهُ « سر بحراسة الله واعلم ان بابنا لا يغلق عنك ليلاً ولا نهارًا فاذا رأيت سببًا نقدم الينا به » وامر الحاجب ان يطلق سبيله واوصاه ان لايذكر خبره لاحد . فخرج مهرولاً وخطواته واسعة وهو ينظر الى السماء وعاد مروان الى مجلسه وقد اشتغل خاطره بما سمعه من قول ذلك الناسك ولم يتمالك ان بعث الى بعض الخاصة من اهل ثقته وزعم انهُ رأى رؤيا دلتهُ على محل الامام ابراهيم فقال الرجل « لاريب انها رؤيا صحيحة لان الحميمة في البلقاء وفيها اناس من الشيعة فابعث اليها من يقبض على الرجل الذي اسمهُ ابراهيم فانهُ الامام المطلوب »

فكتب مروان الى عامله على البلقاء ان ياتي الحميمة فيقبض على رجل من العباسيين اسمهُ ابراهيم وذكر لهُ صفته »

الفصل الستون

حمام عين

اما الناسك وهو صالح او الضحاك فكان قد رافق جلنار ورافقها الى الكوفة وسأل عن منزل ابي سلمة الخلال فاخبروه ان له معسكرًا خصوصيًا في محلة حمام اعين خارج الكوفة وهو هناك بحاشيته ورجال بطانته كأنه دولة قائمة بنفسها واهل الكوفة يرعون حضرته ويخافون نفوذه وخصوصًا بعد قيامه بالدعوة العلوية. فانه كان يبذل الاموال الطائلة في سبيلها فلما تحولت الى العباسيين وقام بها ابو مسلم لم يرَ بدًا من مسايرته فظل على البذل والعطاء وفي خاطره شيء لم يبح به لاحد خوفا على نفسه من غائلة القتل وخصوصا بعد ان بلغته وصية الامام «من اتهمته فاقتله» وكأنه كان يتوقع فشل ابي مسلم في دعوة ابراهيم فيعود هو الى الدعوة العلوية اذ تكون قد تمهدت لها الاسباب على اهون سبيل. على ان تظاهره بدعوة بني العباس لم يكن ليخفي مافي نفسه على دهاة القواد والشيعة من اهل الكوفة ولكنهم كانوا يسايرونه ايضًا ليستدرُّوا امواله في سبيل نصرتهم

فلما وصل صالح بمن معه الى الكوفة وعلم ان ابا سلمة معسكر في حمام اعين جاء بهم اليه وحطوا رحالهم ونصبوا خيامهم خارج المحلة يظهرون الاقامة موقتا للاستراحة وذهب صالح وريحانة حتى اتيا المعسكر فطلبا مقابلة ابي سلمة فادخلوهما الى فسطاط كبير مبطن بالحرير الاحمر ببابه الخزراء وابهة الثروة ظاهرة في رياشه واساطينه. وكان صالح بلباس اهل خراسان فدخل وحيى ولم يكن في مجلس ابي سلمة ساعتئذ احدٌ سواه فرحب به وسأله عن غرضه فاغتنم تلك الخلوة وقال «هل يعيرني مولاي اصغاءه قليلاً»

قال «قل»

قال «برفقتي جارية هل تأذن بدخولها ؟»

قال «تدخل» وصفّق فجاء غلامٌ فامره ان يدخل الجارية الواقفة بالباب فدخلت ريحانة وقد غطت وجهها بالخمار على عادة النساء عندهم ووقفت متأدبة فدعاها للجلوس فأبت ولكنها قالت «ايذكر مولاي انه رأى هذا الوجه» وكشفت وجهها

فلما وقع نظرهُ عليها تذكرها وقال «ريحانة ؟»

قالت « نعم يامولاي »

قال « واين مولاك الدهقان ؟ .. هل تركته ؟ »

قالت وصوتها تختنق « لا ياسيدي بل هو تركنا » ولم تتمالك عن البكاء

فلم يستغرب ابو سلمة بكاءها لظنه ان مولاها طردها فهي تبكي على فراقه فقال لها « وكيف تركك »

فلم تجبه

فأجابه صالح قائلاً « اذا اراد مولاي ان نقص عليه الخبر فليامر ان تذهب جاريته الى دار النساء ويأذن بذهاب الدهقانة جلنار ابنة صديقك دهقان مرو معها لانها مقيمة خارج هذا المعسكر »

فبهت ابو سلمة وقال « جلنار ايضا هنا واين والدها ؟ »

قال « اذا امرت بدخولها دار النساء قصصت عليك خبرها . »

قال « لتدخل حالاً فان خالتها شيرين (يريد امرأته) تسرُّ كثيراً برؤيتها » ثم نهض هو وأشار الى صالح ان يلاقيه من الخارج ودخل من باب سري في الفسطاط الى دار بجانبه ثم خرج من باب الدار وبين يديه الخدم فلقيه صالح وريحانة هناك . فاشار ابو سلمة الى ريحانة قائلاً « ادخلي الى مولاتك شيرين » والتفت الى صالح وقال « هؤلاء هم الخدم فمرهم بالذهاب الى الدهقانة لينقلوها بما معها الى هذه الدار »

فأثنى صالح عليه ومشى ومعه الخدم الى خيمة جلنار فدخل واخبرها بما فعله وتقدم اليها ان تسير معه الى الدار وان يبقى الخدم هناك حتى ينقلوا الامتعة

فمشت وصالح يشجعها ويمنيها بنيل بغيتها على يد ابي سلمة حتى دخل بها الدار فاستقبلتها الجواري وذهبن بها الى خالتها فلما رأتها شيرين القت نفسها عليها وجعلت تقبلها وتستنشق رائحتها لانها كانت تحبها كاولادها . فهاجت تلك القبلات ما في خاطرها من امر والدها وفرارها فغلب عليها البكاء ولم تعد تستطيع امساك نفسها حتى خافوا عليها . فجاءت ريحانة وشاركتها في البكاء ولكنها جعلت تخفف عنها بعبارات استدلت منها شيرين على وقوع الفتاة في مصيبة اليتم فدنت منها واجلستها الى جانبها وجعلت تمسح دموعها وتقبلها . وكان ابو سلمة قد سمع الضوضاء وهو مع صالح في غرفة الرجال فتركه ودخل دار النساء فرأى جلنار على تلك الحال فتعطف قلبه من بكائها وقد توردت وجنتاها واحمرت عيناها وتكسرت اهدابها فنادى ريحانة فأتته وهي ايضاً تبكي فسألها عن سبب هذا البكاء فقالت « ستسمع ذلك

من صالح فانه هو سبب بقائنا أحياء ولولاه لكنا في عداد الاموات »

فرجع ابوسلمة الى صالح وعلامات التأثر بادية في وجهه فادرك صالح انه قد آن وقت المكاشفة ولكنه كان يخاف ان يكون ظنه في ابي سلمة في غير محله من حيث رغبته في العلويين ونقمته على ابي مسلم فعزم على استطلاع سره بالحيلة . فلما اقبل ابو سلمة عليه وسأله عن سبب ما شاهده من بكاء تلك الفتاة قال « انها تبكي على والدها »

قال « تبكي على والدها الدهقان .. ؟ وما الذي أصابه ؟ »

قال « قتلوه »

قال « ومن قتله ؟ »

قال وهو يتظاهر بالتهيب « قتله ... قتله قائد رجال دعوتكم ؟ »

قال « ابو مسلم ؟ »

قال « نعم يا سيدي »

فهز رأسه وقال « لا حول ولا قوة الا بالله .. ولماذا قتله »

قال « قتله لانه نصره بالمال والرجال ولانه بذل كل ما في وسعه لنصرته »

فضحك ابو سلمة ضحكة يمازجها غضب شديد وقال « كيف يقتله لهذا السبب ؟ قل الصحيح .. »

قال « هذا هو الواقع يا سيدي وحياة رأسك انه كان يعطيه الاموال بالبدر وقد خاطب سائر دهاقين خراسان لينصروه »

فقال ابو سلمة « لا يعقل انه يكون على هذه الصورة ويقتله بلا سبب »

فاعتدل صالح في مجلسه وتأدب في جثوه على عادتهم في الجلوس وقال « ايستغرب ذلك من رجل يقتل على الشك .. ؟ الم تسمع بوصية الامام ابراهيم ؟ »

فامسك ابوسلمة لحيته بيده وحك ذقنه وهو يقول « انا لله وانا اليه راجعون » وكأن في خاطره شيئاً يضمره او يخاف اظهاره فتظاهر صالح بالبكاء والحزن وقال بصوت ضعيف « اتستغرب ذلك من رجل يقتل على التهمة عملاً بوصية امام يدعون باسمه ليلا ونهاراً .. وقد عهدنا الائمة من قبل يحاسبون انفسهم على نملة ان قتلوها بغير حق .. »

فلم يتمالك ابو سلمة ان قال « أولئك أئمة الهدى ابناء بنت النبي أولئك ابناء الامام علي كرم الله وجهه » قال ذلك وغص بريقه

الفصل الحادي والستون

المكاشفة

فاغتنم صالح تلك الفرصة وقال « فلماذا حولتم الدعوة اذاً الى هؤلاء وانتم اصحاب هذا الامر .. ام هي لا تزال في الحقيقة لابناء الامام علي وانما تظهرون البيعة لابراهيم تمويهاً »

فسكت ابو سلمة ولم يجبه وكأن الجواب يحشرج في صدره ولا يأمن التصريح به فابتدره صالح قائلاً « يظهر لي ان أولئك الناس خدعوك وملقوك طمعاً باموالك .. وأنا اعلم يقيناً انك غير راض بامامهم هذا ولكنك لا ترى ان تفسد عليهم امرهم لان تظاهرك ضدهم يؤذيهم .. »

فلم يعد ابو سلمة يستطيع صبراً عن التكلم فقال « كلاّ ولكنني اعلم انني لو قلت ما في نفسي لم أجد من ينصرني ... ولا أدري كيف تغيروا جميعاً وقبلوا بهذا الامام وهو صاحب هذه الوصية »

ففرح صالح بهذا التصريح وقال « وماذا عسى ان يكون من امر هذا الامام وهو كاحد الناس وانتم جعلتم له هذه المنزلة وجمعتم له قلوب اهل فارس وخراسان »

وكان ابو سلمة جالساً يسمع كلام صالح فلما سمع قولهُ هذا هبّ من مجلسه بغتة وجعل يخطر في الغرفة ذهاباً واياباً ومطرفه يجر وراءه وصالح يراقب حركاته وتقلبات عواطفه فادرك انه يكتم كرهه لهذه الدعوة فنهض معه ووقف في بعض جوانب الغرفة وأطرق تهيباً مما جاش في خاطر ابي سلمة . ثم وقف ابو سلمة امام صالح وهو يصلح قلنسوته الموشاة وقال « قد جمعنا له قلوب اهل خراسان وفارس ومكناه من سيوفهم وأيديهم وألسنتهم فاصبح هو المالك ولا حيلة لنا في ذلك »

فقال صالح « الحيلة سهلة يا مولاي »

فضحك مستهزئاً وقال « كيف تستسهل ما لا سبيل اليه فان مئات الالوف من الفرس وغيرهم يدعون باسم ابراهيم الامام فكيف نستطيع تغيير قلوبهم »

قال « قلت لمولاي ان ذلك هين عليّ فهل تصغي لقولي وهل انا في خطر على حياتي »

قال « قل ما بدالك ولا تخف فانك في امان »

قال « ما قولك بقطع الشجرة من جذرها ومحاكمة الرجل بقانونه »

وكان ابوسلمة يخاطب صالحاً وهو يتمشى فلما سمع قوله وقف بغتة وأطرق وسبابته بين شفتيه ينقر بها قواطعه ويده الاخرى في منطقته ثم رفع بصره الى صالح وقال « ماذا تعني يا صالح ؟ »

قال « اعني ان نقتل ذلك الرجل »

قال « ومن يتجرأ على قتله .. »

قال « تدبير ذلك عليّ ... انا اقتله ولا يشعر احد بي .. نهل اذا فعلت ذلك يهون عليك تحويل هذه الدعوة ومقاومة ابي مسلم .. انه بدونك لا يستطيع عملاً وخصوصاً اذا عام الناس بمقتل صاحب الوصية فلا شك عندي انهم يسرّون بقتله واول من يفرح هذه المسكينة التي قتل ابو مسلم اباها ونهب قصره وجعلها شريده طريدة وأخاف ان يتصل خبرها بابي مسلم فيبعث اليها لانهُ يفتش عنها لكي يقتلها فتأمل واعتبر هذه المعاملة ولا غرو فان هذه هي قاعدة العمل عند ابي مسلم يقرّب الرجل وهو في حاجة اليه فاذا فرغ من حاجته قتله فيجب ان يكون كل منكم ساهراً على حياته .. أقول ذلك بكامل الحرية ولك الخيار »

فادرك ابو سلمة انهُ يعرض بالخطر على حياته هو فتجاهل وعاد الى اتمام الحديث فقال « وهل انت واثق من اقتدارك على ما ذكرت ؟ »

قال « لك عليّ ذلك في مدة لا تتجاوز مسافة الطريق وبضعة ايام .. أليس صاحبكم في الحميمة ؟ »

قال « بلى »

قال « لا يمضي اربعة أسابيع او نحوها حتى يقضى عليه وسأذهب في هذه المهمة واترك عندك مولاتي الدهقانة وخدمها وربما اخذت معي واحداً منهم فأوصيك بها خيراً ... »

قال « لا توصني ببنت دهقان مرو فانه كان صديقي فضلاً عن صلة المصاهرة بيننا فان شيرين خالة جلنار وقد احتضنتها احتضان الوالدة لولدها فكن في راحة من هذا القبيل » وكان ابو سلمة قد استبشر بما سمعه من صالح وتوسم في الرجل قوة وعزماً وجاء كلامه مطابقاً لما في خاطره فعزم على استخدامه في مصلحته فاظهر له الارتياح واطراه ولم يعلم ان صالحاً انما فعل ذلك خدمة لمصلحة نفسه ولا يهمه من تلك الاحزاب

غير الخوارج وانما يهمه فوق كل ذلك ان ينتقم لنفسه من ابي مسلم لانه تعمد قتله بالسم وابو مسلم يحسبه في عداد الاموات

فلما بلغ بهما الحديث الى هذا الحد اشار ابو سلمة الى صالح ان ينزل للاستراحة في دار الاضياف على ان يعود الى الكلام في هذا الموضوع · فمضى وقضى بقية يومه في الراحة وتدبير بعض الشؤون وسار الى ريحانة فاجتمع بها واطلعها على مادار بينه وبين ابي سلمة وافهمها امورًا نقولهـا لجلنار واوصاها بالبقاء هناك ريثما يعود من مهمته الى الشام وانه سيصطحب معه سليمان الحلبي لانه يعرف تلك البلاد · ثم دعا سعيدًا وابا العينين فاوصاهما بكتمان كل شيء عن اهل الدار فوق وصيته لابي سلمة بذلك وفي اليوم التالي استأذن ابا سلمة بالذهاب فعرض عليه المال فابى وقال: « اني اقوم بهذا الامر خدمة لمصلحة المسلمين لا اطلب على ذلك اجرًا »

الفصل الثاني والستون

الحميمة

فركب صالح جملًا خفيفًا وكذلك سليمان وحملا ما يحتاجان اليه من الطعام والماء واسرعا نحو الشام · وكان صالح في اثناء تلك المدة يبحث عن احوال شيبان ورجال الخوارج سرًّا بالاستفهام وغيره · وقد تقدم ان شيبان اقلع عن مرو لما ايقن بوقوعها في يدي ابي مسلم · فلما استتب الامر لابي مسلم هناك بعث الى شيبان يدعوه الى البيعة فاجابه شيبان « انا ادعوك الى بيعتي » فكتب اليه ابو مسلم « ان لم تدخل في امرنا فارتحل عن منزلك الذي انت فيه » فسار شيبان الى سرخس واجتمع اليه جمع كثير من بكر بن وائل فخافه ابو مسلم فبعث اليه رسلاً لمخابرته فسجن الرسل فبعث اليه جندًا حاربوه وغلبوه فهرب الى بلد آخر وآخر حتى دخل المدينة فقتل فيها وذهب امر الخوارج [1] وقد وصل الخبر بمقتل شيبان الى صالح وهو سائر في طريقه الى الشام فشق ذلك عليه وكاد يذهب بنشاطه وسعيه ولكنه تذكر اساءة ابي مسلم اليه ورأى انه مطالب ايضًا بالانتقام لشيبان وسائر الخوارج وهم يرون السلطة لا تجوز لاحد فاذا تمكن من افساد امر بني العباس فقد خدم المبدأ الاصلي عندهم

(١) ابن الاثير ج ٥

وعلى هذا المبدأ يحلّ له قتل كل ذي سلطان يدعي الخلافة ومهما اكثر من قتل هؤلاء فذلك معدود عنده من المبرات . ووجد نفسه بين جماعات كل منهم يدعي الخلافة لنفسه الامويون والعباسيون والعلويون وكلهم في اعتبار الخوارج لايليقون بالخلافة فايهم استطاع قتله او افسد امره فقد خدم به مصلحة اصحابه

وما زالا سائرين مسرعين حتى وصلا دمشق فنزلا في خارجها وقضى صالح اياماً وهو يدرس احوالها وترك سليمان هناك وسار الى الحميمة فتحقق وجود بني العباس وفيهم ابراهيم الامام ثم عاد واحتال الحيلة التي ذكرناها لتنطلي حيلته على مروان بغير ان يعرفه او يبحث عن قبيلته او اسمه او غير ذلك . فلما خرج من عند مروان في تلك الليلة سار تواً الى خارج المدينة حيث التقى بسليمان الحلبي وبدّل قيافته فلبس العمامة والجبة مثل سائر اهل الشام وتظاهر بالتقوى وامر سليمان ان يسير في اثره كأنه خادم له واوصاه وصايا تنفعه في المهمة التي هما سائران فيها — وذلك انه قصد البلقاء مسرعاً حتى اتى الحميمة على جمله وسليمان على جمل آخر في اثره . فلما وصل الحميمة نزل في خان وتظاهر بالتقوى والولاية واشاع خادمه سليمان انهما قادمان من الحجاز في مهمة لرجل سيكون له شان عظيم اسمه ابراهيم فلما سمع اهل الحميمة ذلك فالذين يعرفون صاحب الدعوة خافوه لئلا يكون قادماً بدسيسة فانكروا وجود هذا الاسم . وكان بعضهم يجتمعون اليه في الخان يستجسون ما في نفسه بغير ان يخبروه عن منزل الامام فكان صالح يتظاهر بالبله ويقول « تكبدت مشقة السفر من الحجاز الى الشام لارى الامام وتمنعوني منه وانا انما جئت لانبئه بهاتف اخبرني ان حياته في خطر قريب فليحترس » ولم يقل صالح ذلك الا لما تحقق قرب وصول رجال مروان بحيث لم يعد في امكانهم الفرار من ايديهم . فلما بلغ الامام قوله ارسل اليه اخاه ابا العباس متنكراً كانه بعض اهل المحلة فقدم الخان وسمع اقوال صالح من فيه فلم يعتد بها اذ لم يثبت عندهم انه من اهل الكرامة

ولم يمض على ذلك يومان حتى جاءت جنود مروان بغتة فاحاطوا بالمحلة حتى دلهم بعض اهلها على دار بني العباس وهم كثيرون فقاوموا الجند حتى كادت تكون مقتلة فقال رئيس تلك الشرذمة « ان أمير المؤمنين يطلب أحدكم الذي يسمى ابراهيم ولا خوف عليه ولا بأس عليكم جميعاً فسلموه الينا بلا قتال والا فاذا اخرجتمونا للقتال حلّ لنا أخذكم جميعاً »

فتذكر ابو العباس كلام صالح وتبين له صدقه ولكن لم يعد عندهم حيلة للنجاة

